الدكتور ابراهيم بدران
الدكتورة سلوى الخماش

دراسات في العقلية العربية

الخرافة





دار الحقيقة . بيروت

دراسات
في العقلية العربية
الخرافة

الدكتور ابراهيم بدران الدكتورة سلوى الخماش

دار الحقيقة - بيروت

الطبعة الثالثة
١٩٨٨م

فهرست

صفحة

الفصل الثالث

مقـــدِمَة

يشكل هذا الكتاب الجزء الأول من بحث مطول يتناول العقلية العربية بالدراسة والتحليل من جوانب جوهرية متعددة ، بحيث يؤدي هذا البحث في محصلته الى إلقـــاء مزيد من الضوء على العقلية العربية المعاصرة . يؤمل أن تساعد هذه الدراسة بدورها على الوصول الى حـالة من الفهم الأعمق والتقييم الأشمل للإنسان العربي الحديث الذي يبحث عن ذاته ويسعى واعياً وغير واع الى تحقيق هـذه الذات سواء عن طريق التصدي لتحديات الحضارة الإنسانية الحديثة ــ بكل ما فيها من انجازات علمية وتقنية وانفتاح فكري عام وتطور مستمر لمفهوم القيَم الاجتماعية وما تحمله من تعقيدات وتقدم ومعدل نمو وتنوع هائل في الكم والتكيف ـ التي تحتاج بدورها الى عقلية قادرة على مسايرة النمو مسايرة الخلق والابـــداع والسبق ، وليس مسايرة الركض وراء الأحداث واللهاث وراء الانجازات الحضارية التي تأخذ طريقها الى أسواق الدول المتخلفة من خلال الوكلاء التجاريين ومن على شاكلتهم . الانسان الذي يسعى الى تحقيق هذه الذات سواء عن طريق التصدي لتحديات الحضارة أو الهروب من هذا التصدي والاستغراق في أحـلام يقظة تخلق له جواً من التفوق الوهمي يستمد أصولها من مخلفات تاريخية على شكل قصص وحكايات وبطولات لا تمتّ الى انسان القرن العشرين بصلة إلا صلة الرؤية الوهمية ، وصلة النسب عبر مئـات من السنين .

وبحكم التاريخ الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للمنطقة العربية ، وبتأثير المواريث الثقافية والفكرية التي تعود الى مـــا يزيد على خمسة عشر قرناً ،

وبسبب استفحال مـــا يمكن أن يطلق عليه تعبير مركب نقص جماعي في المجتمع العربي بسبب الهوة الحضارية الضخمة بين الدول المتخلفة ، بمـــا فيها المنطقة العربية ، والدول المتقدمة ، وسيادة شعور بالعجز والعقم الاجتماعي في مجال الخلق والإبداع على مستوى الأمة ، لكل هذا كانت فكرة الانسان العربي أو مفهومه عن ذاته كفرد وعن المجتمع الذي ينتسب اليه فكرة أو مفهوماً لا يتفق في معظم الأحيان مع واقع الحـــال إن لم نقل يتناقض بشكل صارخ مع الحقائق الملموسة .

وكما هو متوقع، فإن مركب الشعور بالتميّز هو القناع الذي يختفي وراءه مركب النقص . ولذلك فـإن مفهوم الانسان العربي عن المجتمعات الأخرى تأثر بنفس المؤثرات وبردود الأفعال السيكولوجية الفردية والاجتماعية المضادة ليصبح بعيداً بعداً واضحاً عن الواقع الذي تعيشه تلك المجتمعات .

ولسنا نحاول في هذه الدراسة أن نتناول هذه المفاهيم ، مفـاهيم المجتمع العربي عن ذاته ، أو مفاهيمه عن المجتمعات الأخرى ، بتحديد معالمها وتحليل عناصرها رغم ارتباط هـذه المسألة بتركيب عقلية المجتمع ، بل إن المحاولة هنـــا مركزة أساساً على تحليل المؤثرات الذهنية وبعض ملامح ميكانيكية التفكير (Mechanism) ، والتي أدت وتؤدي الى نشوء هـــذه المفاهيم والاحتفاظ بها لفترة طويلة .

ومع أن تسليمنا بأن أية دراسة ومهما كانت أكاديمية تحمل قيمتها لذاتهـا وتمتاز بها لكونها تشكل خطوة على طريق اكتشاف الانسان للحقائق الطبيعية التي تحيط بـــه ، وبالتالي فهي تعبّر عن ارتقاء العقل البشري في مسيرته التاريخية ، إلا أن تناولنا للموضوع هنا ، من حيث جوهر البحث ومن حيث الغاية ، يرتكز على الدور الاجتماعي لعملية اكتشاف الانسان والمجتمع لذاته ، ومعرفة خصائصها الكامنة التي تتحكم بسلوكياته الفردية والاجتماعية ، تمهيداً لتطوير هذه الذات والخصائص، ولقلب الأوضاع التي تحول بينه وبين المساهمة الحقيقية في بنـــاء الحضارة الانسانية . ونحن ننطلق في هذا من مقولة تبدو بديهية على الورق، وبالغة التعقيد وقليلاً ما تتوفر في الواقع الذي تعيشه الدول

المتخلفة . هذه المقولة هي أن العصر الحديث يتطلب تركيباً ذهنياً ونفسياً وفكرياً في الفرد ، واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وايديولوجياً في المجتمع يختلف تماماً بالعمق والشمول والنوعية والديناميكية والكفاءة عن متطلبات العصور السابقة حتى عن القرن الماضي .

وعلى هــــذا ، فإن واحدة من السمات البارزة للإنسان العربي المعاصر هي ارتباطه الذهني والنفسي والفكري بسلفه الذي سبقه منذ مئات السنين .

بعبارة أخرى ، لسنا نحاول أن نتناول العقلية العربيـة كموضوع لدراسة تجريدية أو مختبرية بحتة تسلخ الانسان العربي عن مجتمعه، وتسلخ المجتمع العربي عن تاريخه وواقعه ، وتسلخه عن المجتمع البشري كذلك . إن الانسان العربي موضوع البحث لا ينظّر اليه كبطل رواية خيالية بقدر مـا هو كائن مادي تشكل عقليتَه ونفسيتَه وتحكم تجاوبَه مع العوامل الحياتية ، مؤثراتٌ تاريخية مادية بكل مـــا يترتب عليها ويرافقها ويتولد عنها بالمفهوم الجدلي من أفكار وثقافات وقيَم . ومن ناحية ثانية ، وهـذا هو الأهم من الناحية العلمية ، ان التجريد في التاريخ والاجتماع وغيرهمـا من العلوم الانسانية ، أمر غير ممكن ومتناقض أساساً مع المفهوم العلمي لحقائق الحياة .

ومن حيث المنهج ، فقد رأينا أن طبيعة الموضوع من ناحية ، والغـــاية الاجتماعية للبحث من ناحية ثانية ، تستدعي الابتعاد عن وضع إطار نموذجي لعقلية نموذجية يتم مقارنة العقلية العربية بها . كما تستدعي الابتعاد عن دراسة عينات مختبرية تكون أساساً للدراسة . باعتبار أن تلك العينات قد تفتقر الى البعد التاريخي الذي يلعب دوراً بارزاً في تشكيل العقلية الفردية والاجتماعية عموماً . هذه الأسباب دعت الى استخدام منهج تحليل واقع العقلية العربيـة من خلال البحث في العقلية عن «علامات بارزة» أو « نوافذ » تكشف طبيعة التركيب العقلي عموماً وتلقيضوءاً علىالكيفية التي يواجه فيها الفرد أو المجتمع مشاكله الحياتية .

إن هذه « العلامات » أو « النوافذ » والتي تكتسب أهميتها وقيمتهـــا للبحث من شدة اعتيادية النشاط العقلي عليها بسواء من حيث تمثيل المعلومات ،

أو الوصول الى النتائج ، هي المبرر الأساسي وراء اختيارها كمنطلق موضوعي بعيداً عن التعسف والمزاجية .

وفي هذا البحث فإن النافذة التي سنحاول أن نطل منها على العقلية العربية هي « الخرافة » . هـل العقل العربي خرافي ؟ هل الإنسان العربي يؤمن بالخرافة ؟ ومَنْ من شرائح المجتمع يؤمن بالخرافة ؟ هـل تتحكم الخرافة في سلوكيات الفلاح المسحوق تحت وطأة الاستغلال الطبقي ؟ أم هو ابن الطبقة المتوسطة في شرائحها الدنيا ؟ هذا ما تحاول الدراسة الحالية أن تجيب عليه . وبما أن المجتمع العربي متباين بعض الشيء في عقليته ، فإن تركيزنا دائماً هو على الخطوط الأساسية المشتركة ، وإن كان الرجوع الى المجتمع المصري أكثر من غيره من المجتمعات العربية عند تقديم الأمثلة . ويعود ذلك كما هو متوقع ، الى توفر المادة المكتوبة عن المجتمع المصري سواء من حيث الرواية أو التاريخ أو الاجتماع . ولأن المجتمع المصري بحكم استمراريته لقرون طويلة ، يشكل تكثيفاً تاريخياً لكثير من المعتقدات الخرافية العربية ، سواء كانت إسلامية التاريخ أو المنشأ أو غير إسلامية ، ولأن التأثير الثقـافي لمصر على المجتمعات العربية الأخرى لا يمكن التقليل من أهميته .

إن مصادر البحث متنوعة ، وربما لا يمكن إدراجها تحت فصيلة واحدة من المصادر . فهي تشمل مصادر تاريخية وأدبية واجتماعية وسياسية ، قديمة ومعاصرة . وتشمل كذلك تجارب شخصية للمؤلفين أو غيرهما . وتلتقي هذه المصادر في أنهـا تعبر عن الموقف العقلي للإنسان العربي مع التركيز على تتبع هذا الموقف الى جذوره العميقة في التاريخ، أو بين الشرائح الاجتماعية المختلفة.

والدراسة الحالية ، ليست دراسة مقارنة بـين المجتمع العربي وغيره من المجتمعات الإنسانية . وكشف المواقف الخرافية للذهنية العربيـة لا يعني الانطلاق من موقف سادي أو شيزوفروني ، أو تمييز الشعب العربي فقط بالخرافة . ولكننا نعتقد أن التركيب السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع العربي بكل مـا يعني ذلك من مؤسسات وبُنى فوقية وتحتية ، وبكل ما يتضمنه من ضغوط فكرية وسياسية ، هذا التركيب بكامله حين تتغلغل فيه

الخرافة ، وخاصة المستندة منها الى أصول الأيديولوجيا الدينية ، سواء كان هذا الاستناد حقيقياً ، بمعنى أنه من صلب الايديولوجيا الدينية ذاتها ، أو وهمياً من افتراض أصحاب الايديولوجيا أنفسهم ، يصبح تركيباً خاصاً ، ووضعيته منفردة يتميز بها المجتمع العربي عن غيره . وبسبب انعدام المؤسسات السياسية عموماً ، وانعدام الحرية الفكرية والحرية الاجتماعية بالمفهوم التقدمي ، وبسبب استمرار تحكم الفئات المحافظة ذات العقلية العشائرية الفردية سواء مباشرة أو عن طريق بيروقراطيات وشبه برجوازيات عسكرية أو متعسكرة ، بسبب هذا يصبح في رأينا التأثير المخرب للخرافة أضخم مما لو وجدت نفس هذه الخرافة لدى شرائح معينة في مجتمع عصري متقدم له مؤسساته الثابتة والعريقة والمتطورة .

وأخيراً فإن الأمثلة التي وردت في الدراسة تشكل في رأينا نسبة ضئيلة مما هو موجود فعلاً . والأمثلة ذاتها تعبر عن المواقف الخرافية الصريحة التي استلزمها عمل فيزيائي معين . ولكن المواقف الخرافية الكامنة أو على الأصح الذهنية الخرافية المغلفة بقشور رقيقة من التعليم الابتدائي أو الثانوي أو الجامعي هي الأكثر خطورة ، لأنها تشكل جوهر العقلية الاجتماعية التي يرتبط بها التغيير الحقيقي الذي قد يطرأ على المجتمع . هذه العقلية التي تحتاج في رأينا الى جهد كبير على الصعيد النظري وبالترافق بطبيعة الحال مع الجهود المادية المتعلقة بتطوير الاقتصاد والعلاقات الانتاجية والاجتماعية والسياسية ، تحتاج الى جهد كبير لتخليصها من المعلومات وكذلك ميكانيكية التفكير الخرافية التي تفسد هذه العقلية وتجعلها عاجزة عن التحدي والانطلاق والابداع .

ابراهيم بدران – سلوى الخماش

. . . .

وفي حلقة الذكر ينسى الذاكرون شخوصهم ...
وتخف جسومهم فلا يكادون يشعرون بها ...
وتتحرر أقدامهم من الأرض لتصبح معلقة في الهواء ...
وتغمض عيونهم وتفتح قلوبهم فلا يرون إلا السماء ...
وبالذكر يتم الانفصال وبالذكر يتحقق الوصال ...
أما إذا لم تكن مؤمناً بتعاليمنا ...
ولم تكن – واحسرتاه – مصدّقاً بأسيادنا ...
أما اذا داخل قلبك الارتياب ...
وتسرّب الى وجدانك الشك ...
فإنك لن ترى سوى أبدانٍ راقصة ...
ولن ترى سوى أفواه مزبدة ...
ولن ترى سوى عيون جاحظة ...
ولن ترى سوى دفوف وبخور ...
ولن تبصر ما يُبصره مريدونا ...
ولن يفتح الفتّاح عليك كما فتح علينا ...
وسوف تضل وراء سراب العقل القاصر ...
وسوف ترانا كما يرانا الكافر ...
ولن تكونَ إذ ذاك منّا ...

. . . .

أ. ب.

مدخل الى الخرافة

إذا عرّفنا الخرافة بأنها الأفكار والممارسات والعادات التي لا تستند الى أي تبرير عقلي ولا تخضع لأي مفهوم علمي سواء من حيث النظرية أو التطبيق، فإن الذهنية الخرافية هي تلك الذهنية التي تسيطر على الفرد أو الجماعة بحيث يكون للخرافة فيها مكان بارز سواء في نقل المعلومات أو تمثيلها ، وفي تفسير الأحداث أو تعليلها . والذهنية الخرافية بهذا الصدد هي أيضاً تلك الذهنية التي تحاول أن تصل الى أهداف الفرد أو المجتمع على أسس لا تستند الى العلم والعقل[1]. ويحدث أحياناً أن تجتمع في الذهن معلومات لا تنطبق عليها صفة الخرافية ، غير أنه بحكم البيئة الاجتماعية ، بما فيها من أفكار خرافية متوارثة تجعل الميكانيكية التي يعمل بها الذهن ميكانيكية خرافية . ويعني ذلك أن المعلومات بحد ذاتها ليست بكافية لنقل الذهن من حالة خرافية الى حالة عقلية علمية ؛ بل من المهم واللازم أيضاً أن تجتمع المعلومات والميكانيكية معاً لتوفير الذهنية غير الخرافية .

إن الاعتقاد على سبيل المثال بأن عدواً ما يمكن هزيمته بواسطة السحر والاستعانة بالشياطين هو اعتقاد خرافي كما هو واضح ، لأن مثل هذا الاعتقاد مبني على معلومات خرافية ، وهي إمكانية تسخير ما يسمى بالشياطين أو الملائكة في مثل هذه العملية . بالإضافة الى كون الميكانيكية هنا معطلة

---

(١) راجع ما ورد بخصوص الخرافة والعلم في كتاب :

Malinowski, B. K., Magic, Science and Religion. Glencoe Press: Illinois, 1948.

بطبيعة الحال . كذلك فإن الاستنتاج بأن مجموعة ما ستنتصر في حربها ضد مجموعة أخرى استناداً الى أن أجداد المجموعة الأولى قد سبق وأن انتصروا في معارك متعددة عبر التاريخ ، وأن المجموعة الثانية كانت قد منيت بهزائم في تاريخها ، يدل على خرافة ميكانيكية التفكير ، حتى ولو كان ما جاء في التاريخ صحيحاً [1] .

السؤال المطروح الآن هو : إلى أي مدى ما زالت الخرافة متفشية في الوطن العربي عمقاً وانتشاراً ، ولدى مختلف الطبقات الاجتماعية ؟ وهل استطاعت الجماهير العربية أن تحرر ذهنيتها من الميكانيكية الخرافية مستفيدة من علوم وحضارة القرون السابقة التي أنجزتها الإنسانية وأوصلت بها الإنسان المتحضر في البلاد المتقدمة الى تكييف معطيات الطبيعة، واستخدام الإمكانات الى الدرجة التي صار مألوفاً في نفس البلدان المتقدمة أن يضع الإنسان برنامجاً يستغرق سنوات عديدة للوصول الى هدف لم يسبق له الوصول إليه من قبل ، معتمداً على وواثقاً بقدراته الخلاقة وإبداعه المتزايد على تذليل الصعاب التي سوف تنشأ خلال مسيرته .

إن مظاهر الخرافة في مجتمع ما تتحدد بصورة أساسية بمستوى التقدم الحضاري بمفهومه الواسع ثقافياً واقتصادياً وعلمياً ، وهي بذلك تعبير سلبي عن مقدار هذا الرقي . وواضح أن تغلغل الخرافة سواء اعتقاداً أم ممارسة يسير باتجاه معاكس للسلم الطبقي ، بحيث نجد أن الطبقات الدنيا الفقيرة والمحرومة هي الأكثر لجوءاً وإيماناً بالخرافة ، باعتبارها إحدى الوسائل التي تساعدها على تخفيف آلامها ، وتثير في خيالها آمالاً وإن كانت وهمية كاذبة

---

(١) جاء في الاهرام ١٣/١٠/٧٣ ؛ في مقال للدكتورة بنت الشاطيء تحت عنوان : في ذكرى بدر آية ومدد : ... عن بصيرة ملهمة ، أصدر القائد الرئيس محمد أنور السادات قراره التاريخي لخوض حرب التحرير ، في أوج شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ...

فاي فال طيب ، أن تبلغ المعركة ذروتها في ذكرى يوم الفرقان ، لتؤنس جنودنا البواسل بيقين النصر على أعداء البشر وتزويدهم بمدد من أطياف أصحاب بدر ، جند الكتيبة الأولى التي انتصر بها الإسلام على طاغوت الوثنية ؟ ص ٥

تساعدها على انتظار المستقبل الذي سيحمل الخلاص يوماً ما. يضاف الى ذلك أن فرص التعلم المتاحة لأبناء هذه الطبقات أقل بكثير مما يمكنها من أن تتخلص من أفكارها الخرافية لتحل محلها أفكاراً أكثر علمية وعقلانية حسب ما يسمح به مستوى العصر، كما هو الحال بالنسبة للطبقات الأعلى. ومن ناحية أخرى فإن فقر الطبقات الدنيا يجعلها في كثير من الأحيان عاجزة عن اتباع الوسائل العصرية في حل أكثر مشاكلها وخاصة تلك الأكثر التصاقاً بنشاطاتها المعيشية مثل الأمراض والمشاكل الاجتماعية كالزواج والإنجاب وكذلك المحاصيل والحيوانات. وكون أبناء الطبقات الدنيا في أسفل السلم الاجتماعي يعني بالضرورة كونها أكثر الطبقات معاناة للكبت والحرمان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وخاصة في المجتمعات القديمة المتواصلة، كما هو الحال في مصر والعراق من بين البلدان العربية، أو كما هو الحال في الهند مثلاً وما شابهها. الأمر الذي يدفع هذه الطبقات، وبحكم جهلها وانعدام الإمكانات لديها، الى القبول بالحلول الخرافية كسبيل لمواجهة الواقع والاستغراق في الأوهام والأحلام الخرافية التي تحمل في ثناياها الثروة والجاه والصحة والسعادة الدائمة.

ومنذ القدم ارتبطت الخرافة وتداخلت مع الأديان لدى مختلف الشعوب، وذلك على اعتبار أن كلاً من الخرافة والدين تتمثل فيها محاولة تفسير ظواهر الكون المختلفة التي لم يكن الإنسان قد بلغ بعد من المعرفة العلمية ما يمكنه من تفسيرها. ومما ساعد على ذلك أن كلاً من الخرافة والدين لا يستندان بطبيعتها الى التحليل العقلي المطلق ولا يخضعان للتجربة العلمية. كما أن ربط الخرافة بالدين سواء ربطاً أصيلاً أو افتراضياً مع الزمن يكسبها قوة ويدفع الجماهير الجاهلة الى قبولها وتصديقها، مما يتيح لمحترفي الشعوذة في المجتمع فرصة أكبر لاكتساب مكانة أكبر على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي وأحياناً السياسي كما تجلى في المكانة التي وصل إليها « راسبوتين » في روسيا القيصرية.

ولسنا نحاول هنا بحث نشوء الخرافة عموماً، وإنما سنتعرض لبعض مظاهر الخرافة في البلاد العربية آخذين مصر كمثل رئيسي بسبب استمرارية

المجتمع المصري قروناً طويلة ولكونه ملتقى للثقافات والأفكار التي ورثتها وأخرجتها المنطقة منذ آلاف السنين .

يقول الرحالة الانجليزي « لين » (Lane) في كتابه أخلاق وعادات المصريين الحديثين وذلك حين زار مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأقام فيها فترة: أن « العرب ميالون جداً للخرافة ، وهم في مصر أكثر ميلاً اليها من غيرها من البلدان » (١) .

فعلى مر العصور نجد أن الحكام الأجانب لمصر ومعظم الأقطار العربية ، وإن كانت بدرجات متفاوتة ، كانوا يعتمدون على جنودهم الخاصين بهم لدعم وتحقيق سلطتهم المطلقة، مبعدين بذلك الغالبية الكبرى من السكان عن الخدمة العسكرية ؛ والمناصب الإدارية . وباستثناء مجموعات صغيرة كانت تشغل بعض المناصب غير العسكرية ، فإن الاتصال بين الحكام والرعايا كان محدوداً جداً ويتمثل في جمع الضرائب وفرض الإتاوات واستجلاب الأفراد في أعمال السخرة والخدمة ، وغير ذلك مما تفرضه طبيعة الأنظمة الاستبدادية المستغلة (٢) .

ونتج عن هذا الوضع هوة كبيرة بين الحاكم والمحكوم ، لدرجة أن أية أفكار جديدة قد تتداولها الشرائح العليا الحاكمة ، لم تكن لتصل الى جماهير الشعب ، دعك من أن تؤثر فيها . ففي أوج العصر الهليني الذي تميز بالروح العلمية والفلسفة ، نجد أن أقلية صغيرة جداً من أثرياء المدن من الذين أتيحت لهم فرصة الاختلاط بالحكام الإغريق في مصر مثلاً، أظهروا اهتماماً بالإنجازات العقلية ونهجوا على نهجها (٣) .

وفي العصور الإسلامية التي تلت الفتح العربي لم يكن الحال بأحسن من

---

(١) E. W. Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, ed. 1860, p. 228.

(٢) H.A.R. Gibb and Harold Bowen, Islamic Society and the West (London OUP, 1950) Vol. I, pt. I.

(٣) Encyclopaedia Britannica, Hellenistic Age, Vol.11, p.328.

ذلك كثيراً ، وخاصة بالنسبة للقطاعات الجماهيرية ، حيث استقطبت قصور الخلفاء في معظم الأحيان أصحاب العلم اليها، دون أن يتاح للجماهير الاستفادة من ذلك بشكل كبير[1]. يستثنى من ذلك بطبيعة الحـــال حلقات الدروس الدينية التي راجت في العراق وسوريا ومصر فيما بعد، والتي كان يتركز الاهتمام فيها حول مسألة العقيدة والفقه والحديث ولا يتعداها . فقد كان هدف التعليم الأساسي في هـــذه الحلقات في المساجد هو حفظ المعلومات الدينية ، وتهيئة النفوس للعالم الآخر . وكانت الحركة الدينية هي « الحركة العلمية الغالبة في المملكة الاسلامية »[2] .

وبعد انتهاء العصر العباسي الأول وانقسام المملكة الاسلامية الى إمارات وممالك تتمتع بالاستقلال الذاتي في كثير من الأحيان وما رافق ذلك من انشاء مراكز للحكم متعددة ، نشأت مراكز متعددة للعلم والأدب « فأمراء القطر يعطون عطاء خلفاء بغداد ، ويحاولون عاصمتهم بالعلماء والأدباء ... »[3] . فكثرت المساجد وحلقات الدرس فيها. إلا أن الأوضاع الاجتماعية والسياسية، بما تميزت به من أحوال سيئة للغاية على مر العصور[4]، لم تسمح لأعداد كبيرة أن يلتحقوا بالمساجد للتعلم فيهـــا رغم أنها كانت تموّل من الأوقاف ، ويمنح الدارسون فيها مـــا يكفي معيشتهم (الجراية) وتتاح لهم فرصة الإقامة في أروقتها . ذلك أن تحصيل القوت الضروري للإنسان عموماً كان يستنفد كل

---

(١) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء الأول، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦ ، ص ١١٥ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٦١ ؛ فالأمويون كان أكثر تشجيعهم للحركة والأدبية والقصص الرسمي، ففتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء. أحمد أمين، فجر الاسلام ، دار الكتاب العربي، بيروت سنة ١٩٦٩ ، الطبعة العاشرة . ص ١٦٤ .

(٣) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٩٤ .

(٤) راجع تِشْنِر ، شتيات ، الخاش ، تاريخ العالم العربي ، دار صادر ، بيروت ، سنة ١٩٧٤ ، ص ٩٢ وما يتبع .

جهده وطاقته ، بحيث لا يتبقى لديه من الوقت مـــا يصرفه على دراسة لاهوتية مجردة "[1]".

وكما ذكرنا سابقاً ، فإن الاستغلال والاضطهاد المستمرين أحـالا الحياة الى سلسلة متصلة من البؤس والشقاء وقضيا على أمل الإنسـان في تحسين أحواله ، مما دفع بالجماهير البسيطة الفقيرة الى البحث عن العزاء والراحة في عالم السحر، وما وراء الطبيعة "[2]" . ذلك العـالم وما يتضمن من خرافات لم يكن بطبيعة الحال اختراعاً جديداً بقدر ما كان استمراراً وتطويراً وإضافة على خرافات قديمة يعود تاريخها الى ما قبل الإسلام بقرون . وإنما طرأ على هذه الخرافات تطوير مهم . وهو تداخلها مع الدين واكتساب بعض منها شيئاً من قدسية التعاليم الدينية نتيجة لتفسير بعض الآيات والأحاديث بصورة تتلاءم معهـــا – أي الخرافات – وبسبب النصوص التي لم يجد لها المسلمون تفسيراً عقلياً مقنعاً ، وسنذكر أمثلة على ذلك في حينه .

فإذا قفزنا الى القرن الحالي، ورغم مرور أكثر من مائة سنة على ملاحظة « لين » ، وما تخلل هذا القرن من انتشار التعليم وزيادة عدد المدارس بشكل كبير جداً بالنسبة لما كان في القرن الماضي ، إلا أن الدلائل ما زالت تشير بأن طريقة التفكير العربية لم تتغيّر كثيراً ، وخاصة في الأوساط الجماهيرية وفي الطبقات الدنيا ، وهي التي تشكل الأغلبية العظمى للسكان . وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة ، نقول أن القطاعات الجماهيرية البسيطة ما زالت تعتقد وتمارس كثيراً من الخرافات ، وما زالت عرضة للإثارة بالخرافات ، وخاصة ما يتعلق منهـــا بالجن والسحر والأولياء والكرامات . وما زالت تلجأ الى

---

(١) « .. ان العلم والأدب كانا أرستقراطيين لا شعبيين ، فالعلماء والأدباء يقصدون إلى بـــلاط الأمراء والولاة والقواد يتكسبون منهم إذ لا يستطيعون التكسب من الشعب » . أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ١٩٢ . كذلك راجع :

Abul - Futuh Ahmad Radwan, __Old and New Forces in Egyptian Education__**, New York 1951, p. 72.**

(٢) راجع أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ٢١٣ ، ٢١٩ .

الخرافة في حل مشاكلها البسيطة (سنورد فيا بعد مـا يوضح هذه المعتقدات والممارسات). أي أن ميكانيكية التفكير لديها ما زالت خرافية الى حد كبير ومفاهيمها حتى عن العالم المعاصر وحتى عن المنجزات العلمية ، مفاهيم خرافية في الجوهر .

إنّ الخطر الذي يترتب على هذا الموقف قد تضاعف عمـا كان عليه في الماضي . فمع أن الذهنية الخرافية كانت دائمـاً في الماضي وما تزال تشكل خطراً كبيراً على نمو المجتمع وتطوره وتقدمه ، إلا ان الفوارق الثقافيـة والحضارية والعلمية بين المجتمعات في الماضي لم تكن كبيرة نسبياً كما هي في هذا العصر . فقد أصبح الموقف ومنذ أوائل هـذا القرن يتمثل في تواجد مجتمعات بأغلبيتها تسيطر عليهـا الذهنية الخرافية – وتتركز هذه المجتمعات أساساً في دول العالم الثالث وخاصة آسيا وإفريقيا– تواجه تحدياً من مجتمعات اخرى في غالبيتها تتمتع بذهنية علمية على جانب ضخم من التقدم ، وهي مجتمعات الدول الصناعية المتقدمة . يضائل هذا الأمر ، أي الذهنية الخرافية ، من إمكانيات صمود المجتمعات المتخلفة لتحديات العصر بالكم والكيف المطلوبين وفي الوقت المناسب . كما أن التركيب المعقّد للمجتمعات الحديثة والتركيب المعقد لاجهزة الدولة ، والمستوى المعقد نسبياً للتنظيم الاقتصادي والسياسي ، واعتماد المؤسسات الحكومية الواحدة على الأخرى وتداخل أعمالهـا ، أو باختصار : إن التركيب المعقد للدولة الحديثة والعلاقـات الدولية المعقدة ، كل ذلك يجعل نوعية عقلية الجماهير على جانب كبير من الأهمية ، بحيث أصبح وجود نخبة متعلمة وحتى لو كانت تتمتع بعقلية علمية متقدمة ، وحتى لو توفرت لهـا الجامعات والمؤسسات المناسبة ، أصبح وجود النخبة لا يكفي ولا يعني اتوماتيكياً وجود دولة عصرية .

إن طبيعة التركيب الحديث للدولة في إطار علاقات إنتـاج متطورة وتقدمية وتكنولوجيا عصرية ، هذه الطبيعة التي يفرضها العصر ، تعطي أهمية كبيرة لكل فرد (بالمفهوم النوعي والمعبر عن الفئة أو القطـاع) في المجتمع لأن له دوراً إذا لم يقم به على الوجه الأكمل أثّر ذلك على بنيان الدولة

بأسرها . وواضح ان استيراد المعدات الحديثة ، وبناء الجامعات وغير ذلك لا يعني تحديثاً للدولة اذا لم تتمكن القطاعات العريضة من الجماهير التفاعل مع هذه المعدات بالشكل والكيفية التي تتطلبها .

أما بالنسبة للفئات المتعلمة ، فإن طريقة التفكير لديها لم تتغير جذرياً عما كانت عليه قبل مائة عـــام بالكم والكيف الذي يتناسب مع المعلومات غير الخرافية التي استطاعت تحصيلها . وسنرى فيما بعد كيف أن أعداد كبيرة من المتعلمين والذين يشغلون مناصب قيادية في أجهزة الدولة مـــا زال تفسيرهم وتحليلهم للأحداث بعيداً عن العلميـــة . وسنرى أن الأساس الخرافي الذي أقيمت عليه البُنية العلمية الحديثة في ذهنية المتعلم ، ما زال يؤثر بشكل فعال في رد فعل الفرد والمجتمع ، وخاصة حين تمر البلاد أو الفرد بمشاكل لم يكن يتوقعها ، أي فترات الأزمات ، فيكون عندئذ على استعداد حتى لتصديق الخرافة التي يؤمن بها الفلاح البسيط . إن الأزمات في المجتمع العربي ، ومثال ذلك حرب عام ١٩٤٧ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، تكشف أن هناك وحشاً خرافياً متربصاً في الذهن العربي على استعداد للانطلاق وهدم كل ما أقامته جامعات أكسفورد ، وكاليفورنيا ، ولندن وباريس وبرلين في ذهن المتعلم العربي .

أضف الى ذلك ان العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع من ناحية والضغوط المتزايدة للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة في الوطن العربي ، وسيطرة الاستبداد والاستغلال ، وانعدام المؤسسات الديمقراطية من ناحية أخرى ، يكون من شأنها تخفيف « علمية » المتعلم العربي مع الزمن ، ليساير المجتمع من جهة ، ولكي لا يتعرض للاضطهاد من جهة أخرى ، وليحقق بعض المكاسب من جهة ثالثة . أو تدفع به الى الانعزال عن مجتمعه والارتباط ذهنياً وثقافياً بقضايا ومجتمعات بعيدة عن مواقع قدميه .

الفصل الأول

الكائنات الخفية

الكائنات الخفية

١ - الجن والعفاريت

من الخرافات التي ما زال لها تأثير قوي على الجماهير : الجن والعفاريت . ويعبر أحمد أمين في كتابه قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية عن دهشته من كثرة عدد الكتب التي تكتب عن موضوع الجن وكيفية تسخيرها لتحقيق الرغبات والوصول الى الأغراض المستعصية فيقول :

ويستغرب الزائر لدار الكتب من كثرة الكتب التي تحتويها في هذا الموضوع وكثرة استعارة هذا النوع للمطالعة [١] .

ويلاحظ أنه :

من غريب الأمر أنهم يعتقدون في الكتاب المخطوط أكثر مما يعتقدون في الكتاب المطبوع ، والمكتوب حديثاً أقل بركة وفائدة من المكتوب قديماً.. وهم يعتقدون في أن للحروف أسراراً ويكتبونها صوراً مخالفة للحروف المألوفة ويسمّونها حروفاً روحانية أو علوية نظير هذه العلوم التي في العالم السفلي ، ويزعمون أن لكل يوم من أيام الأسبوع جناً تغلب عليه ويعرفها من هو أهل لها ، ففي كل ساعة من ساعات الأيام برج مخصوص له السلطان ولكل برج مواليد تتأثر به سعادة أو شقاء [١] .

---

(١) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٥٣ ، ص ١١٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١١٧ .

وفي الواقع فإن عاصمة عربية تكاد لا تخلو من تلك الكتب المطبوعة على ورق أصفر والتي تحمل العناوين المثيرة : **النجم الساطع في معرفة الطالع ، السر الربّاني في العلم الروحاني ، شموس الأنوار وكنوز الأسفار ، البهجة اللمّاعة في تسخير ملوك الجن في الوقت والساعة ، الفتح الرحماني في العلم الروحاني** ، وعليها أسماء مؤلفيها ومؤهلاتهم « العلمية » . فنقرأ مثلاً : العالم العلّامة والحبر الفهّامة فريد عصره ووحيد زمانه الفقير اليه تعالى الشيخ نفيس الدين الياقوتي ... الخ .

وإذا استثنينا بعض العواصم العربية القليلة التي لا يكون التأرجح في نظام الحكم فيها ظاهراً ، فإن مثل هذه الكتب وما شابهها يمكن اتخاذها « كميزان حرارة » لمعرفة حالة الذهنية العربية في أعماقها وكما يريد لها نظام الحكم أن تستمر . فعند ارتفاع المد اليميني تتدفق هذه الكتب على الأسواق بشكل ملحوظ ترافقها صور مبروزة بألوان زاهية للإمام علي بن أبي طالب والحسن والحسين ، وعنترة والزير سالم الى آخر القائمة . ثم تعود لتختفي نسبياً عند انحسار الموجة . فنرى مجلة كروز اليوسف مثلاً ، تفرد صفحات في بعض أعداد لها سنة ١٩٧٠ لما أطلقت عليه « حرب الخرافة » وأن أحد كتّابها – حلمي هلال – سيكون من شهود الحملة التي قررها مكتب البحث الجنائي في الاسكندرية « لتطهير الاسكندرية من أوكار الخرافة والشعوذة »[١] . وبغض النظر عما كشفت عنه هذه الحملات لا يستطيع قارىء الصفحات تلك إلا أن يستغرب ذلك الحماس الفجائي الذي طرأ سواء على الشرطة أو مكتب روز اليوسف فيما يتعلق بالدور التخريبي الذي تلعبه الخرافة وضحاياها الذين هم من مختلف طبقات الشعب . ولا يسعه إلا أن يردد مع واحد من الدجالين وهو الشيخ رشاد الذي قال بلهجة متعالية حين استجوبوه في القسم :

وأنا مالي! الناس هي اللي بتيجي لي ! أنا باعمل خدمة انسانية... من تلاتين سنة . اشمعنى النهار ده يعني[٢] ؟!

---

(١) روز اليوسف ، عدد ٢١٩٢ ، سنة ١٩٧٠ ، ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤ .

ولا يستطيع الانسان إلا أن يستغرب أيضاً ذلك الفتور السريع الذي أصاب الجلة أو رجال الشرطة بحيث انتهت « حرب الخرافة » فجأة وبعد أعداد قليلة . هل تدخلت السلطات ؟ أم اقتنعت الجلة بأنها أدت مهمتها ؟

ومع أن كثيراً من الخرافات حول الجن ووجودها وتأثيرها كانت معروفة لدى عرب الجاهلية وغيرهم وكانت لهم قصص في ذلك كثيرة ومتنوعة ، يمكن أن نفهم الدواعي النفسية والثقافية والاجتماعية التي ساعدت على توليدها عبر عصور التاريخ الغابرة ، إلا أن اعتقاد الجاهليين بالجن لم يكن جزءاً من عقيدتهم الدينية بشكل محدد ومكتوب والتي كانت خالية الى حد كبير من التعقيد الذي لا تقدر على تطويره بيئة البادية . هذا لا يستبعد بطبيعة الحال توارد قصص من أقطار أخرى على البادية تناقلها بعض رواتهم . وكان أكثر اعتقادهم بالجن أنه على شكل شيطان يوحي الى الشاعر بشعره ، بحيث زعم العرب أن لكل شاعر شيطاناً ، فيقول شاعرهم أبو النجم العجلي :

اني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

ونجد أن عرب الجاهلية كانوا يقولون بذكورة وأنوثة الشياطين ، ويزعمون « أن الجن تفعل كثيراً مما يفعله الناس . فمثلاً نسبوا إليها أنها بنت « تدمر » ويزعم القطامي انهـــا تغني . ويزعمون أيضاً أن للجن علاقة بالانس ، فقد « يعشق الجني امرأة وقد تعشق جنية رجلاً »[1] . وانهم قد يتزاوجون وينجبون . فزعموا « أن « جرهماً » كان من نتاج تَحدّثٍ بين الملائكة والإنس.وزعموا أن بلقيس ملكة سبأ كانت من مثل ذلك النجل والترتيب»[2]. بل أنهم استخدموا مفردات خاصة لتدل على الأبناء المنحدرين من مثل هــذا الزواج المزعوم . « فالخِس » هو ناتج زواج الأنسي والجنية . وزعموا « أن سنان بن أبي حارثة لما هام على وجهه استفحلته الجن تطلب كرم نجله .. وأن مرروات الجن (أي وجهاء ووجيهات الجن) بنات الرحمن .. »[3] .

---

(١) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ص ١٤١ .

(٢) أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ص١١٧.

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٧ — ١١٨ .

إلا أن الجن وما يتفرع منهم أو مـــا شابههم من شياطين وعفاريت أو ملائكة ، كل مثل هذه « المخلوقات » غير المرئية قد كسبت بمجيء الإسلام مكانة جديدة جعلت الاعتقاد بوجودها جزءاً من العقيدة الاسلامية . وأدى ذلك بطبيعة الحال الى «صبغ» مفهوم الجماهير عن الجن بصبغة اسلامية . فقد وردت أخبار عن الجن في القرآن من حيث أنهم مخلوقات من نار«وخلق الجان من مارج من نار»[1]، وأنه ينطبق عليهم الكفر والإيمان . فقد جاء على لسان نفر من الجن قولهم « إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنــا أحداً »[2] . وأن منهم الصالحون ومنهم الطالحون وأنهم على طرائق مختلفة « وأنـّا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً »[3]. وأنهم معرضون للعقاب ولدخول النار تماماً مثل الناس «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »[4]. وأنهم قــد يتسببون في إيقاع الضرر والأذى بالإنسان « من الجنـّة والناس »[5] .

ومع أن القرآن قــد خالف بعض معتقدات عرب الجاهلية حول الجن ، وخاصة حين نسب العرب سروات الجن الى الرحمن فقال: «وجعلوا بينه وبين الجنـّة نسباً »[6]، إلا أن أغلب مفاهيم الجاهلية عن الجن استمرت كما هي من حيث الجوهر وكثير من التفاصيل ، واستخدمت الآيات القرآنية لتأكيد معاني تلك المفاهيم. فعلى سبيل المثال، فإن التناكح والتلاقح بين الجن والإنس وهي فكرة جاهلية ، قد استمرت بعد الإسلام ، حيث أُخذ على أنه قد يقع ذلك بين الجن والإنس تفسيراً للآية : « وشاركهم في الأموال والأولاد »[7]

(١) سورة الرحمن ، آية ١٥ .
(٢) سورة الجن ، آية ١ و ٢ .
(٣) سورة الجن ، آية ١١ .
(٤) سورة هود ، آية ١١٩ .
(٥) سورة الناس ، آية ٦ .
(٦) سورة الصافات ، آية ١٥٨ .
(٧) سورة الإسراء ، آية ٦٤ .

لأن الجنيات إنما يعرضن لصرع الرجال من الإنس على جهة العشق هم وطلب الفساد ، وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم [١] .

ورغم أن عدداً من الفقهاء وغيرهم لم يوافقوا على هذا الرأي ، وكذلك فعل الثعالبي الذي اقتبسنا منه العبارة السابقة ، إذ أعلن في نهاية عبارته ، ما يفيد بأنه « بريء اليك من عهدة هذا الكلام والسلام »[٢] إلا أن «الفقهاء في بعض كتبهم فرضوا صحة ذلك » [٣] .

وبصورة عامة يمكن القول أنه بالرغم من أن المفكرين الأوائل في الإسلام من فقهاء وعلماء دين وفلاسفة لم يصلوا الى توضيح حاسم لماهية الجن ودورها وتأثيرها على الانسان من حيث أنـــه لا يمكن التأكد من حقيقة وجودها بالاستناد الى العقل والحس والإدراك ، إلا أنهم ، أي الفقهاء ، سلموا بالدور والصفات التي أقرّها القرآن للجن ، وبالتالي أصبح من الصعب عليهم أن يدحضوا ادّعاءات العامة أو المشعوذين حين يكون مجال هـــذه الادعاءات أعمال وقصص تتعلق بالجن .

إن ما يهمنا هنا ، هو صورة الجن في أذهان الجماهير من حيث فعاليتها وتحكمها في التكوين النفسي للفرد والمجتمع،سواء في مراحل حياته المتعددة أو من خلال الحياة اليومية . ونحن لا ننفي أن عدداً قليلاً من رجال الدين من المتنورين قد لا يوافقون على المفهوم السائد لدى عـامة الناس عن الجن ، إلا أنه كما سبق وأن أشرنا بأنه فيما يتعلق بالسلوك الجماهيري والتكوين العقلي والنفسي للقطاعات العريضة من الجماهير ، فليس المفهوم الأكاديمي هو المهم ، بل إن المهم عملياً هو تصديق الناس للفكرة وإيمانهم بأنهـا جزء من الحياة ومن الدين ، وبالتالي تصرّفهم على أساس هذا الاعتقاد والإيمان .

يمكن القول بأن مفهوم الجماهير عن الجن قد تطوّر نوعاً مـا عبر العصور

---

(١) الثعالبي . فقه اللغة ، ص ١٨٨

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٣) أحمد أمين ، قاموس العادات ، ص ١٤١ .

حسب طبيعة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية السائدة . ففي الوقت الذي كان الشاعر الجاهلي يشير الى شيطان الجن بأنه مصدر وحيه وإلهامه ، نجد أن الإسلام ، تعرّض للجن على أنها من المخلوقات التي لها دور هام من حيث إيمانها بالله أو كفرها به ، ومن حيث أن لها دوراً خطيراً على الإنسان قد تودي به الى الهلاك (النار) .

وتحولت الأدوار التي يقوم بها الجني في العصور الإسلامية التالية الى المارد الخادم الذي يقوم بتحقيق الأحلام الاقتصادية أو الاجتماعية التي تملأ أذهان العامة ، خاصة في فترات الاستغلال الاقتصادي ، ابتداء من القرن الرابع الهجري وحتى نهاية العصر العثماني . نجد ذلك واضحاً في عدد من قصص ألف ليلة وليلة . فنقرأ عن المارد المحبوس في قمقم منذ آلاف السنين والذي يصبح خادماً لصاحب الحظ السعيد فيحقق له رغباته وينقله الى قصور خيالية حجارها من الذهب والفضة ... الخ[1]. كذلك في سيرة سيف بن ذي يزن ، وحمزة البهلوان والملك الظاهر وغيرهم . ويظهر في هذه الفترة ، ميل العامة الى نسج القصص والأساطير عن إمكانيات تسخير الجن لخدمة الإنسان . فبالإضافة الى الأسباب الاقتصادية الداعية لذلك ، فإن ورود قصة الجني في القرآن واستعداده لخدمة سليمان بأن يحضر له عرش الملكة بلقيس قبل أن يقوم من مقامه : « قال أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين » [2] ، وضع مسألة إمكانية قيام الجن بتحقيق أهداف للإنسان مسألة « ثابتة » « أكيدة » ما دامت قد وردت في القرآن . ومن هنا فما على الإنسان (المشعوذين خاصة) إلا أن يعرف السبيل لكيفية تسخيرها لخدمته .

لقد عرف التاريخ الإسلامي عدداً من المفكرين الإسلاميين الذين امتازوا

---

(١) راجع مثلاً حكاية « الصياد مع العفريت » ، في كتاب ألف ليلة وليلة ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، المطبعة العامرة العثمانية ، سنة ١٣١١ هـ ، ص ١٠-١٨ .

(٢) سورة النمل ، آية ٣٨ ، ٣٩ .

بنزعة عقلانية بحيث لم يكونوا على استعداد لتصديق كثير من الخرافات الرائجة في عصرهم . وكان المعتزلة على رأس هؤلاء . وقد اضطرتهم نزعتهم العقلانية الى تأويل الآيات القرآنية التي بها إشارة الى الجن أو السحر أو غير ذلك . ولعل الإمام الزمخشري من أبرز المفسرين الذين رفضوا الاعتراف بوجود هذه الخرافات وأوّلوا الآيات الدالة عليها تأويلات تحمل معنى الرمز أو المجاز أو ما شابه ذلك[١] . ومع أن مثل هذه التفسيرات كانت في بعض الأحيان تحمّل الكلمات أكثر مما تحتمل ، وتخالف ما تعارف عليه المفسرون من أنه كان المقصود بها فعلاً هو الجن مُمَثّلاً في مفهومه لدى الجماهير ، إلا أن أهمية هذه التأويلات والتفاسير بالنسبة لنا هي الموقف العقلاني الذي تمسك به صاحبها كالزمخشري مثلاً ومحاولته لإيجاد تفسير للآية القرآنية ولكن ليس على حساب العقل .

وقد استمر الاعتقاد في تسخير الجان الى أوائل هذا القرن بين الطبقات المتوسطة والطبقات الدنيا ، سواء من النساء أو الرجال ، وما زال كذلك الى حد كبير لدى الطبقات الدنيا والنساء ، وإن كان بصورة أقل قليلاً في المناطق أو التجمعات السكانية التي أصابها حظ من العمران أو التعليم .

يصف أحمد أمين ، اعتقاد المصريين في تسخير الجن فيقول :

للمصريين اعتقاد كبير في العفاريت والجن وقدرة بعض الناس على تسخيرهم لمصلحة من أراد ، سواء في ذلك خواصها وعوامها ، وأغنياؤها وفقراؤها ، ومسلموها وأقباطها . ويرتزق كثير من الطوائف بهذه الد

ويصوّر لنا طه حسين في سيرته الذاتية الأيام تعلق خياله كطفل بفكرة تسخير الجن والعثور على خاتم سليمان حيث كان ينظر الى القناة والضفة الأخرى وكأنها عالم آخر ، فهو :

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الجزء الثالث ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) أحمد أمين ، قاموس العادات .... ، ص ١١٦ .

كان يعلم يقيناً لا يخالطه الظن ، أن هذه القناة عالم آخر مستقل عن العالم الذي كان يعيش فيه ، تعمره كائنات غريبة مختلفة ، لا تكاد تحصى فيها التماسيح التي تزدرد الناس ازدراداً ، ومنها المسحورون الذين يعيشون تحت الماء بياض النهار وسواد الليل ، حتى إذا أشرقت الشمس أو غربت طفوا يتنسمون الهواء ، وهم حين يطفون خطر على الأطفال وفتنة للرجال والنساء . ومنها هذه الأسماك الطوال العراض التي لا تكاد تظفر بطفل حتى تزدرده ازدراداً ، والتي قد يتاح لبعض الأطفال أن يظفروا في بطونها بخاتم الملك ، ذلك الخاتم لا يكاد الإنسان يديره في إصبعه حتى يسعى إليه دون لمح البصر خادمان من الجن يقضيان له ما شاء ، ذلك الخاتم الذي يتختمه سليمان فيسخر له الجن والريح وما شاء من قوى الطبيعة .

وما كان أحبّ إليه أن يهبط في هذه القناة لعل سمكة من هذه الأسماك تزدرده فيظفر في بطنها بهذا الخاتم ، فقد كانت حاجته إليه شديدة .. ألم يكن يطمع على أقل تقدير في أن يحمله أحد هذين الخادمين الى ما وراء هذه القناة ليرى بعض ما هناك من الأعاجيب ؟ ولكنه كان يخشى كثيراً من الأهوال قبل أن يصل الى هذه السمكة المباركة[1] » .

ونلاحظ بوضوح التأثير الديني على تشكيل الأسطورة ، فالخاتم يعزى الى سليمان الذي سخرت له الجن والريح ، كما جاء في القصص الديني ، أما السمكة التي تحمل في بطنها هذا الخاتم السحري فهي سمكة مباركة . كما نلاحظ أن الخيال الشعبي كان لا بد له من اختراع الخاتم كجهاز مادي لتسخير القوى الأسطورية التي تذكرها القصة .

أما في الوقت الحاضر فمع أن الدوافع الاقتصادية ما زالت تلعب دورها في حمل الطبقات الفقيرة على الاعتقاد بالجن ، فإن الضغوط الاجتماعية السائدة

---

(١) طه حسين ، الأيام ، الجزء الأول ، دار المعارف ، القاهرة ، ص ١٣ .

وما يترتب عليها من تعقيدات نفسية ، أدخلت تحويراً على الدور الذي يراد من الجن أن تلعبه ، وأصبح يعبّر عن كثير من العقد النفسية والتي لها أصول بيولوجية أو اجتماعية بأنها من فعل الجن أو بتأثيرهم . وسيرد أمثلة على ذلك فيما بعد . ويمكن إجمال مفهوم الإنسان العربي العادي عن الجن ، بأنهم لهم عالم « غالباً ما يكون تحت الأرض ولكنهم يحبون زيارة الأرض ليلاً، وخاصة الأماكن الخالية والمهجورة ، مثل المقابر ، ولذا يستحسن في اعتقاد العامة الابتعاد عنها في الليل . وكذلك عدم زيارة قبور الأولياء ليلاً فربما يكون بها نفر من الجن . أما اذا كان على المريض أن يبقى عند المقام فلا بد من أن يرافقه آخرون .... وتأخذ الجن أشكالاً مختلفة، يلاحظها الإنسان بالإحساس (في الواقع بالوهم) بشي غريب وغير عادي »[1] .

فهناك حوادث تشير الى وجودهم ، فإذا تعثّر الإنسان في الظلام فالسبب يعزى الى مشيه فوق جني . والذي تصطك أسنانه أثناء نومه تتقمصه جن ، وإذا أكل المرء كثيراً ولم يشبع ، فذلك بسبب مشاركة الجن له في طعامه[2] .

والجن عامة مؤذية شريرة ، تجلب النحس والمرض والفشل وتنشر الرعب وخاصة بين النساء اللائي يعشن في خوف دائم منها . وهناك فئات معينة من الناس أكثر عرضة للجن من غيرهم وهم : الأطفال الحديثو الولادة ، والمرأة النفساء ، والعريس وعروسه[3] .

يحدد الدكتور عبد الحميد يونس مفهوم الجماهير عن الجن من حيث العلاقة المتبادلة (كما يتصورها الناس بطبيعة الحال) في الأوجه التالية :

---

(١) Sania Hamady, Temperament and Character of the Arabs, Twayne Publishers, New York, 1960, p. 174.

(٢) Westermark, E. A. Pagan Survival in Mohammedan Civilization, London, Macmillan & Co. 1933, p. 6.

(٣) Sania Hamady, Temperament and Character of the Arabs, p. 176.

– الجن يمين البشر .
– الجن يلحق الأذى بالبشر .
– الجن يخطف آحاداً من البشر لأغراض خاصة .
– استبدال الجن بواحد من البشر .
– زيارة أفراد من البشر أرض الجان .
– عشيقة من الجن لواحد من البشر[١] .

نرى مما تقدم أن الجن ، أصبح في غالب الأمر ، مصدر شرّ في العقلية العربية المعاصرة . إذ يبدو أن الإنجازات الحضارية الحديثة قد أيأست كثيراً من ذوي الحاجات من أن يصلوا الى الغنى والثروة بواسطة تسخير الجن . في حين بقيت النساء أكثر التصاقاً بسبب ضعفهن الاقتصادي وعجزهن عن تحقيق كثير من رغباتهن . وبسبب الخوف الدائم من الغير ، والشعور بعدم الاطمئنان الذي ترسّب في النفسية العربية خلال القرون الطويلة فإن الجن يقفون بالمرصاد لإفساد كل شيء جديد، أو إدخال الشقاء على النفوس المبتهجة . لذلك فقد توصل العقل الإجتماعي الى اختراع الوسائل ، الوهمية أيضاً بطبيعة الحال ، لإبقاء الجن بعيداً . ففي عرف الكثيرين أن من « الوسائل» لإبقائهم بعيداً هو ذكر اسم الله في كل مجال من مجالات الحياة ، أو تمتمة كلمات من القرآن وكذلك عدم ذكر الجن بالاسم . وتوصلوا الى أن صهيل الخيل يخيف الجن . وبما أنهم يحبون الظلام فيجب إشعال الشموع للحيلولة دون مجيئهم . وهناك بعض البخور والروائح « مثل الزفت والملح والحناء تبعدهم» ، ويمكن استعمالها لإخراجهم من جسم مَن يزورونه [٢] .

وقد تفنن المحترفون من المشعوذين وغيرهم من ملوك « الجن الأحمر » في

---

(١) د. عبدالحميد يونس: الحكايات الشعبية ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨ ، ص ٤٩ .

(٢) Sania Hamady, Temperament & Character of the Arabs, p. 177.

اختراع أسماء للمردة والشياطين وكلمات مبهمة على الجماهير ممتزجة بآيات قرآنية وأسماء لله أو للرسول ، توحي الى الشخص العادي بأن ما يقال هو جزء من العقيدة بصورة أو بأخرى . فنجد في القصيدة الجلْجَلوتية مثلاً أن الشاعر يبدأ – حين يتحدث عن فنه – بإسم الله ، ويصلي على محمد ، ثم يسأل الله باسمه الأعظم ، وإلى هنـــا يطمئن السامع الى تقوى الشاعر وروعه وبالتالي صدقه ، ثم ينهـــال الشاعر على المستمع ، بأن يسأل الله « بآج ، أهوج ، جلجلوت ، هلهلت ، صمصام ، طمطام ، بهراش الذي بــــه النار أخمدت ، بحق شماخ أشمخ ...» الخ[1]. بل ان المشعوذين (والبسطاء يصدقونهم بطبيعة الحـال) قد حاولوا استغلال الحروف المجهولة المعنى في أوائل بعض السور القرآنية مثل : طسم ، كهيعص ، ألر ، ألم ، ق ، ص ، لصالحهم ، فزعموا أنها مفاتيح لأسرار تسخير الجان يتقنون هم استعمالهـا . ولم يستطع أحد من رجال الدين أن يقطع ببطلان ما يزعمون لأن أحداً لا يعرف على وجه التحقيق معاني هذه الحروف . وقد ربطوا بين امكانية استخدام الجن ، وبين كثرة الصوم والصلاة ، وقراءة القرآن والجلوس في الخلوات . فمثلاً « من أراد أن تخدمه الجن فإنه يصوم أربعين يوماً في خلوة لا يأكل إلا خبز الشعير والزبيب الأسود ، ولا يأكل إلا كل أربع وعشرين ساعة ثم يتلو العزائم ويستحضر بها الخدام . والخادم الأول عبد أسود في يده حجر أحمر ، وعزيمته يابنوح دردموخ أجيبوا أجيبوا بحق سمماط شموع برهوت برهين اسحيم ، تقرأ ألف مرة »[2].

* * *

إن المتأمل للقصص الشعبي المكتوبة والمروية وخاصة في الريف وفي الأوساط الفقيرة في المدينة ، يجد أن الجن سواء كانوا من الأشرار أو الأخيار قد لعبوا دوراً بارزاً في السيطرة على خيال الجماهير وتشكيل مفاهيمها عن

---

(١) أحمد أمين ، قاموس العادات ... ، ص ١١٧

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٧ .

الأحداث التي يستعصي عليهم تفسيرها . وكثير من الخرافات المتعلقة بالجن ، قد حافظت على وجودها في ذهنية الجماهير حتى القرن العشرين .

ففي رواية شجرة البؤس لطه حسين ، يرسم لنا الكاتب صورة حية لتصديق جماهير القرى البسطاء لحكايات الجن ودورها المباشر في حياتهم .

قالت أم رضوان : كنت أخبز في قريتنا لجارة لنا ذات مساء كما أخبز الآن ، وكانت صاحبة الدار أم عثمان جالسة معي بين أتراب لها وجارات .... ولم تكد امرأة من القرية تخبر الجمع بما رأت وسمعت :

حتى رأيناها أم عثمان قد ثارت مولولة ، فنفضت شعرها ومزقت ثيابها ، وجعلت تلطم وجهها ، وتضرب صدرها ، ونحن نحاول أن نردها الى الهدوء ونسألها عن أمرها ، ولكنها بعد حين تثوب الى نفسها قليلاً .... ولكن ما راعنا إلا أن رأيناها تقذف نفسها في التنور ، فلا نرى لها أثراً ولا نسمع لها حساً .

كانت جنية ، تمثلت لأبي عثمان امرأة فتزوجها وولدت له ابنه عثمان (نفس الاسطورة التي كان يتناقلها عرب الجاهلية من زواج الإنسي من الجنية ، وما نجده في عدد من الحكايات في كتاب ألف ليلة وليلة) ، ثم جاءها النبأ أن أخاها يحتضر ، فأسرعت له قبل أن يموت وسلكت إليه أقرب الطرق وهو التنور حين يكون ملتهباً والجنيات يألفن التنور ؛ ولذلك لا ينبغي أن يحمى التنور دون أن يذكر اسم الله عند اشعال النار ، فإن ذلك يطرد منه الشياطين ويؤذن المسلمات بأنه سيحمى فيخرجن منه قبل أن يدركهن شيء من النار[1] .

ونلاحظ هنا كما في كثير من الأساطير الشعبية عن الجن ، ربط الجن بالتنور ، أي النار ، وهي نفس المقولة القرآنية بأن الجن « من النار » .

---

(١) طه حسين شجرة البؤس ، دار المعارف بمصر ، ص ١٤٠ .

ولقد أثرت رواية قصة أم عثمان من أم رضوان على إحدى الحاضرات ، وهي نفيسة التي لا تتمتع بأي قسط من الجمال والتي هي زوجة لخالد التقي :

فلم تكد أم رضوان تبلغ هذا الموضع في حديثها ، والنساء يسمعن لها مرتاعات ، ملتاعات ، منهن من تمسك الشهيق، ومنهن من تدفعه، حتى ثارت نفيسة كأنها الجنية وقد نثرت شعرها ، وقدّت ثوبها ، وأخذت تعول اعوالاً متصلاً ، وتلطم وجهها ، وتضرب صدرها وهي تصيح : وا أبتاه ، وا أماه ! ثم تدفع نفسها الى التنور تريد أن تدخل فيه[1] .

وهذه الصورة التي قدمها طه حسين لصورة الجن في أذهان نساء قرية مصرية في أوائل هذا القرن ، تكشف أن الاعتقاد السائد لدى جماهير القرى هو أن الجن قادرون على تقمص شكل الإنسان وأنهم قد يكونون إخوة أو آباء أو أزواجاً . وهي ذات الخرافة التي كانت معروفة لدى العرب قبل الإسلام والتي أشرنا إليها فيما سبق .

ويتضح تأثير الإسلام هنا على الأسطورة ، بتقسيمه الجن الى مسلمين مؤمنين وغير مسلمين ، ولذلك لا بد حسب التصور الشعبي من مراعاة هذه المسألة وعدم إيذاء مسلمي الجن .

لقد أشرنا طه حسين أن ما دفع « نفيسة » في شجرة البؤس الى محاولة إلقاء نفسها في التنور ، هي الحالة النفسية السيئة التي كانت تمر فيها نفيسة حين اكتشفت أن زوجها خالد قد أخذ يلاحظ قبحها ودمامتها ، مما ترتب عليه خوفها من عزوف زوجها عنها والزواج عليها بإمرأة أخرى . وكما يتضح من هذه القصة وسواها فإن الواقع السيء ، سواء على الصعيد النفسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي الذي يعيشه الإنسان أو المجتمع بأسره ، يجعله يجد في مثل هذه الخرافات وسيلة للهروب من الواقع .

ويبدو أن أسطورة الجن والزواج من الجنيات ومؤاخاتها ، تخدم أغراضاً

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

اجتماعية يحتاج إليها الفرد في المجتمع التقليدي الخرافي المغلق ، فنجد الرجل مثلاً يستطيع أن يبرّر غيابه عن المنزل وانصرافه عن زوجته مثلاً ، بأن جنية قد آخته أو آخاها، أو عشقته أو عشقها وتستطيع زوجته أن تستعمل قصة عشق جنية لزوجها كوسيلة للمحافظة على مكانتها في أعين جاراتها ومعارفها ، حيث يبدو أمر انصراف زوجها عنها ، وكأنه خارج عن إرادة البشر ، وبالتالي فلا عيب فيها هي . أضف الى ذلك أن أي فعل أو قول لا يراد تفسيره أمام الناس إمّا رغبة في إخفائه أو خوفاً من كلام الآخرين ، يمكن إرجاع أسبابه الى الجن . وبذلك يحافظ الفرد أو العائلة على مظهره أو سمعتها في المجتمع .

وكتطبيق واقعي وحديث على استمرار مثل هذه الفكرة نورد المثال التالي المأخوذ من واقع الحياة الاجتماعية في السبعينات من هذا القرن . فحين تعلق شاب متعلم حاصل على « أعلى المؤهلات[1] ويحمل لقب دكتور في مهنته » بامرأة غير زوجته لم يجد وسيلة للالتقاء بعشيقته في بيته إلا باستغلال جهل زوجته والتأثير عليها بالجن والأرواح ، فبعد أن كان يدربها على الحياة العصرية « لتتوج جمالها وكمالها بالثقافة والعلم » ، عاد فتراجع ومنع عنها الكتب ... ثم بدأ يضع تحت أيديها كتباً في علم الأرواح وبدأ يقص عليها الكثير من الروايات الخيالية عن الأرواح الشريرة .

وبعد مدة يتظاهر بالمرض وحين تحاول زوجته استدعاء الطبيب ، يقول لها محذراً :

– اوعي تندهي حد ... ده ملكة من الجان بتحبني وهي اللي عاملاه فيّ كده ، اخرجي واقفلي الباب وبعد ساعة ارجعي .

وبعد فترة تعود زوجته لتسأله عما تم بينه وبين ملكة الجان فيخبرها بأنه قد :

– تم الصلح بيني وبين أبيها ملك الجان .

---

١ – المبالغة في وصف المؤهلات من المصدر (روز اليوسف ، عدد ٢٣٩١) .

وكان شرط الصلح أن يتزوج ابنة ملك الجان لأنهـا عشقته . واستمر في تضليل زوجته مخبراً إياها بأن الجان كانوا على وشك أن يضربوه ويؤذوا ابنه ويعذبوا زوجته . فتخاف الزوجة . وآنذاك يخبرها زوجهــا بأن ما طلبته ملكة الجان هو :

مش عايزه مني إلا إني أنام في الصالون وحدي مرتين في الأسبوع .

ويبدو أن زوجته قد صدّقت ذلك الادعاء بعد أن أعدّها ذهنياً له .

كان للصالون باب مستقل على السلم .. وكانت هذه هي الخطة التي رسمها حتى يلتقي بعشيقته في بيته وحتى يوفر إيجار « غرسونيره » واستمر الحـال على هذا بل زاد ، وبدأ يطلب عشاء وشراباً للجنية ، وزوجته في منتهى الطاعة والولاء حتى لا تؤذي الجنية زوجها وابنهـا .. وحين لاحظ الجيران دخول امرأة غريبة في الظلام وخروجها في الفجر والدكتور معهـا ، بدأوا يتداولون الشائعات . ولكن زوجته كانت ترد قائلة :

طبعاً هم فاكرين الجنية واحده ست .. طبعاً ما هي تحضر له في صورة واحده ست .

ولكن الجيران دبّروا كميناً وسلموا المرأة للشرطة على أنها لص تسلل الى صالون الجيران . وانفضح أمر الدكتور وأمر عشيقته وطلبت الزوجة الطلاق من زوجهــا أمام ضابط الشرطة . ولكن الزوج لجأ الى حيلته بأن « ظل يهمس في أذن زوجته بكلمات كثيرة وهو يبكي ويتوسل ثم نادى على المرأة الأخرى التي همست في اذن الزوجة ببعض الكلمات » . فعدلت الزوجة عن طلبها وسألت الشرطة أن يقفلوا الموضوع ، فحفظت القضية . وحين سئلت الزوجة بعد خروجها عما فهمته من زوجها في مخفر الشرطة قالت انها فهمت منه أن تلك المرأة :

ليست امرأة .. بل هي الجنية ابنة ملك الجان ولكنها أمـــام الناس اضطرت أن تظهر في صورة امرأة عادية حتى لا يؤذي أبوها

ملك الجان الزوج والابن وحتى لا يقول الناس عن الدكتور أنه معتوه وملبوس ويفقد وظيفته[1] !..

وفي الحالات التي تشعر المرأة بأن ضرّة لها في الطريق ، أو قد وصلت البيت فعلاً ، فهي على استعداد لإلصاق تهمة الجنية بضرتها ، أو التعبير عن مرارتها ورفضها بنوبات هستيرية تحت اسم أن الجن قد ركبها ، وذلك تخويفاً لزوجها أو إيهاماً له ، بأن شراً سوف يحدث له ، وفي نفس الوقت تنفيساً لمشاعرها .

إن المرأة بحكم جهلها وانعدام خبرتها وعزلتها هي ، أكثر أفراد المجتمع تجاوباً مع مثل هذه الخرافات ، وأكثر ميلاً لتصديقها ، والعمل بها . ان أمينة زوجة عبدالجواد في رواية بين القصرين لنجيب محفوظ، تظهر كنموذج حي للمرأة التي تربّت تربيـــة دينية محافظة والتي يطغي اعتقادها بالقصص الخرافي المستند الى أصول دينية على الدين نفسه . وقد كانت أمينة تعاني كثيراً في أول حياتها الزوجية حين كان زوجها يتركها في البيت الكبير وينهب هو لقضاء سهراته الطويلة . فكانت ليطمئن قلبها :

تطوف بالحجرات، مصطحبة خادمتها، مادة يدها بالمصباح أمامها، فتلقي في أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها بإحكام ، واحدة بعد الأخرى ، مبتدئة بالطابق الأعلى ، وهي تتلو ما تحفظ من سوَر القرآن دفعاً للشياطين ، ثم تنتهي أخيراً الى حجرتها ، فتغلق بابهـا وتندس في الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبهـا النوم . ولشد ما كانت تخاف الليل في عهدها الأول ، فلم يغب عنهـا **هي التي عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرف عن عالم الانس**[2] ، أنهـا لا تعيش وحدها في البيت الكبير ، وأن الشياطين لا يمكن ان تضل طويلاً عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية ، ولعلها آوت

---

(١) روز اليوسف ، العدد ٢٣٩١ ، ١٩٧٤/٤/٨ ، ص ٤٦ .
(٢) الطبع البارز ليس في النص الأصلي .

اليها قبل أن تحمل هي الى البيت ، بل قبل أن ترى نور الدنيا ، فكم دب الى أذنيها من همساتهم ، وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم ، وما من مغيث إلا أن تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع الى المشربية ، فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها الى أنوار العربات والمقاهي ، وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها .

ثم جاء الأبناء تباعاً ، ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحماً طرياً لا يبدد خوفاً ولا يطمئن جانباً ، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها المتهافتة من إشفاق عليهم وجزع أن يمسهم سوء ، فكانت تحويهم بذراعيها ، وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في اليقظة والمنام بدرع من السور والأحجبة والرقا والتعاويذ[1] . أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته ، ولم يكن غريباً ، وهي منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، أن تضمه الى صدرها فجأة ثم تتصنت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصاً حاضراً : ابعد عنا ، ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون . ثم تتلو الصمدية في عجلة ولهوجة . وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيراً ، واطمأنت لدرجة الى دعاباتهم التي لم تجر عليها سوءاً قط ، فكانت اذا ترامى اليها حسن طائف منهم قالت له في نبرات لا تخلو من دالة : ألا تحترم عباد الرحمن ! الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرماً[2] .

قد يبدو للوهلة الأولى ان المجتمع العربي الحديث قد تخلص من ذلك الواقع الذهني الذي صوّره طه حسين في شجرة البؤس أو نجيب محفوظ في بين القصرين مثلاً ، إلا أن المدقق في الأمر قد يصل الى نتائج أكثر تشاؤماً .

---

(١) الطبع البارز ليس في النص الأصلي .

(٢) نجيب محفوظ ، بين القصرين ، مكتبة مصر ، سنة ١٩٦٠ ، ص ٧ – ٩ .

فإن غالبية النساء هن من المعتقدات بالخرافة عموماً وبالجن خصوصاً كما سنبين ذلك في حينه . وخطورة هذه المسألة تنعكس على الأطفال في سنيهم الأولى حين تكون الأم المصدر الوحيد أو الأساسي للمعلومات التي تشكل الخطوط العريضة لعقلية الطفل . وتلجأ المرأة الى استخدام الجن كوسيلة لتخويف الطفل أو لردعه عند قيامه بما لا يعجبها . وهي تنقل اليه، دون أن تشعر، خوفها الحقيقي الذي تحاول إخفاءه بقناع من التخويف، وتنقل اليه هلعها وتشاؤمها وتحسبها وخوفها عليه من شرور الجن ، في ساعات رضاهـا . ثم هي تنقل اليه خرافاتها بكثير من تفاصيلها وقصصها .

ويزيد المسألة تعقيداً ، كما تقدم ، جهل الأم - كما هـو متوقع - بطبيعة الجن أو أشكالها أو أطوالها أو ألوانها ، الأمر الذي يدفعهـا ، اعتماداً على خيالها أو استناداً الى قصص سمعتها خلال طفولتها هي ، أو من جاراتهـا ، الى تصوير الجن بكل شكل ، وبأي شكل من الأشكال ، وبكل مكان وزمان . وبأي مكان وزمان . وهذا بدوره ينتقل الى الطفل فيصبح خوّافاً، يخشى الوحدة والظلام ، ويرفض القيام بأي عمل قد يغضب عليه -كما يتوهم- بعض الجن . وفي حالات مرضه أو تعكّر مزاجه تتراءى له شتى الصوَر يولّدها خياله ، بحيث يجد نفسه وكأنه في صراع دائم ضد هـذه الكائنات غير المرئية . إن مثل هذا الخوف من المجهول ومن الظلام يقيّد بالضرورة من حركة الطفل وانطلاق عقله ، ورغبته في الاستطلاع أو التعرف على الأشياء أو الأماكن واكتشافها . وتربطه مكانياً ونفسياً بأهله ، لاعتقاده أن الأمان لا يتوفر له إلا في كنفهم .

ففي روايته « الأيام » والتي تمثل سيرته الذاتية يذكر طه حسين أنـه كطفل كان :

واثقاً أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف ، فلا بد أن يعبث بهـا عفريت من العفاريت الكثيرة التي تعمر أقطار البيت وتملأ أرجاءه ونواحيه ، والتي كانت تهبط تحت الأرض ما أضاءت الشمس واضطرب الناس . فإذا أوت الشمس إلى

كهفها ، والناس الى مضاجعهم ، واطفئت السرج ، وهدأت الأصوات ، صعدت هذه العفاريت من تحت الأرض وملأت الفضاء حركة واضطراباً وتهامساً وصياحاً[1] .

* * *

لذلك كان يقضي ليـــله خائفاً مضطرباً إلا حين يغلبه النوم ... ويقضي شطراً طويلاً من الليل في هذه الأهوال والأوجال والخوف من العفاريت ؛ حتى إذا وصلت الى سمعه أصوات النساء يعدن الى بيوتهن وقد ملأن جرارهن من القنـــاة وهن يتغنين « الله يا ليل الله .. » عرف أن قد بزغ الفجر ، وأن قد هبطت العفاريت الى مستقرهـــا من الأرض السفلى[2] .

هذا الخوف ، والتقييد للانطلاقة الذهنية والجسمانية يستمر مع الطفل حتى بعد دخوله المدرسة ، ويكون علامة بارزة في تكوين شخصيته في المراحل الحياتية التاليـــة . وفي الغالب فإن المدرسة لا تستطيع أن تمحي كثيراً من الخرافات التي انتقلت الى الطفل خلال ارتباطه بأمه في البيت ، لأن المدرس سواء كان مدرساً للدين أو الأحياء أو غيرهـــا من المواد ، يتحرج لسبب أو لآخر عن الخوض فيمثل هذه المسائل ويأمر التلميذ بأن يكف عن الاستفـــار عن الجن وما شابهها .

إذا عدنا لأمينة في رواية بين القصرين نجد أنهـــا كانت ترفض أن يتردد اسم الجن في الدار ، وتحذر ابنهـــا كمال من التفوه باسمي العفريت أو الجن « درءاً لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف ، وتمسك عن البعض إشفاقاً ومبالغة في الحيطة »[3] ولذا فقد لاح في عينيهـــا التردد والحيرة حين سمعت كمال وهو يقرأ الآيات التالية ليستذكرها :

---

(١) طه حسين ، الأيام ، الجزء الأول ، دار المعارف ، ص ٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٩ .
(٣) نجيب محفوظ ، بين القصرين ، ص ٧٦ ، ٧٧ ..

« قل أوحى الي أنه استمع نفر من الجن، فقالوا انـّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحـــداً . » ....
حتى أتم السورة . فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو أحـــد الاسمين الخطيرين في سورة شريفة ، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها، أو ماذا تفعل لو دعاها كالمعتاد إلى حفظهـــا معه . وقرأ الغلام في وجههـــا هذه الحيرة ، فداخله سرور ماكر . وجعل يبدأ ويعيد ضاغطاً على مخارج الإسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعاً أن تفصح أخيراً عن اشفاقهـــا في لون من ألوان الاعتذار . ولكنها على شديد حيرتهـــا لاذت بالصمت . فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه ، حتى قال :

– ها أنت ترين أن من الجن من استمع الى القرآن وآمن بـه . فلعل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين وإلا ما أبقوا علينـــا طوال هذا العمر .

فقالت المرأة في شيء من الضيق :

– لعلهم .. ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم،فيحسن بنا ألا نردد أسماءهم ..!

– لا خوف من ترديد الاسم .. هكذا قال مدرّسنا ..

فحدجته المرأة بنظرة عتاب ، وقالت :

– المدرس لا يعرف كل شيء !

– وإن كان الاسم ضمن آية شريفة ؟

وشعرت حيال تساؤله بقهر ، ولكنها لم تجد بداً من أن تقول :

– كلام ربنا بركه كله .

واقتنع كال بهذا القدر ، ثم واصل حديثه عن التفسير قائلاً :

– ويقول شيخنا أيضاً أن أجسامهم من نار .

وبلغ بهـــا القلق غايته ، فاستعاذت بالله وبسملت عدة مرات ، أما كال فاستطرد قائلاً :

– وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم .. فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار ، فأجابني بجدة أن الله قادر على كل شيء ..

– جلّت قدرته ..

فرنا اليها باهتمام ثم تساءل :

– وإذا التقينا بهم في الجنة ألا تحرقنا نارهم ؟!

فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وإيمان :

– ليس فيها أذى أو خوف[1] .

إن تصديق الطفل للخرافة وامتلاء رأسه بخيالات مبهمة عن الجن والعفاريت والشياطين وتمثلها له ، في الأشياء التي تصادفه ، وتصديقه بأنها مصدر شرور تتعمد إيذاءه ، وعجزه في نفس الوقت عن تفسير ما يسمع أو يتخيل ، يترك كل ذلك في ذهنه مكاناً ملائماً لنمو الخرافة والاعتماد عليها عند الضرورة .

إن الانفصال بين كل من المجتمع والبيت ، والمدرسة ، وطبيعة التعليم في الوطن العربي والمفاهيم الثقافية السائدة ، لا تتيح في كثير من الأحيان للفتى أو الفتاة أن يتخلص مما علق في ذهنه من خرافات الطفولة . وما يحدث هو أن المواد التي يدرسها تخزن في عقله بالاضافة الى الخرافة، وكثيراً ما تمتزج بها. وفي أغلب الأحيان فإن الفتى أو الفتاة غير قادر على استعمال معلوماته الجديدة سواء في الفيزياء أو الأحياء أو غيرهما من العلوم أو حتى في الدين نفسه في تمحيص ما تعلمه من خرافات ، نظراً لأن ذلك يفرض عليه الدخول في مسائل دينية قد علمته المدرسة أن لا يدخل فيها. وإذا استثنينا نسبة ضئيلة من المتعلمين والمتعلمات العرب ، وممن بذلوا مجهودات ذاتية خاصة لتخليص أذهانهم مما علق بها من خرافات ، ولحسم مختزناتهم منذ الطفولة بالاستناد الى مبادىء وقوانين العلم الحديث ، اذا استثنينا هؤلاء ، فإن الكثيرين ،

---

(١) نجيب محفوظ ، بين القصرين ، ص ٧٨ .

والكثيرين جداً من المتعلمين من الجنسين ، ما زالوا يحتفظون بأوهام وخرافات الطفولة، بين أكداس المعلومات الأخرى. ولأنهم لم يستطيعوا لسبب أو لآخر أن يستخدموا علومهم في تفنيد ذلك ، فإنهم يكونون عرضة لتصديق أي ادّعاء أو خرافة يبتدعها أحد المبتدعين ، سواء كان دجالاً ماهراً أو مشعوذاً خبيراً أو أحد الدراويش .

ورغم أن قصة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون في القاهرة لا تمت مباشرة الى الايمان بالجن ، إلا أن سرعة التصديق لدى الجماهير وعدد بارز من المتعلمين من أساتذة جامعيين وغيرهم ، بل واستخدام نفر منهم ما تلقوه من علوم في البلاد العربية وفي الخارج لتفسير ظهور العذراء ، وعلمنة هــذا الظهور[1] . يؤكد أن تلك المعلومات الخرافية ، المختزنة منذ الطفولة والتي لم يطهرها العلم الحديث ، صالحة اذا توفرت الظروف الملائمة لأن تكون نواة تتبلور حولها خرافات أكبر ، وتربة صالحة لنمو مقولات تتناقض أساساً مع العلم ، يلجأ اليها الفرد أو المجتمع عند الشعور بالأزمة أو بهدف تحقيق مصلحة للفرد ذاته أو للفئة الحاكمة .

فعلى سبيل المثال نجد أنه في قضية « تحضير الأرواح » التي نسبت الى وزير الحربية المصري السابق الفريق أول محمد فوزي وسامي شرف وشعراوي جمعة، كان الوسيط بين هؤلاء وبين الأرواح، استاذاً « يعمل بإحدى الجامعات وأصابته منذ سنوات نوبة تحضير الأرواح، وكانت الجلسات تعقد في بيته»[2] فإذا تذكرنا أن الذين كانوا يستلهمون الأرواح هم وزير الحربية ووزير الداخلية نستطيع أن ندرك الخطر الذي يتهدد الأمة بأسرها لو أن أحداً منهم اتخذ قراراً خطيراً بالاعتماد على نصيحة أدلى بها الوسيط زاعماً انهــا من العالم الآخر .

---

(١) راجع ما جاء بتفصيل حول هذا الموضوع في «معجزة ظهور العذراء وتصفية آثار العدوان» للدكتور صادق جلال العظم في دراسات عربية ، بيروت ، تموز ١٩٦٨ .

(٢) محمد حسنين هيكل ، الأهرام ، ٧١/٦/٤ ، ص ٣ .

فإذا عدنا الى رواية شجرة البؤس نجد أن طه حسين قد نجح الى حد كبير في تسليط الضوء على الواقع المادي والذهني للريف في مصر واستطاع أن يرجع كثيراً من الظواهر الى أسبابها الحقيقية ، وهي حالات البؤس والشقاء والحرمان الاقتصادي ، والجهل والامتيازات الطبقية ، وغير ذلك . ومع هذا فإن طه حسين قد فشل فشلاً ظاهراً في نظرته العامة للموضوع حيث سيطر عليه اعتقاده بالجبرية بشكل يدفع القارىء الى الشعور بالعجز أمام القضاء والقدر . وبحيث لا يستطيع إلا أن يرثي للحظ العاثر أو القدر المكتوب، أو أن يقف متفرجاً معتبراً من تصاريف الزمان . يعبر طه حسين عن ذلك بقوله :

.... واختلفت بهم وبين نوب الأيام ، وذهب كل واحد منهم مذهبه في الحياة، كما دفعت كل واحدة منهن الى طريقها التي رسمت لها من قبل ؛ لم ترسمها لنفسها ، ولم يرسمها لها أبوها ، وإنما رسمها لها القضاء الذي ليس للإنسان عليه سلطان[1].

ويؤكد طه حسين نفس الموقف الجبري حين يقول :

ولكن قضاء الله لا مرد له ، وحكمة الله لا تأويل لها ، والمؤمن حقاً هو الذي يذعن للقضاء ويصبر على المحنة ولا يسأل الله عما يفعل، فهذا كفر به وشك فيه[2].

إن هذا الموقف الجبري الاستسلامي الذي يعكسه طه حسين ، يقدمه للقارىء وكأنه تعليق المؤلف على ما يجري في تلك القرية المصرية . وفي الوقت الذي لا ننكر فيه ، أن الفلاح المصري والعربي عموماً قد تعلم عبر عصور الاستغلال والاضطهاد الاقتصادي والسياسي المتواصلين أن يأخذ بالجبرية ويقبل بالقضاء والقدر ، إذ لا يملك إلا أن يسأل معبوده تلطيف قضائه ، دون أن يكون واعياً ومختاراً للنظرة الفلسفية التي وصفناها بالجبرية . بمعنى أن الفلاح

(١) طه حسين ، شجرة البؤس ، ص ١٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

كان وما يزال مرغماً لقبول ما ينزل به كأمر واقع لأنه لا يملك شيئاً آخر ولا يستطيع تعليل ذلك بفلسفة أخرى مغايرة . أما أن يتمشى المؤلف مع الفلاح البسيط في أخذه بالجبرية لفلسفة أوضاع الفلاح ذاته ، في الوقت الذي يستطيع هو أن ينظر الى المشكلة بعمق واتساع بإرزين يؤهله تعليمه وخبرته وتجاربه لذلك ، فهذا مدعاة للتساؤل وللأسف .

ان جبرية الفلاح هي جبرية الواقع المـــادي ، بينما تمثل جبرية الكاتب جبرية السلف التقليدي . ومن هنا فإنه لا يمكن تغيير التسليم بالجبرية لدى الفلاح إلا بتغيير واقعه المادي في الوقت الذي يحتاج فيه الكثير من الكتاب تحرراً من الجبرية السلفية .

ولا ينفرد طه حسين بمثل هذا الموقف ، ونعني به ، الجزئية في النظرة ، بل يشاركه عدد من الكتاب في ذلك ، حيث نجد أن قدرة الكاتب على ملاحظة الجزئيات وتفسيرها ، هي قدرة جيدة ، وفيها شيء من الذكاء ، إلا أن النظرة الشاملة ينقصها الوعي وتعوزها المعرفة بطبيعة الأشيـــاء وديناميكية القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وبالتالي يفقد الكاتب القدرة على ربط الأجزاء بعضها ببعض ، بشكل يتفق مع القانون العـــام الذي يحكم المشكلة بأسرهـــا ، ويتحكم بالجسم الاجتماعي بأكمله . وهم بذلك قاصرون عن الرؤية الكلية من خلال منظار علمي عقلاني ، ولا يجدون تفسيراً للكل الذي ينشئونه من أجزاء صحيحة بمفرداتها ، غير إرجاعه إلى عوامل خارج نطاق تحليلهم . إن إمكانيتهم على الرؤية الميكروسكوبية جيدة في أحيان متعددة غير أن الرؤية الماكروسكوبية أبعد من أن تقع في نطاق بصرهم .

ورغم أن أحداث شجرة البؤس تعود الى مطلع هذا القرن ، فإن الإيمان بالجن وبصورة خرافية مشابهة ما يزال سائداً في كثير من البلاد العربية حتى الآن . والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، وخاصة على ألسنة الجماهير بين الفئات غير المتعلمة وبين نسبة لا بأس بها من المتعلمين حين يطمئنون الى أن أحداً لن يعيب عليهم خرافيتهم. ففي حوار دار بين مؤلفَي هذا الكتاب

من جهة وبين شاب وزوجته من جهة أخرى في صيف عام ١٩٧٢ ، أكدت الزوجة وزوجها الذي كان يعمل في مؤسسة البريد والبرق والهاتف كواحد من الفنيين الذين تلقوا تعليماً فنياً متوسطاً، أكدت الزوجة في سياق الحديث عن الجن بأن :

قريباً لهم متزوج فعلاً من جنية ، كانت تختفي أحيانـــاً وتظهر للملأ أحياناً على هيئة قطة سوداء. وكانت عائلة وأقارب ذلك المتزوج من الجنية تعرف ذلك ، وكانوا يعتقدون بأن القطة هي زوجته .

وعند الاستفســار عن كيفية معرفة الأهل للقطة والتعرف عليها بأنها هي ذات الزوجة ، أجابت :

- إن نظرات القطـــة في عيني الجالسين كانت نظرات إنسان وليست نظرات حيوان . وأن القطة كانت تتفرس الجالسين بشدة .

- وهل كان قريبكم هذا متزوج من آدمية غير القطة ؟

- نعم ، وكانت زوجته الجنية لا تظهر إلا في غياب زوجته الآدمية !

- ولكن ، كيف تصدقان مثل هذه القصص وأنتما متعلمان ؟

- إن سكان الحـارة كلهم يعرفون ذلك . وأن الجن - بسم الله الرحمن الرحيم - قد تعترض طريق العديدين منهم من حين لآخر.

- وهل رأيتما الجن وتعرفتما على أشكالها ؟

- آه .. كلا .. لم نرها شخصياً .. ولا نعرف أحداً من أهل الحارة قـــد رآها بنفسه تماماً .. وانما كان ينتقل الخبر عادة من شخص لآخر .

- وهل ما زال الجن حتى الوقت الحاضر يسكنون حارتكم ؟

- الغريب ، أنه منذ الاحتلال الاسرائيلي (تقع الحارة المذكورة في ضواحي مدينة الخليل) لم يعد أحد يرى الجن .. لقد صار هناك عمار وطرق ، ربما اختفوا ...

– وهل فعلاً تصدقان بهـــذا ؟؟ ولماذا تختفي الجن حين تصبح الأرض عمار ؟

– آه ... طبعاً نصدق .. طبعاً نصـدق .. الجن مذكور في القرآن .

ومع أن حدثاً ذا أهمية كبيرة لم يترتب على هذه القصة بحد ذاتها ، وإنما سقناها هنا باعتبارها نموذجاً مألوفاً لكثير ممـــا يدور في أذهان الجماهير البسيطة ، وأهميتها تكمن في أنهـا تكشف عن العقلية التي تصدقها وتتأثر بها فتتحكم في سلوك أصحابها ، وما يترتب على ذلك من أثر على مسيرة الحيـاة الفردية والاجتماعية . والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هنا هو : ماذا سيفعل صاحبنا الشاب لو أنه رأى قطة سوداء تحملق في وجهـه في مقسم الهاتف ؟ مـاذا سيفعل لو دخل في روعه ، استناداً الى معلوماته وقناعته ، بأن تلك القطة واحد من الجن ؟ أليس من المحتمل أن يترك غرفة المقسم ، أو يتهرب منها ما استطاع ؟ ماذا لو كان هو وأمثال له يعمل في سلاح الإشارة وكان يعسـكر في خيمة معزولة ؟

ومن الأمثلة التاريخية العملية على الاستفادة من اعتقـــاد مجموعة سكانية بالخرافات وتسخير ذلك لمصلحة طرف مضاد ، هو مـا فعله الأتراك بالمصريين :

فعقب تولي محمد علي مصر عرف كثر من الأتراك اعتقاد المصريين في الجن ، فكانوا يلبسون بالليل ثياباً سوداء أو بيضاء ، ثم يخرجون زاعمين انهم جن ، فيخاف المصريون ويهربون ، فيغتنم الأتراك هذه المسألة ويفعلون ما يريدونه[1] .

وما زالى الاعتقاد بأن الجن يسـكنون البيوت والمنازل المهجورة على وجه الخصوص حيث يقال «بيت مسكون» هو اعتقاد واسع الانتشار في الأوساط الجماهيرية العربية غير المتعلمة وشبه المتعلمة وهو إما ظاهر أو مختزن إلى حد

---

(١) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ص ١١٧ .

كبير في اللاوعي للعديد من الفئات التي حصلت على درجة متقدمة من التعلم[1]. وهذا المخزون وإن كان لا يظهر بشكل واضح إلا انه يؤثر تأثيراً غير مباشر في التركيب العقلي للمواطن العربي . ولسنا بحاجة للإشارة هنا بأن كثيراً من اللصوص والمشعوذين وقطاع الطرق والمحتالين قد استفادوا في الماضي من مثل هذه الأفكار . فترويج قصة مؤداها أن بيتاً مـــا مسكون بالجن ، سيتيح بالتأكيد لمثل هذه الفئات الحصول على مأوى و « مكتباً » للعمل بعيداً عن أعين الفضوليين أو الشرطة . وأحياناً يمكن الحصول على عقار بنصف الثمن أو أقل اذا أشيع عنه بأنه مسكون . ولا يستبعد كذلك أن تكون مثل هذه الأماكن المهجورة أو الأماكن التي تسمع فيهـا « أصوات الجن » ليلاً ، ملتقى للجنسين تخطياً للقيود والحواجز التي يقيمها المجتمع باسم التقاليد .

إن من العوامل التي تساعد على الاعتقاد بمثل هـــذه الخرافات هو ذلك الركود العقلي الذي تعيشه الجماهير الجاهلة والتي لا يتاح لهـا الصراع من أجل تحقيق حياة أفضل يستغرق جميع حيوياتها ونشاطاتها .

إن لسنين القهر والاستغلال الطويلة التي مرت بهـا الجماهير العربية دوراً كبيراً في استنزاف طاقاتها وتجريدها من وسائل الصراع ودفعهـا الى اللجوء الى ما هو خارج عن مجالي رؤيتها وقدرتها وتحكمها ومجالي رؤية وقدرة وتحكم الفئات المستغلة ، خصومها .

ولقد كانت لفتة ذكية من طاهر لاشين في روايته حواء بلا آدم حين تبين أهمية الركود العقلي في تعميق إيمان الجماهير بالخرافة . فهو يصف جدة حواء، بطلة القصة ، بأنها تعيش حياة خاوية فهي :

---

(١) ينشر بعض الكتاب وأجهزة الإعلام الخرافة بشكل « عصري » بأن ينسبوهـا الى العلم والعلماء في العـــالم . تحدث أنيس منصور بعنوان ضخم عن نظرية جديدة هي : « كل شيء عليه عفريت » ويقول ان كلمة العفريت لم تعد خرافة ، ويؤكد « ان الانسان الحديث عنده إحساس أنه مسكون ... أن عليه عفريتاً ... أنه ليس مالكاً لنفسه . أنه مسلوب الإرادة ... » ويعرف الموسيقى الحديثة بأنها « حفلات زار ... نفس الحفلات التي نجدها في مصر والسودان والحبشة » ويؤكد ان العلم الحديث يقول أن « هناك عالماً آخر... الخ » جريدة أخبار اليوم ، ٧٤/٦/٢٢ ، القاهرة .

.... حياة قوامها العاطفة .. العقل فيها راكد .. والعقل يأبى الركود ، فإذا حاول أن يرضي الفطرة ، لم يستطع إلا العمل التافه من التشبث بالتفاؤل والتشاؤم ، وإقامة الوزن للأحلام ، ومن ثم الاتصال بالجن والشياطين تتخذ لهم الأسمـــاء ، وتصبغ عليهم الملل والنحل ، والأشكال والألقاب . ويبايعون السيادة ، فيخضع العقل السقيم لهؤلاء الأسياد الذين اخترعهم .

وقد قنعت الجدة من كل هؤلاء « الأسيـــاد » بعفريت صغير من عفاريت السودان اسمه « سرور » .. ففي ساعة مناسبة أو غير مناسبة ، وفي مكان مناسب أو غير مناسب يحدث ما يدهش ويخيف ويخجل ويضحك .. إما بهذا الترتيب ذاته أو بأي ترتيب سواه . يحدث أن تنتابها أوجاع في مفاصلها واسترخاء في جسدها ، فتستسلم للوجوم ، وتختلج عيناها ثم تتحرك شفتاهـا بصوت الولد الصغير ، هذا « سرور » تقمّصها ، وقد يكون فرحاً يطلب الحلوى، ويداعب من حضر ، أو ساخطاً فيعلن عن سبب سخطه [طبعاً على لسان الجدة] ... وهو اذا أمر بشيء وجب قضاؤه ، وإذا أتى بنبأ فهو الحق اليقين[1] .

وهكذا نرى أن طاهر لاشين هو من الروائيين القلائل الذين بينوا بجرأة ووضوح أن مثل هذه الخرافات هي من اختراع الإنسان ولها أسبابهـا الموضوعية ، حيث يحاول أن يتذرع بها واعياً أو غير واع للتأثير في الآخرين أو لاكتساب أهمية خاصة لنفسه أو « لتحقيق غاية بوسائل خرافية » بعد أن عجز عن تحقيقها نتيجة لظروف ذاتية فيه ، وموضوعية خارجة عنه .

وتلجأ جدة حواء في رواية طاهر لاشين الى عفريتهـا الصغير « سرور » كي تمنع حواء من السفر الى انجلترا في بعثة دراسية . فهو ، أي « سرور » ، كما تدعي الجدة قد غضب لعزم حواء على السفر :

---

(١) طاهر لاشين ، حواء بلا آدم ، ص ٣٥ .

وأقسم لن تبعد حواء عن عينه أبـــداً . وتآزر مع الحاج إمام والشيخ مصطفى في البر بهذا القسم فكتبت الآيات على جلد الغزال ودست في الوسائد ، ورسمت الرسوم على الأطباق بالزعفران وغسلت بماء من المساجد ، وأريق الماء على الأعتاب والسلالم وكثير من أعمال أخرى أجهدت رأس الجدة وأنهكت بدن الحاج[1] .

ولكن هذه الأعمال السحرية بطبيعة الحال كانت مفيدة للشخص الذي كان يقوم بهذه الطقوس ونعني به الشيخ مصطفى . فقد « ورّد » جميع مستلزمات العملية من عقاقير متنوعة من دكانه المزوّد بشتى المواد التي تتطلبها مثل هذه المناسبات وعلى الأخص ما يفضله الجن والعفاريت . وهكذا نجد تحالفاً بين الشيخ مصطفى والجدة ، كل لتحقيق مصالحه . ولا يعدو «سرور» ذلك الجني الصغير أن يكون قناعاً يختفي وراءه هذا التحالف الاقتصادي من جهة الشيخ مصطفى ، والاجتماعي العاطفي من جهة الجدة .

ويتناول العديد من الروائيين موضوع الاعتقاد بالجن ومـا يستتبعه من خرافات[2] . وهم وإن كان بعضهم يشير بوضوح الى أن الجهل والانعزال وانعدام التجربة والتعلق بالأوهام هي المرتع الخصيب لمثل هذه المعتقدات ، إلا أن قليلاً منهم من ينتبه الى خطورتهـــا ويركّز على أهمية محاربتها والتخلص منها .

ولقـــد ارتبطت بفكرة الجان فكرة « البُعبُع » و « الغول » الذي اعتادت الأمهات أن يخوفن به أطفالهن . ورغم أن تعريفاً محدداً للغولة أو البُعبُع لا يمكن العثور عليه من القصص الشعبي أو من ألسنة الجماهير ، إلا أن ارتباطاً وثيقاً مع الجن يمكن ملاحظته ، أو بعبارة أخرى : تجمع مـا بين

---

(١) طاهر لاشين ، حواء بلا آدم ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) محمد حسين هيكل ، زينب ؛ طه حسين ، الأيام ، شجرة البؤس ، دعاء الكروان ؛ طاهر لاشين ، حواء بلا آدم ؛ ابراهيم المازني ، ابراهيم الكاتب ؛ محمد عبد الحليم عبدالله ، الماضي لا يعود ؛ عبد الحميد جوده السحار ، في قافلة الزمان ، قلعة الأبطال ؛ نجيب محفوظ ، الثلاثية (بين القصرين) ؛ حسين مؤنس ، أهلاً وسهلاً .

البعبع ، والغول والجان ، والعفاريت والشياطين ، صفة كونها من العالم السفلي ، غالباً ما تؤذي الانسان وترتكب في حقه ما يحلو لها من أفاعيل . ولا يفتأ الطفل يسمع القصة تلو القصة عن الغولة التي أكلت طفلاً في الطرف الآخر من المدينة لأنه فعل كذا وكذا ، وأنه أي الطفل المخاطب ما لم يفعل كذا وكذا فربما تظهر له الغولة في المساء .

ويذكر سلامه موسى في ترجمته الذاتية أنه حين كان في الرابعة أو الخامسة غرق شاب يدعى زغبان في القناة التي أمام بيتهم :

وأخرجت جثته ورأيتها محمولة على عاتقي أحد الشبان وخلفه عدد كبير من الرجال والنساء في لغط وصراخ . ثم صار لزغبان هذا روح أو عفريت يتردد في الظلام نُخَوّف به ، وتذكره الأم لطفلها فيسكت ويخنس .

ويستطرد سلامه موسى فيقول :

حدث هذا حوالي ١٨٩٢ ، وفي ١٩٤٥ أي بعد ٥٣ سنة كنت أسير الى هذه القناة ، فسمعت من إحدى الأمهات اسم زغبان تخوف به هذه الأم طفلها[1] .

مرة أخرى فإن مثل هذه القصص ، لا تزيد عن كونها وسائل إرهابية تمعن في تخويف الطفل وإضعاف ثقته بنفسه ، واضطراره للالتجاء الى الآخرين دائما ، الأمر الذي ينعكس على نفسيته بصورة عامة .

إن مثل هذه الخرافات بالإضافة الى طريقة التربية السائدة في الوطن العربي والتي تقوم على كبت تطلعات الطفل وتساؤلاته ، تخلق في مخيلة الطفل صورة مشوهة عن العالم ، ويغرق في « فانتازيا » Fantasy وحشية ، يرى نفسه فيها وحيداً ، ضعيفاً ، متردداً لا يثق في الآخرين ويخافهم ، ويخاف على نفسه من المخاطر غير المرئية . فانتازيا غريبة ، يرى فيها :

---

(١) سلامه موسى ، تربية سلامه موسى ، مؤسسة الخانجي بالقاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٨ .

... الأغوال وقد تفرقوا على الطريق يعترضون المارة حين يمر بهم، وقد انقطعت به السبيل، فإذا هم يضمرون له الهول، كل الهول، ويسرون له البغض، كل البغض، وإذا هم لا يكادون يتنسمون ريحه وقد أقبل من بعيد، حتى يتحلب ريقهم قرما الى لحمه وعظمه، وحتى تضطرم في أجوافهم، غلة لا يرويها إلا دمه"[1].

إن الموقف السلبي لأجهزة الإعلام الرسمية وشبه الرسمية لا يقف عند حد التفرج أو التغاضي أو الإهمال تجاه الأفكار أو الممارسات الخرافية، بل إن بعض هذه المؤسسات تتورط أحياناً في ترويج الفكرة الخرافية، إما بصورة مقنّعة تنطلي على الكثيرين من المواطنين، أو بصورة مكشوفة فجة.

ولا يستبعد أن تجد جريدة أو مجلة تروج لظهور الجن وتحذر المواطن من العفاريت، وكأنهم جيش معاد على وشك أن يحتل المدينة كجريدة أخبار اليوم القاهرية مثلاً. فبينما تتحدث الصحف العادية عن الناس العاديين نجد مثلاً كما يقول صادق النيهوم أن:

الصحف الليبية تتحدث عن العفاريت وارتفاع أسعار البخور في مملكة الجن ورداءة المواصلات الى العالم السفلي[2]..

وتضع الجريدة عنوانها الرئيسي بالحبر الأحمر في الصفحة الأولى:

«أيها الأخ .. ردّ بالك من الغولة».

وصحيفة ليبية أخرى يقول لك محررها ناصحاً:

احترس من الجن أعداء الإنسانية .. وامش على الرصيف[3].

ومحرر آخر يقول لك:

أيها الأخ .. احترس من العفاريت العضاضة[4].

---

(١) طه حسين، دعاء الكروان، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٠، ص ٧٧.
(٢) صادق النيهوم، فرسان بلا معركة، دار الحقيقة، ليبيا، ص ٢٤٣. (الإشارة الصحف الليبية قبل حركة سبتمبر سنة ١٩٦٩ – المؤلفان).
(٣) المصدر السابق، ص ٢٤٤.
(٤) نفس المصدر والصفحة.

يعبّر صادق النيهوم عن حالة التوتر وعدم الاتزان التي يعيشها الإنسان العربي حين يُغذي رأسه بالخرافة من مجتمعه عن طريق مؤسساته وأفكاره، وبين الواقع المادي للحياة بما فيها من أفكار وتطبيقات علمية. يعبر عن هذه الحالة المؤلمة بقوله :

إنني أعمل بمثابة حبل يشده أهلنا من جهة ويشده بقية العالم من جهة أخرى وأسوأ ما في الأمر أنني حبل يشعر بالصداع[1] ..

ويبين التأثير السيء لهذا الشد عليه فيقول :

طوال الليل أصاب بالأرق .. أدخن ما أملكه من التبغ وأحرق ملاءة السرير وأحاول أن أعرف عما اذا كان الجن وحده هو عدو الإنسانية.. عند الفجر أصاب بالإرهاق وأعلن لنفسي في محاولة فاشلة لحل المشكلة أن الجن والسرطان (كان قد قرأ في صحيفة سويدية أن معهد أبحاث السرطان في مدينة استكهلم قد نجح في عزل خلية المرض وأن هذا النجاح يهم الناس جميعاً لأن السرطان بالذات هو العدو الوحيد لجميع الناس) معاً أعداء الإنسانية لكن أحداً لم يكتشف هذا الثنائي غير المرح حتى الآن، لأن الليبيين يعرفون واحداً فقط وبقية العالم يعرف الآخر فقط أيضاً[2] ..

ويتابع موضحاً أثر هذا الجذب عليه :

طوال النهار التالي أذرع المقاهي لكي أقنع الناس بوجود الجن وأقنع الليبيين[3] بوجود السرطان وأجمع الإنسانية في طبق واحد .. ليس ثمة فائدة . لا أحد هنا (استكهلم) يؤمن بوجود الجن ..

---

(١) صادق النيهوم ، فرسان بلا معركة ، دار الحقيقة ، ليبيا ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٣) من الواضح أن ما ينطبق على جماهير الشعب الليبي بهذا الصدد ينطبق على الجماهير العربية في معظم أنحاء الوطن العربي ، وما تروجه الصحف الليبية تروجه صحف في أماكن أخرى مثل جريدة أخبار اليوم القاهرية وغيرها .

لا أحـــد هناك يؤمن بوجود السرطان .. أنا اؤمن بها معاً وأصاب بالصداع[1] ..

ثم يؤكد النيهوم مرة أخرى تباين العالـَميـْن ، وشقاء من يعيش بينهما :

أنا كتب الله على جبيني أن أعيش في الوسط بين النـــاس الذين يؤمنون بالغولة وبين الناس الذين لا يؤمنون بكلمة واحدة منهـا .. بين محرر يقول لي بالحبر الأحمر « أيها الأخ .. احترس من العفاريت العضّاضة » وبين صاحبة البيت التي تقول لي بالعين الحمــراء « الزم الهدوء قبل أن أكسر رأسك » .

إن الرأس بالذات ليس شيئاً بالنسبة لمن يعيش مثلي في الوسط .. إنـــه مجرد مصدر للألم سواء كسرته صاحبة البيت أو شقه الصداع الى نصفين حتى الصباح .. كل مـا في الأمر أن الصباح السخيف لا يشرق بسرعة إذا عرف انك خائف من الغولة .

إنه ينتظر مائة عام على باب البيت .. ينتظر ويضحك في سره ويتركك للظلمة المثيرة للريبة .. وتنتظر أنت مفتوح العينين وترى الظلال تتلاعب أمامك كالقطط ، وترى الكرسي يتسكع في الغرفة على هواه وظل معطفك ينبت رأساً وقدمين والسقف يزدحم بالمارة وتسمع قلبك يدق مثل ناقوس المطافيء وتحس بشفتيك متيبستين من الرعب وتبللهما بقليل من البصاق .. وتعرف إذ ذاك انك وحيد ، وان أحداً على مد العين لا يشاركك وحدتك[2].

ولا يقتصر دور الجن في عقلية الجماهير على قيامها بمـا تقدم ذكره ، بل ما زالت قطاعات عريضة ، وخاصة في القرى ، تعتقد بأن الأرض مبعثهـا قوى غيبية تتمثل في الجن والشياطين أو أنها ناتجة بتأثير عين حاسدة[3] .

---

(١) صادق النيهوم ، فرسان بلا معركة ، دار الحقيقة ، ليبيا ، ص ٢٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) إن سيطرة الاعتقاد بالجن على جماهير الريف تتحكم بشكل بارز في حياتهم . ←

وهـــذا لا يقتصر فقط على الأمراض القصيرة الطارئة ، بل يشمل كذلك الأمراض الطويلة . فنجد مثلاً ، عائشة في زقاق السيد البلطي ، تفشل في إكساب جسمها شيئاً من السمنة يحببها في أعين الخاطبين ، رغم استعمالهـا للعديد من الوصفات التي ربت اللحم على أكتاف وأرداف الكثيرات . وعليه فلا تفسير لهذا الهزال الطويل حسب تشخيص أم عائشة إلا أن شيطاناً قد سكن جسدها وامتص دماءها وحال بينهـا وبين الزواج . والعلاج في هذه الحالة يتلخص في إجراء « عملية » لاستئصال الروح الشريرة أو الشيطان من جسم عائشة . وهذه « العملية » لا بد أن تكون خرافية بطبيعة الحـــال ، ونعني بهـا « الزار » والذي سيرد تفصيله فيما بعد . وفيه تُوجّه شيخة الزار نداءها وبطريقتهـــا الخاصة الى العفاريت أو العفريت المتقمص جسم المريض وتطلب منه أن يغادر ذلك الجسم ، وهو يفعل ذلك ولكن بعد أن يتقاضى الثمن والذي تقبضه نيابة عنه شيخة الزار[1] .

وكثيراً ما تفسر أي ظاهرة غير مألوفة للإنسـان على أنها من فعل الجان . فحين أغمي على زكية في في قافلة الزمان لعبدالحميد جودة السحار، « وارتمت على الأرض وتخشب جسمها ، وشخص بصرهـــا الى السقف لا يتحرك . وحاولت النساء إفاقتها دون جدوى»[2]، لم تستطع النساء لجهلهن وللمفاجأة، أن يفهمن سبب حالتها تلك . ولكثرة ما سمعن عن العفاريت ، فقد سارعن الى تفسير تلك الظاهرة ، أي الإغماء ، بأنها من فعلهم . وسرى في المكان همس أن جسدها لم يعد خالصاً لها . فقد نامت حزينة ، ممـا جعل العفاريت يشاركونها في جسدها . وكان اقتراح إحداهن لعلاج الموقف :

← ويلاحظ محمد جبريل أن : « لعل أهم مـــا أصاب الحياة في الريف من تغيُّر ، هو أن العفاريت والجن والردة خفتت من إحكام قبضتها على ليل القرية المصرية » .

محمد جبريل ، مصر في قصص كتابها المعاصرين . الهيئة المصرية العـــامة للكتاب ، سنة ١٩٧٢ ، ص ٣٤٧ .

(١) صالح مرسي، زقاق السيد البلطي، دار روز اليوسف، القاهرة ١٩٦٣، ص١٠ .

(٢) عبد الحميد جودة السحار ، في قافلة الزمان ، مكتبة مصر ، القـــاهرة ، الطبعة الثانية ، ص ١١٣ .

أن يأتوا بمؤذن يكبّر في أذنها ، لكن نفيسة قالت في خوف : أخشى أن يؤذوها ! ثم اضطرت الى طلب المؤذن ، وجاء الرجل ، وركع بجوار زكية ، ورفع رأسها بين يديه ، ثم أخذ يكبّر في أذنيها بقوة ليرهب العفريت الذي تسرب الى جسمها وليرغمه على الفرار . وبالفعل ، بدأ جسم زكية يتحرك ، ثم تكررت الغيبوبة بين وقت وآخر[1] .

ويبدو أن هذا الإسعاف الأولي لم يكن كافياً لشفاء زكية من العفريت ، أو يبدو أنه كان يخادع المؤذن ويترك الفتاة حين يسمع الأذان ربما لارتفاع صوت المؤذن ليعود الى جسمها حين يتوقف الأذان . وإذ ذاك قررت أم زكية أن تعرضها على إخصائي العفاريت ، وهو : شيخة الزار . وبعد أن أخذت الشيخة « أثراً » لزكية ، وحللت ذلك الأثر في مختبرها الخرافي ، توصلت الى التعليل التالي للظاهرة الغريبة ، ونعني بها تكرار الإغماء . فقالت الشيخة لأم زكية :

نامت ست زكية في حجرتها وحدها ، وبكت قبل أن تنام ..
فآذى بكاؤها إخواننا (الجن والعفاريت) الذين يشاركونها في حجرتها.
فالأرض ليست لنا وحدنا ، فلمسوها ليؤذوها كما آذتهم[2] .

وعليه ، فإن الاعتقاد السائد في الأوساط الشعبية هو أن الحالات العصبية ، أو النوبات النفسية ، سببها العفاريت التي تركب المريض . ونحن لا ننكر أن مثل هذه الاعتقادات ضعيفة ولا تظهر على السطح بالنسبة للفئات المتعلمة ، غير أن هذه الفئات بحكم تربيتها ورصيدها الخرافي أثناء الطفولة ، تكون في أغلب الأحيان على استعداد لتصديق هذه الخرافات في الحالات المستعصية ، والتي يصعب فيها التوصل الى حل بواسطة الوسائل العلمية الحديثة . بل إن

---

(١) عبد الحميد جودة السحار ، في قافلة الزمان ، مكتبة مصر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ص ١١٣ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

عدداً من المتعلمين لا يجد غضاضة في التصديق بالخرافة واللجوء الى الوسائل الخرافية اذا اعترضته مشكلة لم يجد لها حلاً. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن المجتمع العربي بطبيعته غني بالمشاكل الصحية والاجتماعية والاقتصادية وبأن مستويات التقدم ما زالت منخفضة من حيث النوع وضئيلة من حيث قدرتها على مواجهة الكم ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الانسان العربي ما زال يجد صعوبة كبيرة في عرض مشكلاته على الأجهزة المختصة ، وصعوبــة أكبر في الاستفادة من الإمكانيات التقنية لهذه الأجهزة، بسبب انخفاض مستوى الكفاءة من ناحية ، لدى القائمين على إدارة هــذه الأجهزة ، ولطغيان عدد المواطنين على إمكانية هذه الأجهزة ؛ واذا أخذنا بعين الاعتبار أن الوعي الثقافي العــام بالنسبة للمواطن العادي ، وبعض فئات المتعلمين لا يعدو الثقافة المدرسية التقليدية ، بعد كل ذلك، نجد أن الانسان العربي معرّض كثيراً لأن يفشل في حل العديد من مشاكله . فإذا أضفنا الى ذلك طبيعة الحياة الاجتماعية العربية بما فيها من تزمُّت وسلفية وخرافة وانغلاق وانفصال بين الجنسين ، وطبقية ، وجهل ، وأمّية – وكل ذلك له أثره الواضح في التركيب العقلي للإنسان – نستطيع أن نتبين مدى ضعف مقاومته لإغراءات الخرافة ، لما تحويه من حل (وهمي) مريح ، يقع على شكل معجزة من السماء .

إن ضعف القاعدة العلمية للإنسان العربي المتعلم ، والذي يشرف على بناء هــذه القاعدة الضعيفة في فترة الطفولة ، الأم الجاهلة ، المؤمنة بالخرافات ، الباحثة عن المعجزات ، ومدرس الابتدائي الذي يعتبر التدريس في كثير من الأحيان لعنــة حلت عليه ، والذي لا تزيد معلوماته واهتماماته عن نطاق الكتاب المدرسي ، والذي لا يتورع عن زجر التلميذ وأمره بالسكوت والرد عليه ، « بأن الله على كل شيء قدير » [1] – هذا اذا لم يكن المدرس من شيوخ الكتاتيب من الناحية العقلية، وليس بالضرورة من حيث اللقب والهيئة– **هذه القاعدة العلمية والتي تغذيها وسائل الاعلام بمزيج عجيب من المعلومات التي تتداخل فيها الخرافة في نسيج ما يقدم كعلم، لتنتج قماشاً عربياً خاصاً،**

---

(١) نجيب محفوظ ، بين القصرين ، ص ٧٧ .

غير مؤهلة للصمود أمام تحديات العصر ، سواء على مستوى الانسان كفرد أو على مستوى المجموع كشعب . وهذا وفي ظل التقدم العلمي في خـــارج البلاد العربيـــة يدفع حتى غير الجهلاء من القطاع الجماهيري المريض للجوء الى الخرافة كتحليل للأحداث وكعلاج لها .

يصف العوضي الوكيل موقفـاً غريباً شاهده بنفـسه في احدى الادارات العامة في أحد الدواوين الحكومية في القاهرة يؤكد ما ذهبنا اليه في تحليلنا السابق . وتاريخ هذا المشهد هو يناير سنة ١٩٥٦ . أمـــا بطل المشهد فهو موظف من « الباحثين الفنيين في الديوان » . لم يجد هذا الموظف الفني «فتاة» تحبه ، وكلما تقرّب من واحدة أعرضت عنه ، مع أنه كا يعتقد وسيم الخلقة فلا بد اذاً أن يكون « عَمَلٌ » قد عمل له . ولا سبيل الى فك هذا العمل إلا بالبخور. ولم يكن هذا الاعتقاد في سر إعراض الفتيات عن الباحث الفني مقصوراً على الموظف نفسه ، بل إن زملاءه كانوا يعتقدون ذلك أيضـــاً . وفسّر أحدهم حالة زميله بقوله هامساً بصوت يسمعه الموظف الفني :

إن زميلنا به مس من الجن، وعليه عفريت يرتاح للبخور والغناء، ونحن نصنع هذا (حفلة الزار) رفقاً به . فهذا شيء توجبه الصداقة والزمالة .

وبالفعل شخص الموظفون حالة زميلهم بأنـــه مركوب من الجن ، ولا بد من إجراء عملية له ، لاستئصال العفريت ، وهذه العملية هي الزار ، وكانوا نشيطين جداً . يقول العوضي الوكيل :

.... سمعت نقراً على الدف وأصواتـــاً عجيبة كأنها أصوات مشتركين في زار . فاقتحمت الغرفة (في الادارة للاختيار والتمرين في الديوان) التي تصدر عنها الأصوات فرأيت عجبـاً من العجب : موظفاً من الباحثين الفنيين ، وأمامه ركية من النار في إناء فخاري قديم والنار يتصاعد منها بخور والموظف المسكين يخطو على النـــار ذهاباً وجيئة بين تهليل الحاضرين وهتافهم : حدرجة .. بادرجة ..

من كل عين سارجة . وهو يردد معهم في صوت يخنقه لون من الرعب وفيه وقار المصدّق المستسلم : حدرجة .. بادرجة ...[1]

بالكاد نجد فرقاً بين تشخيص أم عائشة في زقاق السيد البلطي لسبب هزال ابنتها وبالتالي عدم إقبال الرجال للزواج منها ، وبين « الباحث الفني » في ديوان حكومي عام ١٩٥٦ . ومع أن العوضي الوكيل لم يذكر مؤهلات ذلك الباحث الفني العلمية ، إلا أننا نتصور أنه حاصل على الليسانس أو الثانوية العامة على أسوأ الفروض . وهذا يعني أن تعليم ذلك الموظف وكذلك زملائه ، لم يكن كافياً لردعه عن اللجوء الى نفس « التكنيك » الذي تلجأ إليه المرأة الجاهلة في أعماق الأحياء الشعبية في المدينة أو في أعماق الريف . وليس لدينا شك بأنه لولا تلك المختزنات من المعلومات الخرافية ، في ذهن ذلك الموظف وزملائه منذ الطفولة ، لما كان بالإمكان إقناعه وهو بهذه السن ويحمل تلك المؤهلات ويشغل ذلك المنصب – باحث فني – بأن مشكلته في الزواج سببها الجن .

ومن الطريف والمهم أيضاً أن نلاحظ أن مشكلة العثور على فتاة، ويقابلها عند الفتاة مشكلة العثور على زوج ، قد دفعت برصيد الخرافة المدخر في ذهن ذلك الموظف إلى السطح ليحكم تصرفه العملي . ولا شك أن إقامة الزار في ديوان الحكومة يعكس صورة لقبول المجتمع لمثل هذه الخرافات واقتناعه بها، من حيث أن الموظف قد وجد زملاءه أو أقنعه زملاؤه بضرورة اللجوء الى التفسير والحل الخرافيين .

إن الضغوط الاجتماعية تدفع أفراد المجتمع، الى البحث عن حلول للمشاكل بشتى الوسائل ، وحين لا يتيح المجتمع لأفراده أن يواجهوا مشاكلهم بشكل صريح ، ومباشر ، خال من التعقيد والانغلاق ، ومستند الى اسس علمية وعقلانية ، يضطر الأفراد اضطراراً الى اللجوء الى وسائل أخرى بعيدة كل البعد عن القشرة الحضارية التي تغطي ذلك المجتمع .

---

(١) روز اليوسف ، العدد ٢٣١٢ – ٢/١٠/٧٢ ، ص ٥٣ .

وما تزال المشاكل الاجتماعية ، ونعني بها في هذا المجال ، الزواج والطلاق والمحبة والكراهية ، تلعب دوراً أساسياً في الإبقاء على هذا الزواج للخرافة ، وذلك نتيجة للانغلاق الاجتماعي . وتلجأ النساء أكثر من الرجال الى الخرافة في حل مشاكلهن الاجتماعية بسبب جهلهن عموماً وقلة الخبرة لديهن واعتمادهن على الرجال اقتصادياً وثقافياً . ففي عدد من الرسائل يعترف أصحابها بالمشكلة التي دفعتهم الى اللجوء للمشعوذين للتوصل الى حل ، نقتطف منها الأمثلة التالية :

سيدة عمرها خمسون عاماً ذهبت تسأل شيخاً ما دواء لابنتها المصابة بمرض في قلبها مقابل أن تدفع له قرشين مصريين .

وأخرى تسأل الحاجة ألماظة عن طريقة لجعل ابنها يتوقف عن ضربها .

وآنسة عمرها تسع عشرة سنة ذهبت تستفسر عن بخور يشفيها من الخضة والحالة العصبية والخوف الدائم منذ أن رأت جاراً يقع من على الشرفة ويموت .

وطالب عمره تسع عشرة سنة ، أنهى الثانوية وقدم أوراقه للجامعة ، فرفضت ، وهو حاصل على ٥٠ ٪ من الدرجات جاء يستكشف مستقبله ، فأخبرته الحاجة أن مستقبله سالك ويحتاج الى « بخور ولبان ذكر »[١] .

إن الأمثلة التي ذُكر بعضها أعلاه والتي يعود تاريخها الى عام ١٩٧٠ تؤكد أن ما شاهده العوضي الوكيل في ديوان الحكومة عام ١٩٥٦ لم يكن حالة نادرة بقدر ما كان مثالاً يعبر عن واقع ذهني يعيشه المجتمع العربي بنسائه ورجاله ، وبمدنه وقراه . ولا يختلف من حيث الجوهر موظف الحكومة عن طالب الثانوية العامة ، عن المرأة الريفية القادمة من أعماق الريف .

---

(١) روز اليوسف ، العدد ٢١٩٢ ، ١٩٧٠/٦/١٥ ، ص ٢٤ .

على الرغم من أن آلاف السنين مرت على نشوء الأساطير المتعلقة بالجن والشياطين وغيرهـا من الكائنات الخفية ، ورغم أن المسألة في محصلتها لا تعدو سوى استمداد هذه الأساطير قوتها ووجودها من الأيديولوجية الدينية السائدة – لدى مختلف الشعوب – بحيث يمكن القول أن فكرة الكائنات الخفية من حيث وجودها ومن حيث أدوارها في الحياة الإنسانية ، هي فكرة دينية محضة ، سواء من حيث الفلسفة أو الاستدلال ، وأنه بالنسبة للمنطقة العربية فكما سبق وأن ذكرنا أن استدلالاً عقلياً وعلمياً (بالمفهوم العصري) على وجود الكائنات الخفية لم يتمكن فلاسفة المسلمين من الوصول إليها وأن بعضهم في سبيل العقلانية أخذ المسألة مأخذ التأويل (المعتزلة) ؛ إلا أن المواطن العربي مـا زال حتى اليوم يجد عدداً من « المفكرين » أو الكتّاب على استعداد لتجديد هذه الخرافات واستخدام العلم للبرهنة على وجودها مستخدماً ما أنجزه العالم المتحضر في مجال العلم والتقنية ومسقطاً ذاته على المقولات العلمية الطبيعية بشكل تعسفي يكشف بوضوح عن جهل بماهية العلم وفلسفته ووسائل الاستدلال به، ويكشف أيضاً عن ضعف القاعدة العلمية لدى هؤلاء الكتاب وخاصة في مجال استنباط العلاقات وعقد المقارنات والاستنتاج .

ونورد هنا مثالاً لكاتب من هذا الطراز هو الدكتور مصطفى محمود الذي يعقد مقـارنة بين الكائنات الخفية وأشعة إكس والأشعة تحت الحمراء ، فهو يقول :

ومرة أخرى تقول لنا العلوم القطعية .. أن ما يقع في نطاق إدراكنا الحسي ليس هو كل شيء.. وأن العالم زاخر حولنا بموجودات غير مرئية وغير ملموسة وغير مسموعة ، ومع ذلك فهي يقينية مثل وجودنا اليقيني نفسه .. مثال ذلك الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية وأمواج اللاسلكي والرادار وأشعة إكس . ومثل هـذه الأمواج كانت موجودة قبل أن نخترع الرادار ومحطة إذاعة ماركوني وجهاز أشعة إكس ... هذه الأمواج كانت وما زالت تنصبّ علينا

من الشمس ... دون أن نراها أو ندري بها . فالقول بالغيب والملائكة والمخلوقات الغير مرئية أمر طبيعي ... والعكس هو الغير طبيعي"[1].

يبدو أن الكاتب يتجاهل أن خواص هـذه الأشعة لم يفترضه كاهن أو قديس ، ولم يحلم بها عالم وإنما استُدِلّ عليها بتأثيراتها بوسائل غير الرؤية المباشرة . أما الكائنات الخفية فإن الأساطير الميثولوجية تحدد لها صفات وخواص وتأثيرات دون أن يكون هناك أي استدلال غير ميتافيزيقي على وجودها .

(٢) مصطفى محمود ، لغز الموت ، ص ١٧٢ .

٢ – الــزّار

كان لا بدّ من اختراع « تكنيك » يمكن بواسطته السيطرة على الجن والعفاريت ، أو طردها أو التخلص من أذاها . وكان لا بدّ للعقلية الجماهيرية التي آمنت بخرافات العالم السفلي أن تؤمن بخرافات تقنية العفاريت ، وبالتالي أن تصدق مـا يدعيه المشعوذون من توفر الإمكانات لديهم لاستئصال أكبر عفريت من جسم الإنسان. وعلى مرّ العصور كان المشعوذون والكهنة ورجال الدين هم أكثر الناس ترويجـاً وتصديقاً في الظاهر في كثير من الأحيان ، لسطوة الكائنات غير المرئية من العـالم السفلي : من أشباح ، وعفاريت ، وشياطين ، وجن ، على شكل قطط وكلاب وتماسيح ومعيز وغيرهـا من الحيوانات . يدفعهم الى ذلك منافع اقتصادية ، أو اجتماعيـة ، أو سياسية باعتبار أنهم الخبراء أو العارفين أو العلماء الذين ستلجأ اليهم الجماهير تطلب منهم المساعدة والمشورة الفنية للتخلص من تأثير العفاريت[١] . وهكذا وخلال القرون الطويلة، نشأ في كثير من بقاع الوطن العربي،وخاصة في مصر، أسلوب أو طريقة لمقاومة الأرواح الشريرة والتغلب عليها، وطردها من جسم المصاب بها ، وهو ما يعرف بالزار[٢] .

---

(١) راجع بهذا الخصوص ما ورد في كتاب :

Lévi - Strauss, C., The Savage Mind . Weidenfeld and Nicolson: London, 1968., Smith, W., Robertson, The Religion of the Semites, Macmillan : London, 1966.

(٢) إن كلمـة الزار مستعملة في مصر لتعبر عن حفل استخراج العفاريت من جسم الانسـان ، بينما نجد في البلاد العربية الأخرى ما يشبه هذا الحفل وإنما تحت أسماء أخرى .

وتكثر حفلات الزار ، خصوصاً بين النساء وتأخذ شكل طقوس لها أصولها ومستلزماتها وشيوخها أو شيخاتها . تسمى شيخة الزار في مصر « كديه » .

يقدم عبد الحميد جودة السحار في قافلة الزمان صورة حية الطريقة التي يتم بها التفاوض بين أهل المريض من جهة وشيخة الزار من جهة أخرى ، ثم ما يستتبع ذلك من طقوس في الحفلة ذاتها . فبعد أن تكرر إغماء زكية شخصت شيخة الزار مرضها بأن الإخوان (العفاريت) « لمسوها ليؤذوها » فسألتها أم زكية :

— وما يردون الآن ؟

— ترضية .

— نحن على استعداد لنقدم الترضية التي يطلبونها .

— اتصلت بهم ،وعرضت عليهم أن نذبح على السكت ما يطلبون ، وأن نكتفي « برضوة » ، فقبلوا وكدت أنجح في مسعاي لولا السجان فإنه أصر على دق الدفوف ، فانحاز اليه الباقون جميعاً .

— وفيم يرغبون الآن ؟

— في إقامة زار بالطبول والدفوف .

— لهم ما يريدون .

واطمأنت الشيخة الى إقامة الزار ، فالتفتت الى زكية وسألتها :

— أما رأيت في منامك طيوراً وحيوانات ؟

— لا أذكر .

— ألا تذكرين أنك رأيت دجاجة سوداء أو حمراء ، أو عجلا أو خروفاً له علامة خاصة ، أو أي شيء من هذا القبيل ؟

— والله لا أذكر يا ست الشيخة .

— تذكري كل ما ترينه ، وقصيه عليَّ .

— حاضر .

وتقضت أيـــام ، حاولت زكية أثناءها أن تتذكر وتفكر في الطيور والحيوانات قبل أن تنام . ثم جلست الى الشيخة تروي لها ما رأت : إنهـا لم تر إلا حيوانات لها سمة خاصة ، فهذا خروف أسود (غطيس) في جبهته هلال أبيض ، وهذا ديك رومي أبيض به نقط حمراء ، وهذا عجل أحمر ، قرب ذيله شامة بيضاء .

وكانت الشيخة تنصت في انبساط ، فإن ما رأته المريضة يعد بزار كبير، يستمر ثلاثة أيام بلياليها . وقالت الشيخة :

- اشتري كل هذه الأشياء ، فإن الأسياد أوحوا بهـا إليك في المنام .

وأقبلت أيام الزار ، فذهبت زكية الى بيت أختهـا ، وذهبت أمها وأمينة لتجهيز « الكـُرْسِي » . والكرسي نضد مرتفع يوضع في وسط المكان، ويوضع فوقه صينية كبيرة يكدس فوقها سكر وبن وبندق ولوز وسلطانية لبن زبادي وفطير وجبن رومي وزيتون وبوظة ، وتصف حول الكرامي شموع كبيرة تنار طول الليل .

وفي أول يوم قامت الشيخة وألبست زكية ثياباً بيضـاء ، فهي تعتبر عروس ذلك اليوم ، ثم اتجهت الى الكرسي ، وأخذت السكر والبن وكثيراً مما فوق الصينية وحجزته لنفسها ، ووزعت ممـا بقي على الواقفات ، وخصت فتياتها اللاتي سيدققن الدفوف معهـا بالنصيب الأوفى .

... وجيء بالحيوانات والطيور ، فاختارت الشيخة لنفسهـا ما يحلو لهـا ، وبعثت به الى دارها ، ثم نحرت ما تبقى وذبحته وحفظت الدم في وعـاء كبير ، ولطخت منه وجه زكية وذراعيها وثيابها ، ثم أخذت مصاغها وغمسته فيه ، فبدت زكية كأنما خرجت من معركة قاسية ، استعملت فيها السكاكين وسالت الدماء فيها .

وارتفعت دقات الدفوف ، وجلجلت أصوات فتيات الشيخـــة بأناشيد العفاريت ، فأخذت زكية تدور حول الكرمي وقد وضعت يديها خلف ظهرها ، واتسعت حدقتا عينيها ، وقام النسوة يتمايلن بجسومهن على دقات الدفوف ، وارتفعت الدقات ، واشتدت ، حتى استولت على المشاعر ، فاهتز كل شيء ، حتى الحيطان بدت كأنما تهتز.

وخلعت زكية ثياباً وارتدت ثيابـــاً ، وكانت تنزل الى ساحة « التفقير » كلما دقت الشيخة دقة جديدة ، وتتمايل بجسمها الضخم . وتضرب برجلها الأرض ، فيهتز السقف تحتها ، ويئز زجاج الأبواب والشبابيك أزيزاً ، ومالت على الصينية وقبضت قبضة مما عليهـــا ، ونثرتها ، على الجالسات بجوار الحيطان ينظرن ، فرحن يجمعن ما نثرت في سرور ، فإن العفريت راض عنهن .

ومرت أيام الزار الثلاثة ، واهرق فيهـا دم كثير ، حتى كادت زكية تستحم في الدماء ، وجهز الحمام ، ودخلت زكية تستحم ، وتبدل ثيابها الملوثة بالدم ، ثم خرجت منه ، وجلست تستريح قبل أن تعود الى دارها ، وقد أحست راحة تشيع في نفسها ، فإنهـــا لترجو بعد أن أقامت الزار ، أن تكون جميع « العكوسات » قد فكت ، وإنهـا لتأمل كل الأمل بعد ذلك الزار ، أن تحمل ، وأن تنسل نسلاً تقر به عيناً [1].

ويتضح من هذا الوصف ، أن شيخة الزار تنظر الى الموضوع نظرة تجارية بحتة وهي تحاول أن تخرج بصفقة رابحة سواء بالحصول على الأموال أو الطعام. وإمعاناً في تمثيل الدور فإنهـــا تخبر من ستعمل لهم الزار ، بأن العفاريت هم الذين يريدون ديكاً أو خروفاً أو عجلاً . وواضح أن مطاليب العفاريت تتفق دائماً وذوق الشيخة . ومهنتها هنا لا تختلف عن مهنة المغنية . فهي لها بناتها اللواتي يساعدنها في الغناء والرقص وخلق الجو المناسب .

---

(١) عبد الحميد جودة السحار ، في قافلة الزمان ، ص ١٣٢ - ١٣٩ .

ونظراً لأن حفلة الزار بالوصف الذي تقدم تكلف مبالغ لا تقدر عليها إلا النساء اللواتي يعشن بنوع من اليسر فإن ضخامة الزار وكثرة الذبائح والأناشيد تتناسب طردياً مع القدرة الاقتصادية لصاحب الزار .

وللزار طقوسه وأدعيته ترددها الشيخة ومساعداتها ، وذلك للإيحاء الى المريضة بأنها عن طريق هذا الغناء سيتخلص جسدها من العفريت . ومن هذه الأدعية :

ماما الهدى
آه يا ماما
بدر التمام يا محمد
نصبوا الكرامي لماما
بر السماح لماما
بر الهدى لماما
صاحب العوايد ماما
صاحب الذبايح ماما
نصبوا الميدان يا ماما
آه يا زهر الورد يا ماما

* * *

سلام على أم الغلام
يا مرحبه يا أم غلام
سلام على أم غلام
يا مرحبه بأم غلام .
ردوا السلام على أم غلام
يا بنت ماما يا ام غلام .
. . . .
. . . .

يا ام الغلام واشفي عيانك
يا ام الغلام والطبل طبلك
يا ام الغلام والليلة ليلتك[1].

* * *

اعمل ايه يا ربي
جسم العليل أصبح مبلي
ياما العواذل غيروني
وعد ومكتوب يا عيني
والخال يلوم علي
وليه يلوم علي[2]

* * *

يتضح من الأناشيد المذكورة أعلاه أنها لا تشكل تأليفاً شعرياً أو زجلياً ذا قيمة ، سواء من حيث الكلمات أو المعاني أو الموسيقى . وكما يبدو فإن الكلمات ساذجة ومتكررة ما يوحي أن شيخة الزار وبناتها يقلن أي كلام يخطر في بالهن وينغمنه حسب إيقاع الطبول . وبالتالي فإن ما يؤثر في المرأة المعمول لها الزار هو الجو الذي يقام لها حيث تجد نفسها محاطة بالعديد من السيدات في جو صاخب من ناحية ، ومتحلل من بعض القيود التي يفرضها المجتمع ، حيث تنسى صاحبة الزار نفسها بتشجيع من شيخة الزار وبناتها فيساعدها ذلك على التنفيس عن عواطفها المكبوتة معبرة عن ذلك بالحركات الجسمانية المختلفة .

---

(١) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ص ٢١٧ .

(٢) توفيق حنا : « الزار » ، جريدة المساء ، ٦ يوليو ١٩٦٢ ، كما ورد في كتاب محمد جبريل : مصر في قصص كتابها المعاصرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٢ ، ص ٢٨٥ .

ويبدو أن الزار بما فيه من رقص وغناء وإيقاع ، ترجع أصوله الى قرون عديدة ، وربما قبل الإسلام ، ولكنه تطور نوعاً ما عبر السنين ، ليأخذ طابعاً شعبياً شبه إسلامي متأثراً بحلقات الذكر الصوفية. أما الطابع الإسلامي فيتضح بنسبة المرض الى عفاريت من الجن ، واستعمال الألفاظ الدينية مثل « الصلاة على النبي » وترديد أسماء الله .. الخ ، وادعاء الذين يقيمون حفلات الزار أنهم شيوخ أو شيخات ، وأنهم أتقياء وورعون .

وفي ضوء العلم الحديث فإن هذه الحفلات وما يتخللها من تحلل وخاصة لدى النساء يمكن تفسيرها على أنها تعبير عن حالات الكبت الجنسي والنفسي وما ينجم عنها من اضطرابات عضوية ونفسية وخاصة لدى المرأة التي يقام لها الزار « لتخليصها من العفريت الذي يركبها » .

وفي مجتمع كالمجتمع العربي حيث تعيش المرأة في أغلب الأحيان في عزلة عن الحياة الاجتماعية العامة ، فإن الزار يشكل مناسبات اجتماعية مغرية للنساء ليجتمعن وينطلقن ويعبرن عن حالات الكبت والقهر الجنسي والنفسي والاجتماعي . ومع أن الزار من الطقوس المتفشية نسبياً في الشرائح السفلي من المجتمع المصري بشكل واضح إلا ان قليلاً من الكتاب قد تعرض لها بالتحليل والنقد باعتبارها إحدى مظاهر الخرافة في المجتمع العربي. الأمر الذي يعكس نوعاً من عدم الاكتراث والتجاهل وربما الجهل أيضاً لدور الخرافة في تشكيل العقلية الاجتماعية بشكل عام ، خاصة أن الشرائح السفلى والنساء تكون غالبية المجتمع .

وكما ذكرنا سابقاً فقد كان ممن أشاروا الى الزار الدكتور محمد حسين هيكل في روايته زينب ، وكذلك فعل طه حسين في روايتيه شجرة البؤس ، و دعاء الكروان ، وعبد الحميد جودة السحار في في قافلة الزمان . ويبدو أن الاعتقاد بحفلات الزار غير مقتصر على النساء فقط، بل إنه يشمل الرجال وإنه ما زال منتشراً حتى هذا اليوم ، وبين فئات قد نالت حظاً من التعليم ، وقد أشرنا سابقاً الى ما ذكره العوضي الوكيل، بأن أحد الموظفين قد أقام له زملاؤه حفلة زار في دائرة حكومية .

وحتى عام ١٩٧٠ وما زال الأمر كذلك ، وإن كانت قد طرأت بعض تطورات بسيطة على الجو الذي يرافق الزار .

تصف مجلة روز اليوسف حفلة زار أقيمت في بيت « أم غريب » في الاسكندرية بأنها كانت تشبه حفلة جاز ، فهناك :

طبول تدق . وزحاماً من الناس يتمايل ..
ويزيد في سخونة الزحام وجود عشرين سيدة .
وفتاة في حالة انسجام عصبي مثير .

أما الديكور ... مكتب لكتابة الأحجبة على شكل كرسي . وبلاص من الفخار يتصاعد منه البخور . وعلى الجدار نقوش غامضة ، وقرن خرتيت ، وجلد قنفذ . وعند الأركان ١٣ شمعة موزعة هنا وهناك ، وفي الحجرة أيضاً دولاب مشحون بالمناديل الرجالي ، والكرافتات .. من أجل النساء .

وعندما دخل البوليس كانت أم غريب تقود الزار من عرشها كما يقود السلطان جيشه ، وتوزع الأوامر على الجن من وقت الى آخر حسب حاجة الراقصين .

ثم تصف المجلة دخول الشرطة الى المكان ، وأقوالها في التحقيق ، حيث أفادت الشرطة بأنها تعمل الزار :

بالتكال والبوصكة ، - ٩٥ حاريت . لما واحد مسموم بييجي عندي أخليه يلحس قرن الخرتيت يقوم لسانه ينجرح ويخف . واللي عنده سخونة أبخره بجلد القنفذ . وربنا هو اللي يشفي .

وهكذا نلاحظ أن هذه السيدة تقوم بكل أعمالها الخرافية ، ثم تتنصل من مسئوليتها باعتبار أن الله هو الذي يقوم بشفاء المرضى[1] .

ولا يقتصر الأمر على وجود حفلات للزار خاصة بالرجال أو النساء كل

---

(١) روز اليوسف ، العدد ٢١٩٢ ، ١٩٧٠/٦/١٥ ، ص ٢٣ .

على حدة . بل يبدو أن ريح التحرر قد لامست أطراف الخرافة أيضاً ، حيث أصبحت تقام في السبعينات حفلات للزار مختلطة للرجال والنساء . وفي مصر القديمة وفي ضريح الشيخ أبو السعود يقيم تجار الخرافة حفلات يرقص فيها النساء والرجال رقصات الزار من العاشرة صباحاً الى العاشرة مساء . والهدف هو الحمل[1] . وعندما يتحقق هذا الهدف لا يسأل أحد هل جاء الحمل نتيجة بركات الشيخ أبو السعود ، أم نتيجة وجود عشرات من رجال العصابات وتجار المخدرات والقوّادين المحترفين في ساحة الزار[2].

ومما يلفت النظر ، أن تقاليد المجتمع لا ترى في مثل هذه الممارسات إخلالاً بالشرف ، وهدماً للتقاليد السامية التي يدّعي المجتمع وجودها على لسان التقليديين من الكتاب ورجال الدين ، في الوقت الذي يحرص أصحاب الفكر التقليدي المتخلف على مهاجمة كل خطوة تحررية في المجال الاجتماعي ، خوفاً على التقاليد ، وصوناً للتراث الاجتماعي العتيد .

إن لجوء النساء للحمل بهذه الطريقة يكشف عن علامتين بارزتين في السلوك الاجتماعي في البلاد العربية عموماً . الأولى : أن الرجل بصفته العضو الأقوى في المجتمع وحامل لواء الدفاع عن الهيكل التقليدي للبيئة الاجتماعية ، يتغاضى أو يتجاهل في بعض الأحيان عن سلوك زوجته اذا كان هذا السلوك يغطي نقصاً جسمانياً لديه ، رغم تظاهره بالحرص على الشرف والمروءة والسمعة والعفاف . كما أن العرف الاجتماعي وما يعطي من أهمية مبالغ فيها للرجولة بمفهومها الجنسي ، يدفع الكثيرين من الرجال الى الإحجام عن معالجة أي عيب جسماني جنسي لديهم ، مظهرين بكل تعنّت كمالهم الجنسي ، ومفضلين إغماض أعينهم عن الوسيلة التي تلجأ اليها الزوجة للحمل . ويمثل هذا ، كما هو واضح ،

---

(١) تشير الأدلة الى أن « الشبهات » تحوم حول أماكن الزار منذ فترة طويلة . فقد قدّم الشيخ أبو العيون كشفاً بأماكن المنازل السرية بالقاهرة في ١٧/١٢/١٩٢٢ وقال « إنها غير محلات النوم والخياطة والزار ومكاتب المخدمين ... » .
أنور الجندي ، الفكر العربي المعاصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ٥٩٠ .

(٢) روز اليوسف ، العدد ٢١٩٨ ، ٢٧/٧/١٩٧٠ ، ص ٢٨ .

موقفاً براجماتيكياً متخلفاً ومنافقـــاً في نفس الوقت ، ويفضح حقيقة القيم الاجتماعية من حيث مطاطيتها وزيفها . وإمكانية استعمالها كستار لكثير من الأعمال التي يرفضها المجتمع ظاهرياً .

والعلامة الثانية : هي أن المرأة بصفتها العضو الأضعف في المجتمع والمعتمد اقتصادياً على الرجل وغير المالكة لمستقبلها إلا من خلال رضاء الرجل ، ترى نفسها مضطرة الى اللجوء الى سلوكيات تخالف ما يفترض أن تراعيه من قيَم ، كل ذلك في سبيل تحقيق ما يتوقع الرجل أن تحققه له ، ونعني بـه هنا الحمل والإنجاب ، من أجل أن تؤمن مستقبلها بالبقاء معه ، ينفق عليها ويحفظ لهـا مكانتها الاجتماعية كامرأة متزوجة ، سيدة بيت ، ولود .

ولا شك أن التقاليد الاجتماعية المتزمتة ، والقيَم الاجتماعية المزيفـــة والمتعفنة ، حين تمتزج بالجهل والخرافة والكبت الاجتماعي، تدفع أفراد المجتمع الى استخدام مختلف الوسائل ، بشكل سري وممجوج من أجل المحافظة على مظاهر مقبولة في العرف الاجتماعي، يساعدها على ذلك كون الخرافات ممتزجة بالدين مما يجعلها أكثر قبولاً في الذهن الاجتماعي .

٣ — الشيطان

لقد أشرنا سابقاً الى أن الظروف الموضوعية التي تتحكم في حياة الإنسان العربي قد جعلته يلجأ الى الخرافة عند كل أزمة نفسية أو ذهنية أو اجتماعية تصيبه ، يساعده على ذلك رصيده من الخرافة الذي تلقاه خلال طفولته ومن واقع حياته الاجتماعية. ومن المهم أن نؤكد مرة أخرى، بأن معظم الخرافات أصبحت تحمل معنى دينياً وخاصة لدى الطبقات الدنيا من المجتمع. ساعد على ذلك بالإضافة الى عوامل متعددة، سهولة العثور على آية قرآنية أو جزء منها، أو حديث نبوي، سواء بالنص أو التأويل أو بالعنعنة أو الوضع ، أو بعض القصص الديني ، الذي ابتدعه خيال الكتّاب ، أو نقلوه عن القصص الديني لدى اليهود والمسيحيين والفرس والهنود ، يستفاد منها ما يؤيد علاقة تلك الخرافـة بالدين . فكما كانت الجن مصدراً — في ذهن الجماهير — للشرور والأمراض بشكل حدَثٍ قد يتعرض له الانسان ، فإن هنالك مصدر قائم ودائم للشرور الدائمة المستمرة والتي تتحكم في كل صغيرة وكبيرة في حيـاة الانسان ، ونعني بها الشيطان .

لقد أصبح دور الشيطان عامـاً في حياة الانسان العربي ، لدرجة أن المشعوذين والمحتالين والمدعين ، لم يعد بإمكانهم الاستفادة من هـذه المسألة بحيث يقنعون العامة بأنهم سيخلصونهم من الشيطان ، كما هو الحال في الجن . لأن الخلاص من شرور الشيطان أمر غير ممكن .

ونحن هنـا لا نريد الدخول بتفاصيل نشوء أسطورة الشيطان أو ملاك الشر . فهي أسطورة قديمة ولا يختص بها شعب من الشعوب . وتمثل بداية وعي الانسان في فجر الحضارة الانسانية الى قضية الخير والشر . الأمر الذي

قاده الى الافتراض بوجود كائن ما، إله مسؤول عن الخير، وكائن ما آخر إله أو ملاك أو وحش مسؤول عن الشر. أما الشكل الخارجي للأسطورة، ونعني الصفات التي تلحق بإله الشر ولنسمّه هنا « الشيطان »، والطريقة التي يعمل بها، ومقدار قوته وجبروته، فهي تختلف من شعب الى آخر، وتتلون بطبيعة ذلك الشعب، ويأخذ التعبير عنها اتجاهاً من الاتجاهات الفنية أو الدينية التي يعبّر الشعب فيها عن قيَمه ومثله وأساطيره.

بالنسبة للشرق العربي، فقد جاء الإسلام وهو يحمل معه قصة ابليس كواحد من الملائكة المقرّبين، بل كبير الملائكة الذي أمر بالسجود لآدم فرفض وعصى أمر الخالق فغضب عليه وطرده من الجنة.

وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعين. إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال يا إبليس مالك ألاّ تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة الى يوم الدين. قال ربّ فانظرني الى يوم يُبعثون. قال فإنك من المنظرين. الى يوم الوقت المعلوم. قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلَصين[1].

ولقد ثار جدل كبير حول قضية إبليس، لدى عدد من المفكرين، مسلمين وغيرهم. فمال بعضهم الى تأييد موقف إبليس من قضية السجود لآدم باعتباره أنه قد عصى أمراً ولم يعص المشيئة. وعليه، فإن أمر الله كان أمر ابتلاء ولم يكن أمر مشيئة، فقال الحلاج في طاسين الأزل والالتباس:

قال موسى لابليس: تركت الأمر.

فأجاب إبليس: كان ذلك ابتلاء لا أمراً.

---

(١) سورة الحجر، آية ٢٨ — ٤١.

فقال له موسى : لا جرم قد غيّر صورتك .

فأجاب إبليس : يا موسى ذا وذا تلبيس والحال معوّل عليه فإنه يحول . لكن المعرفة الصحيحة كما كانت ، وما تغيّرت ، وإنّ الشخص قد تغيّر[1] .

كذلك فإن «جون مِلتون» (John Milton) الشاعر الانجليزي المشهور في القرن السابع عشر ، قد خلّد إبليس في ملحمته **الفردوس المفقود** باعتباره أول ثائر ضد السلطة والنظام القائم . وأظهر ملتون تعاطفاً واضحاً مع إبليس رغم تدينه .

على أن دفاع الحلّاج الرائع عن إبليس في كتاب **الطواسين** لم يكن كافياً لتحسين صورة إبليس في نظر العامة من الناس . فإن المرمى الفلسفي البعيد الذي حاول الحلّاج وبعض من تلاميذه أن يصلوا اليه من خلال القصة البسيطة لعدم سجود إبليس لآدم ، وبالتالي استحقاقه لعنة الله ، لم يكن ليوافق الذهنية البسيطة لعامة المسلمين ، ولم يكن في الوقت ذاته ليرضي كثيراً من فلاسفة المسلمين وخاصة أئمة السنّة . كذلك فإن النظرة الحلّاجية لإبليس تعني في حقيقتها رفع مسؤولية إبليس في إيقاع الشر بالناس وإعطائه مكانته كواحد من الملائكة الذين يستحقون التمجيد والذين خلقهم الله بيد قدرته ، وبالتالي رد الاعتبار لإبليس ، بحيث يعود كما كان يستحق أن يخاطَب بما خاطبه به الإمام المقدسي في كتابه **تفليس إبليس** :

وأنت الذي خلقك بيد قدرته ، وأطلعك على بدائع صنعته . ودعاك الى حضرة قربته . وألبسك خلع توحيده . وتوجك بتاج تقديسه وتحميده . وجعلك تجول في مجال ملائكته . يقتبسون من نورك ويستأنسون بحضورك . ويهتدون بعلمك ويقتدون بعملك[2]...

---

(١) كتاب الطواسين ، تحقيق لويس ماسينيون ، باريس ١٩١٣ ، ص ٥٢ .

(٢) الإمام عز الدين المقدسي ، تفليس ابليس ، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ، القاهرة ١٩٠٦ ، ص ١١ .

كذلك فإن هذه النظرة تثير تساؤلات كبيرة حول قضية المكر ، والذي وقع ضحيته إبليس ، ونعني به المكر الإلهي، وفيما إذا كان ينطبق هذا المكر على الإنسان مباشرة ، ومدى التناقض بين الأمر والمشيئة في نظر الإنسان ومدى إمكانية تمييزه لحقيقة الأمر والمشيئة ؛ وفيما اذا كانت أفعاله والتي يقع جزء منها في دائرة المعاصي ، هي من طراز معصية إبليس ؛ بمعنى أنها معصية يراد بها الطاعة ، أم أنها معصية للمعصية وهو مسؤول عنها، ومطلوب منه التعرف عليها . ولا شك أن النظرة الحلاجية لا توافق رجل الدين العادي، ولا توافق الحاكم بطبيعة الحال ، لأنها تضع الإنسان في موقف الحكم والخصم والمسؤولية ، عدا عن الاشكالات الدينية التي تثيرها ، سواء من حيث التبيان الفلسفي للعقيدة الدينية ، أو من حيث الشعائر ، والواجبات [1].

غير أن ما يهمنا في هذا البحث هو الدور الذي يلعبه إبليس و « زبانيته » في حياة الإنسان العربي .

إن الصورة التي ترسبت في ذهن الإنسان العربي وعلى مر القرون هي : أن الشيطان مسؤول عن كل صغيرة وكبيرة تقع للإنسان ، وأن هناك صراعاً دائماً وأبدياً بين الإنسان الذي يحاول أن يكون من عباد الله المخلصين وبين إبليس وزبانيته . وفي الواقع فإن الشيطان لم يقتصر دوره على الغواية في المسائل الدينية بل إنه يتغلغل في أعماق نسيج الذات "مربي ، بحيث يعزى إليه كل ما لا يرضى الإنسان أو المجتمع عنه . وبهذا أصبح الشيطان ستاراً تختفي وراءه كل العلل والأسباب ، وأصبح مشجباً تعلق عليه التبريرات والمعاذير ، وأصبح مستودعاً للأخطاء والهفوات ، صغيرها وكبيرها ، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الأمة . وهنا مما ساعد على إضعاف ميكانيكية التحليل في العقلية العربية، وتنمية التعليل الغيبي السائد وسهولة

(١) راجع كتاب نقد الفكر الديني ، لصادق جلال العظم ، « مأساة ابليس » ، دار الطليعة ، بيروت سنة ١٩٦٩ ، للاطلاع على تحليل حديث لمأساة إبليس في إطار الميثولوجيا الإسلامية .

مغالطة الواقع ، بالتغاضي عن حقائقه المادية وإرجاع كل شيء الى الشيطان. وما تزال الى حد كبير التصرفات الانسانية في عالمنا العربي لا يرجعها العقل العربي الى العوامل النفسية والاجتماعية والبيولوجية الصحيحة ، ولا يخضعها لقوانين صراع القوى الاجتماعية الاقتصادية ، وإنما يرجعها غالباً الى الشيطان ، ذلك الغول ، الذي يعشش في ثنايا العقلية العربية بصورة ملحة . والشيطان حسب الأفكار الدينية السائدة ، والمفاهيم الاجتماعية عنه ، له قدرات خارقة على العبث بنفوس المواطنين ، والدخول إليها وتحريكها في أي اتجاه، الى الدرجة التي يكاد الإنسان العربي يكون فيها ألعوبة الشيطان المفضلة .

ويتيح له هذا التصور عن الشيطان ، أن يجد عذراً وتبريراً لكل ما يبدر عنه من أعمال أو أفكار غير محببة أو لا يوافق عليها المجتمع . وبذلك ينفي مسؤوليته على الأقل بصورة سلبية . ولقد ساعدت الآيات والأحاديث التي وردت عن الشيطان بالتفسيرات التي أعطيت لها على تأكيد هذه الصورة الجماهيرية وصبغها بالصبغة الدينية وكأنها من حتميات الحياة .

فعلى سبيل المثال يخصص طه حسين مكاناً ثابتاً للشيطان في قلب كل إنسان :

> على أن للشيطان في قلب كل إنسان مكاناً يصغر ويكبر ويتسع ويضيق بمقدار حظه من الخير ونصيبه من رضى الله وبره به ... ولكن هذا المكان موجود دائماً في قلوب الناس يبتلون به فيما يأتون من الأمر وما يدعون[1] .

حتى الاجتهاد في الدين، وإيثار الخير والمعروف، لا يمكن الإنسان العادي، كما يراه طه حسين ، من أن يزيل الشيطان من مكانه . وما لم يكن الإنسان نبياً أو صدّيقاً أو قديساً ، فإنه واقع في مكر الشيطان لا محالة :

> وقد اجتهد خالد في الدين ما وسعه الاجتهاد ، وآثر الخير

---

(١) طه حسين ، شجرة البؤس ، ص ٣٦ .

والمعروف ما استطاع ، ولكن كان الشيطان ما زال مستقراً في قلبه لأنه لا يزول إلا من قلوب الأنبياء والصدّيقين[1].

ولقد تفنن كثير من الكتاب في وصف مكر الشيطـان ودهائه وطريقة تنكره واستخفائه ، لدرجة لا يستطيع الإنسان العادي العربي أن يكتشف أين يكن له الشيطان وكيف ؟ فالشيطان هو المرأة والمرأة هي الشيطان أو الجسر إليه ، والطعام يغري به الشيطان ، واللذات يغري بها الشيطان ، الى آخر القائمة من المغريات .

والشيطان ماكر ماهر في المكر يحسن الاستخفاء بمكره وغدره ، ويبرع حين يلبس الحق بالباطل ، وحين يزين الشر في قلوب الناس ، وحين يخدع الرجل عن نفسه وعن أحب الناس وآثرهم عنده[2].

حتى الأطفال الصغار الأبرياء يحلو للشيطان أن يعبث بهم ، يُغَيِّر أشكالهم ويبدلها بحيث يراهم الكبار كما يريدهم الشيطان .

.. فلا تكاد الصبية تبتسم إلا غشي (الشيطان) ابتسامتها البريئة الحلوة بتقلصه المنكر البغيض ... ولا تكاد الصبية تقطب وجهها .. إلا اتخذ الشيطان أبشع ما يؤذن له أن يتخذه من صور وعرضه دون وجه الصبية ، فتقع عليه عين خالد (أبيها) ...

ومع هذا لا بد للإنسان أن يدافع عن نفسه إزاء هجوم الشيطان، وذلك باللجوء الى آيات قرآنية . فخالد

يتلو آية الكرسي ... يحصن نفسه من هذا الروع المروع الذي أشاعه الشيطان في قلبه .

فيفزع الشيطان

حين يسمع الحروف الاولى من هذه الآية .

---

(١) طه حسين ، شجرة البؤس ، ص ٣٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٦ .

ويهرب الشيطان وينسل
فزعاً مذعوراً .
ولكن خالد لا يستريح لأن الشيطان يعود إليه مرة ثانية ، ذلك أن
فزع الشيطان قصير الأجل ، وحيلة الشيطان طويلة المدى[1] .
ويتجه الشيطان الى سميحة الجميلة ، الإبنة الثانية لخالد فيدفعها الى أبيها، وحين يتأمل خالد دمامة ابنته الاولى وجمال ابنته الثانية ودمامة زوجته نفيسة يأخذ المصحف ويفزع إليه ،
بعد أن يستعيذ من الشيطان الرجيم . وكذلك كانت حياة خالد عذاباً متصلاً بين ابنتيه وزوجه، يدفعه إليهن الحب والبر والعطف، ويصرفه عنهن الشيطان بما يتنكر من صور وما يزين في قلبه من شر[2] .
والشيطان تمتد قدراته ليس الى الفرد فقط ، وإنما تشمل مجموعة الناس ، ويتحكم في أحاديثهم بالإضافة الى أفعالهم . ففي القرية التي يصفها طه حسين،
كان الشيطان يألف أصدقاء خالد وأترابه . وما أكثر ما يألف الشيطان من الناس . وكان يطلق ألسنتهم بكثير من القول[3].
ولم يترك الشيطان نفيسة زوجة خالد ، إذ لم
يكن عبث الشيطان بنفيسة أقل من عبثه بخالد ، ولكنه كان من نوع آخر ... كان الشيطان يتبع نفيسة ، حيثما وجهت من دارها ، فلا تكاد تلقى زوجها حتى يصوره الشيطان لها منصرفاً عنها ... ولا تكاد تسمع صوت زوجها حتى يخيل الشيطان اليها أن هذا الصوت يقطر بغضاً لها ونفوراً منها[4].

---

(١) طه حسين ، شجرة البؤس ، ص ٣٧ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٨ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

أمـا حين تصاب نفيسة بانهيار عصبي وتوشك أن تلقي بنفسها في التنور يقول زوجها خالد معللاً ما أصابها :

أحسب أن طائفاً من الشيطان قد مسّها [1].

وهكذا لا يدع طه حسين صفحة تمر دون أن يرجع الأمر بصورة أو بأخرى الى الشيطان ، حتى يكاد يخيل للقارىء أن الشيطان لم يدع طه حسين يكتب صفحة إلا وقفز إليها . وواقع الأمر أن هناك صراعاً عادياً (بمعنى أنه من طبيعة الصراعات الحياتية المألوفة) كان يدور في نفس خالد بين أن يبقى مع زوجته « القبيحة جداً » وبين أن يتركها ويتزوج بغيرها أو عليها . ونتيجة لشعور زوجته بدمامتها وشعورها بنفور زوجها منها ، وخوفها من أن يتزوج عليها أو يهجرها ساءت حالتها النفسية وأصابهـا انهيار عصبي . وهكذا نرى أنه شعور إنساني طبيعي جداً وعادي تمامـاً ، لا يحتاج الى شيطان ماهر ماكر يعبث بهذا وذاك . فقد كان حرص خالد على ابنتيه ورضاء أبويه ورغبته في إبقاء الأوضاع على ما هي ، وشفقته على زوجتـه الدميمة ، وإطاعته لأوامر شيخ الطريقة بأن يتزوج نفيسة ، كل ذلك يدفعه الى الإبقاء عليها ، بينما يناقض ذلك شعوره بالنفور منهـا واتجاهه الى البحث عن أخرى سواء في الواقع أو الخيـال . ولكن تحويل طه حسين لعناصر الصراع على أنها من مكر الشيطان وألاعيبه أفقد الإنسان دوره كإنسان يحب ويكره ويرغب وينفر ، وأفقده واقعيته من حيث أنه إنسان تحكم تصرفاته طبيعة الوقائع والأشكال المادية ، ويتحكم في إقباله ونفوره مستوى تذوقه الجمالي والجواذب الجنسية وغيرها . كذلك أفقده صفته وكينونته كصاحب مشكلة ، عليه مواجهتها بنفسه ، وإيجاد حل لها . بل إن الأحاديث العادية التي تدور على ألسنة الشباب تحولت الى شيء من عمل الشيطـان . وبهذه الصورة تتحوّل الحياة بما فيهـا من أحداث الى سلسلة مأساوية يقوم الشيطان بإخراجهـا ويكون الإنسان ممثلاً فقط دون أن يعرف طبيعة الدور الذي يقوم به .

---

(١) طه حسين ، شجرة البؤس ، ص ٤٣ .

فإذا أضفنا الى فكرة تحكم الشيطان وإغوائه للإنسان النظرة الجبرية التي لها جذور ما تزال قوية في عقلية الإنسان العربي ونفسيته ، نجد أن الانسان قد تحول الى دمية تحركها الأقدار من جهة ويعبث بها الشيطان من جهة أخرى . وهي عاجزة عن رد الأقدار وضعيفة أمامها ، وغير مستطيعة أن تكتشف مكر الشيطان ودهاءه . وهكذا فإن الانسان مهما كانت ظروف حياته لا بد وأن يكون ضحية : إما للقدر أو للشيطان. الأمر الذي يستحق البكاء ويبعث على التشاؤم . فإذا اتسعت هذه النظرة لتشمل الأمة بأسرها فإن العقلية الاجتماعية تصبح مستعدة لتقبل أي خطأ أو تقصير على أنه من فعل الشيطان أو من غضب الله ؛ وفي نفس الوقت تتيح الفرصة للفئة الحاكمة والمتحالفة معها أن تعمق تحكمها في الجماهير بالاستفادة من النظرة الجبرية وعبث الشيطان وإغوائه .

إن قاموس التعابير اليومية التي يستعملها الإنسان العربي مليئة بكلمة شيطان فهو « عليه اللعنة » في كل زمان ومكان . يلعنه اذا تأخر عن موعد ويلعنه إذا أساء التصرف ، ويلعنه اذا أخطأ ، ويلعنه اذا نسي ، ويلعنه اذا تخاصم مع شخص آخر ، ويلعنه اذا استعمل نابي الكلام ، ويلعنه اذا خطرت بباله فكرة ما يخجل أن يعلنها ، ويلعنه اذا تخاصم حاكم عربي وآخر ، ويلعنه بسبب وغير سبب . كل ذلك لكي يداري القصور الذي يبدر منه .

لقد تخيل توفيق الحكيم في قصته « الشهيد » أن الشيطان قد قرر أن يتوب الى ربه . فذهب الى شيخ الأزهر ليتوب على يديه ويطلب إرشاده في الدين . وقال إبليس لشيخ الأزهر الذي بدا على وجهه الإستغراب :

..... وأريد أن أدخل في دينه خالصاً مخلصاً ، وأن أسلم ويحسن إسلامي وأكون نعم القدوة للمهتدين .

وتأمل شيخ الأزهر العواقب ، لو أسلم الشيطان ، فكيف يُتلى القرآن ؟ هل يمضي الناس في قولهم : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟! » لو تقرر إلغاء ذلك لاستتبع الأمر إلغاء أكثر آيات القرآن .. فإن لعن الشيطان والتحذير من عمله ورجسه ووسوسته لما يشغل من كتاب الله قدراً عظيماً ..

كيف يستطيع شيخ الأزهر أن يقبل إسلام الشيطان دون أن يمس بذلك كيان الإسلام كله ؟! [1] ثم يخبر شيخ الأزهر إبليس بأن هـــذا الأمر ليس من اختصاصه ولا يستطيع أن يضع يده في يد إبليس حتى لو أسلم، فيتساءل إبليس :

الى مَن ألجـه إذاً ؟ ألستم رؤساء الدين ؟ كيف أصل الى الله إذاً ؟...

وحين يذهب إبليس الى جبريل بعد أن ييئس من شيخ الأزهر، علم من جبريل أنه يجب أن يبقى كما هو وإلا

... فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة ... ولا للحـــق بغير الباطل... ولا للطيب بغير الخبيث ... وجودك ضروري في الأرض مـــا بقيت الأرض مهبطاً لتلك الصفات العليا التي أسبغها الله على بني الانسان ! [2] .

ثم يدرك إبليس أن وجوده ضروري لوجود الخير ذاته، وأنه ُكتب عليه أن يحب الله ومع هذا ُيلعَن أبد الدهر، في الوقت الذي ينال الملائكة العطف من الله والحمد من الناس . وأن حب إبليس لله يقتضيه الرضـــا بارتداء ثوب العصيان والظهور مظهر المتمرد على الله .

وبكى إبليس...وترك السماء مذعناً..وهبط الأرض مستسلماً...
ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهـــو يخترق الفضاء ...
رددت صداها النجوم والأجرام ...
إني شهيد ، إني شهيد ...[3]

ليس من الصعب علينا أن نتعرّف على معـــالم حلاجية في الصورة التي اقتبسناها عن توفيق الحكيم والتي تؤكد أن إبليس ضحية الى الأبد ... حتى

---

(١) توفيق الحكيم ، « الشهيد » ، عن نقد الفكر الديني ، صـــادق جلال العظم ، ص ١٢٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

أنه لا يستطيع أن يتوب . فهو شهيد قضاء الله عليه . وكأنه قد حكم عليه عامداً ومتعمداً بهذه الكيفية، حتى يثبت للإنسان ألوهية الله. وأطاع إبليس ذلك وهو يعلم أنه رغم اللعنات التي تكال عليه فهو يحقق إرادة الله .

غير أن ما يهمنا هنا هو تأثير مفهوم إبليس في نمط التفكير العربي أو في العقلية العربية عموماً . فلم يكتف العقل الجماهيري بأخذ مفهوم الشيطان ليكون مقصوراً على الشر في المفهوم الديني ، ولم يكتف بأن قبل إبليس وأعوانه كمجموعة من الجن ، بل تداخل الأمر الى الحد الذي لم يعد بالإمكان معه تمييز إبليس من لا إبليس ، أو تمييز الجن من الإنس .

إن الصورة التي رسمها الدين والأساطير الشعبية المتوارثة لإبليس، لا تضع له تحديداً مكانياً أو زمانياً ، ولا تضع حداً لقوته . وبالكاد ينجو من غوايته سوى العباد المخلصين . ولأن مكره ومكائده تأخذ كل شكل وكل لون ، ويتلبس بما شاء له أن يتلبس ، أو بصورة أصح ، بما وسع خيال الإنسان أن يتخيل . قد تلبس، فقد أصبح من الصعب في كثير من الحالات على الإنسان العادي أن يحكم فيما اذا كان ما يراه هو فعلاً من صنع إبليس –بالمفهوم الخرافي– أو من صنع غيره . وباستثناء الحالات التي يكون فيها الخير خيراً ظاهراً ومؤكداً، والشر شراً ظاهراً ومؤكداً[1] بصورة لا تحتمل الشك أو التأويل، وهي حالات قليلة جداً ، فإن المعيار الأخلاقي – بالمفهوم الديني – يصبح غير ذي نفع للحكم على الأشياء ، إما لأنها تنسب الى الله اذا روي فيها الخير مهما كان ظاهرها سيئاً أو شريراً ، أو تنسب الى الشيطان ، مهما كان ظاهرها خيراً أو جيداً ، وحقيقتها سيئة وشريرة . ويتلون المعيار الأخلاقي هنا ويتغير ، حسب المصالح والظروف الفردية والاجتماعية، متأثراً تأثراً أساسيا بالعوامل الاقتصادية والسياسية المتحكمة . فإذا أضفنا الى ذلك مكر الله ، نجد أن الانسان العربي واقع دائماً في موقف غاية في الحرج لا يستطيع له

(١) حتى مثل هذه المسائل غير محددة حسب أصول الفلسفة الدينية . مثال ذلك قصة النبي موسى مع الخضر كما وردت في القرآن .

تعليلاً ولا لمسبباته تفسيراً . فكل من لا يرضى عن شيء ينسبه الى الشيطان وكل من يرى شيئاً مظهره حسن على من لا يحب ، ينسبه الى مكر الله .

يصور هذا الموقف الذهني وانعكاسه على الوقائع العملية بدقة الدكتور ابراهيم بدران في مسرحيته القضية رقم ١٣٨٧ حيث يقوم بطل المسرحية السيد يحيى عبد الله الرفاعي بذبح ابنته البالغة من العمر تسعة أعوام وذلك على أثر «رؤيا» يعتقد فيها أن جبريل قد أصدر اليه أمراً من الله بذبح ابنته. ولما كان يحيى رجلاً متديناً، وله نزعات صوفية فقد أطاع الأمر وذبح ابنته. وحين يقدم للمحاكمة يختلف الشهود فيما بينهم ويختلف الإدعاء بطبيعة الحال معهم حول حقيقة الرؤيا ومسؤولية القاتل عما ارتكبه تجاه ابنته . فبينما يوضح المتهم لرئيس المحكمة موقفه بقوله :

المتهم : كان يزورني جبريل عليه السلام ليلة الجمعة .. وفي المرة الأخيرة زارني ليلة الاثنين .. يبدو اني تباطأت في ما طلب، أو ربما لأنها ليلة مولد السيد المختار .. وهو يخاطبني بصوت آمر فيه الثقة والقوة .. نعم جبريل ، إليه مني سلام .

نجد رئيس المحكمة يسأل المتهم باستغراب :

رئيس المحكمة : وكيف عرفت أنه جبريل؟ لماذا لا يكون ملاكاً آخر مثلاً؟

المتهم : أنبأني بذلك .. عرّفني بنفسه . قال إنه ينقل لي أمراً من صاحب الأمر .

. . . .

رئيس المحكمة : ولماذا لم تعرض نفسك على طبيب أو اخصائي ؟

المتهم : لست مريضاً .. إنه لأمر عجيب !! عبد يرى واحداً من رسل مولاه ، أيحتاج الى طبيب ؟ لا حول ولا قوة إلا بالقوي .. لقد اتهم الناس الأنبياء بالجنون فلماذا لا أتهم بذلك ؟ (١)

---

(١) د. ابراهيم بدران ، القضية رقم ١٣٨٧ ، دار العربي ، دمشق ، سنة ١٩٧٤ ، الفصل الأول ، المشهد الأول .

ولكن الدفاع يحذر المحكمة من التسرع بالحكم على المتهم ويؤكد بأن المحكمة هي في حالة إمتحان إلهي وأن :

المهم في قضية موكلي ليس ما حدث .. وإنما كونها مقدمة لما سوف يحدث ..

لم يرتكب موكلي أيها السادة ، فعلته بدافع إجرامي كما أشار الإدعاء العام تسرعاً واستعجالاً وإنما فعل ما فعل تلبية لأمر من الله.. لماذا ؟ لا أحد يدري ما هي الحكمة الوقتية وراء ذلك .. لا يدري موكلي ولا أدري أنا .. ولا أظنكم أيها السادة في موقف يتيح لكم العلم بنوايا الخالق ! أو غايته من امتحان عباده [1] .

أما الشاهد الثاني الدكتور طه عبدالسميع مرتجى الاستاذ في كلية الشريعة، فإنه يرى أن الخير يفعله الإنسان بإلهام من الله ، والشر بتحريض من إبليس . فإذا استجاب له حق عليه العقاب وخرج عن إيمانه. وهو لا يرى أن الله يأمر بالقتل ، ويؤكد للمحكمة ذلك بقوله :

الشاهد مرتجى: ما هذا الخلط أيها القاضي؟ الملاك شيء والشيطان شيء آخر.. شيئان مختلفان تماماً .. أيها السادة ! لقد شبّه له ذلك !! إنه تلبيس إبليس ! يأخذ صورة الملاك الطاهر والصديق والصدوق والناصح الأمين [2] ..

. . . .

ولكنه ينصح بالشر دائماً .. اني أشفق على المتهم لأنه وقع ضحية لتغرير الشيطان به .. تخيلوا معي أيها السادة هذه الصورة :

في سعي إبليس وجنده لإفساد الأرض..وجدوا في هذا الرجل ضعفاً ما .. لا نستطيع أن نحدده تماماً .. استغلوا إيمانه بالله

(١) د. ابراهيم بدران ، القضية رقم ١٣٨٧ ، دار العربي ، دمشق ، سنة ١٩٧٤ ، الفصل الأول .

(٢) نفس المصدر ، الفصل الثاني ، المشهد الأول .

واستعداده لتلبية أوامره ، فنفذوا اليه .. تنكر أحـــد جنود إبليس في صورة ملاك.. وأوعز الى الرجل أن يقتل ابنته ليزداد تقرباً الى الله تعالى لأن هذه إرادته .. لجأ الجندي الماكر الى هذا الأسلوب بدهاء مستفيداً من أن الله قـد سبق وأوحى الى نبيّه ابراهيم بما يشبه ذلك .. وثابر الشيطان على تنكره وتحريفه حتى تمّ له ما أراد .. وكم من المؤمنين أزاغهم الشيطان .

يعبّر المتهم عـن حيرته واستنكاره لقول الشاهد وإجراءات المحكمة بأن يصرخ :

المتهم : زور.. زور.. إنها شهادة زور . قاضٍ لا يعرف .. يسأل شاهداً لا يرى .. عن شيء لا يُرى .. إصبر، إصبر، إصبر يا يحيى[1].

ويكشف الحوار في المسرحية عن أن الشاهد لا يستطيع تقديم إجـابة مقنعة للإدعاء العام عن كيفية التفريق بين الشيطان والملاك وبالتـالي تحديد المسؤولية عن أفعال الانسان . .

أما الشاهد الثالث في المسرحية وهو الشيخ البهي ناصر الدين بحر العلوم ، شيخ زاوية الإمام المرابط ، فإنه يؤكد انطلاقاً من إيمانه بأنه مصدق لادعاء صديقه يحيى بأن ما فعل كان تنفيذاً لأمر أوحى الله به اليه مستنداً الى أن القاتل من العارفين بالله ، وقد أقسم على ذلك . فيقول :

الشاهد : نعم .. فإن قسم العارف بالله حجة .

الادعاء : وهل أنت متأكد يقيناً بذلك يا شيخ بحر العلوم ؟

الشاهد : إني مصدق بما يقول .. اليقين له .. والتصديق لنا !

. . . .

الادعاء : ولِمَ لا تفترض أن الشيطان قد تسلّط عليه مثلاً .. وزيّن له تلك الفعلة ؟

---

(١) د. ابراهيم بدران ، القضية رقم ١٢٨٧ ، دار العربي ، دمشق ، سنة ١٩٧٤ ، الفصل الثاني ، المشهد الأول .

الشاهد: ولماذا أفترض ذلك ؟.. فإن الإيمان درع المؤمن ، يمنع عنه كيد الشيطان ويحميه من شروره .. ويحيى عبد الله الرفاعي مؤمن .. لقد وعدنا الله بهذه الحماية منذ الخليقة ومنحنا المنعة منذ الأزل.. إنـــه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .. ولم أعرف عن يحيى أنه مشرك بالله تعالى أو متخذاً الشيطان ولياً.. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون .

. . . .

الادعاء: وكيف تفسر موقف الشاهد الثاني (الاستاذ مرتجى) وهو مؤمن أيضاً ، والذي يقول بأن تلك الفعلة من الشيطان ؟

الشاهد: .. لا أدري تماماً ما دفعه الى ذلك .. ولا استبعد أن يكون الأمر قد التبس عليه .. لا أتهمه في نواياه ؟ فإن النوايا من أسرار خالقها .. ولكن معرفـــة الله ليس بالأمر اليسير يا إخوتي .. ولا يغرّنكم المظهر .. فكم من أوليـــاء الله كانوا لا يثيرون لدى الناس اهتماماً .. يظنون بهم الجهل .. أو البله وحتى الجنون .. ولكن ربك يلهم من يشاء .

الادعاء: تعني أن التلبيس لم يكن على المتهم ، بل على الشـــاهد نفسه يا شيخ ؟

الشاهد: ليس ذلك تماماً .. قـد يكون الشاهد (مرتجى) المذكور ومن يرى برأيه .. والله أعلم ، قد التبس عليهم الأمر فلم يستطيعوا إدراك المغزى .. ولم يفهموا الإشارة . وهـذا أمر ليس بغريب مهما كانت درجاتهم في الحياة الدنيـــا .. ومهما كان علمهم .. ألم يستنكر موسى ؟؟ [1] (استنكار موسى لأفعال الخضر كما جاء في القصة القرآنية) .

---

(١) د. ابراهيم بدران ، القضية رقم ١٣٨٧ ، دار العربي ، دمشق ، سنة ١٩٧٤ ، الفصل الثاني ، المشهد الثاني .

وهكذا نجد أن أحداً من الشخصيات المسرحية لم يستطع أن يقنع الآخرين بالترجمة العملية لدور إبليس أو دور الملاك في حياة الانسان وأن مثل هـذا الافتراض (تحريض الشيطان .. الخ) لا يعدو أن يكون قيداً ذهنياً في عقل الانسان يمنعه عن الانطلاق في التحليل والاستنتاج وأن المعيـار الأخلاقي في هذه الحالة يكون غير قابل للتحديد إذ كما يقول الادعاء في مرافعته الأخيرة في نفس المسرحية :

إن الملائكة أو الشياطين لا عدد لها كما يقولون .. فإذا أرجع كل مجرم عمله الى شيطان أو ملاك..والاحتمال قائم حسب منطق الدفاع.. فمعنى هذا أن تنتفي مسؤولية الانسان عن عمله وتصبح الأرض مسرحاً لعراك لا ينتهي بين الملائكة والشياطين .. والنـــاس ضحايا لهذا العراك .. [(١)]

. . . .

إن الصورة التي رسمها طه حسين لتغلغل الشيطان في نفس الإنسان كما هو الحال في خالد بطل رواية شجرة البؤس ، ليست بالصورة الجديدة في الذهن العربي ، بل إنها بعناصرها تعتمل في عقلية الإنسان العربي منذ أكثر من ألف عام . ولقد تعرض عدد من علماء المسلمين وفقهائهم الأقدمين على مر العصور المختلفة لشخصية إبليس ودَوْره في إفساد الإنسان وإغوائه ، والتلبيس عليه. حتى أن الإمام أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المتوفى في أواخر القرن السادس الهجري (٥٠٨ – ٥٩٦) ألّف كتاباً خاصاً في هذا المعنى سماه تلبيس إبليس. أفرد فيه ابن الجوزي أبواباً وفصولاً موسّعة يحذر فيها من فتن إبليس ومكايده (البـاب الثالث) . واشتمل الكتاب على أخبار متفرقة لإبليس وقصصه مع الأنبياء ابتداء من نوح وحتى النبي محمد ، حيث روى أن عائشة شعرت بالغيرة لأن النبي خرج من عندها ليلاً فلما سألها :

---

(١) د. ابراهيم بدران ، القضية رقم ١٢٨٧ ، دار العربي ، دمشق ، سنة ١٩٧٤ ، الفصل الثالث .

مالك يا عائشة أغرتِ ؟ فقلتُ (عائشة) : ومالي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال : أو قد جاءك شيطانك ، قلت : يا رسول الله أو معي شيطان ؟ قال : نعم ، قلت: ومع كل إنسان ؟ قال : نعم، قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربي عز وجل أعانني عليه حتى أسلم[1].

ثم يعدّد ابن الجوزي أشكال تلبيس إبليس على أهل العقائد والديانات ، وعلى الفرق الإسلامية المختلفة وعلى النصارى وعلى اليهود والصابئة والمجوس والمنجّمين . وتلبيسه على العلماء وعلى أصحاب الحديث وعلى المكثرين من روايته . وعلى الفقهاء وعلى الوعاظ والقصاص ، وعلى أهل اللغة والأدب ، وعلى الشعراء وعلى المتكلمين من العلماء ، وعلى الولاة والسلاطين، وعلى العباد في العبادات. وتلبيسه عليهم في الصلاة والوسوسة في النية والتكبير، وتلبيسه على المتعبدين في صلاة الليل، وتلبيسه عليهم في قراءة القرآن، وتلبيسه عليهم في الصوم والحج ، وتلبيسه على الزهاد والعباد ، وتلبيسه على الصوفية ، وتلبيسه عليهم في المساكن وبناء الأربطة ، ولباسهم المرقعات والفوط ، والترسم والتنعم ، وتلبيسه عليهم في المطعم والمشرب ، وفي السماع والرقص والوجد ، وتلبيسه عليهم في صحبة الأحداث ، وفي ادعاء التوكل وقطع الأسباب ، وترك التداوي وترك الجمعة والجماعة ، وتلبيسه عليهم في التخشع ، وفي ترك النكاح وترك طلب الأولاد ، وتلبيسه عليهمُ في طلب الأسفار والسياحة ، وفي تركهم التشاغل بالعلم ، وتلبيسه على المتدينين بما يشبه الكرامات، وتلبيسه على العوام في التفكير بذات الله ، وفي مخالفتهم العلماء، وتلبيسه عليهم في مجالس الذكر ، وتلبيسه عليهم في الأموال والصدقة وفي الجريان مع العادات، ثم تلبيسه على النساء. وأخيراً تلبيسه على الناس أجمعين بطول الأمل[2] .

---

(١) أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي البغدادي، تلبيس ابليس، تحقيق خيرالدين علي، دار الوعي العربي ، بيروت ، لبنان ، ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٨ — ٤٩ .

ويصف ابن الجوزي معالجة إبليس للإنسان بعبارات لا تدع مجالاً لشك بأن أحداً لن يأمن من شره . وهو (ابن الجوزي) يقسم القلب الى أقسام : جزء خاص بالملائكة وآخر بالشياطين ، فيقول :

واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحصن سور، وللسور أبواب وفيه ثُلم ، وساكنه العقل ، والملائكة تتردد الى ذلك الحصن ، والى جانبه رَبَض فيه الهوى والشياطين. تختلف الى ذلك الربض من غير مانع . والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض ، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن ، تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم . فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكل بحفظه وجميع الثلم وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة ، فإن العدو ما يفتر .

قال رجل للحسن البصري: أينام إبليس؟ قال: لو نام لوجدنا راحة...

أول ما يفعل الشيطان في الربض إكثار الدخان فتسودّ حيطان الحصن ، وتصدأ المرآة .

قال بعض السلف : ربما هجم الشيطان على الذكي الفطن ومعه عروس الهوى قد جلاها فيتشاغل الفطن بالنظر اليها فيستأسره[1] .

ومرة أخرى نلاحظ أن الصورة التي رسمها ابن الجوزي لإبليس لا تعطي للإنسان فرصة لأن يرى نفسه مسؤولاً ومستقلاً في مسؤوليته إزاء ما يفعله من خير أو شر ، ويحيل الانسان الى كائن ضعيف بالكاد أن ينجو لحظة من ألاعيب إبليس ، فإن إبليس لا ينام .

وهكذا نرى أن العقلية العربية قد حافظت على مر العصور على صورة خيالية لإبليس وأعوانه وأمدتهم بكل وسيلة من وسائل التسلط والغواية والقوة والمثابرة والاستمرار . فالشيطان كما بيَّن النبي في حديث له :

---

(١) أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي البغدادي، تلبيس ابليس، تحقيق خيرالدين علي، دار الوعي العربي ، بيروت ، لبنان ، ص ٤٨ – ٤٩ .

« يجري من بني آدم مجرى الدم » (الحديث ورد في الصحيحين ومأخوذ عن ابن الجوزي ، ص ٤٥) .

وكما قال الحجاج بعد ذلك بأقل من قرن أن الشيطان :

« أفضى الى الأمخاخ والأصماخ » .

ثم احتل « جزءاً من القلب وأقام مربضاً فيه » ، كما عند ابن الجوزي بعد ذلك بخمسة قرون .

واستمر في احتلاله لقلب الإنسان العربي الى القرن العشرين ، كما وضح طه حسين في شجرة البؤس .

وأصبح الشيطان رمزاً لعجز الإنسان العربي والإنسان عموماً بطبيعة الحال حسب النظرة الدينية التقليدية . يعبّر العقاد عن هذه النظرة بقوله :

فإنما وظيفة الشيطان أن يثبت عجز الإنسان أمام الغواية والفتنة ، وأن يمتحن مشيئته وهو يتردد بين الخير والشر ، والمباح والحرام[1] .

وقد فات العقاد ومن ينتهج نهجه أن يدرك أن سلوكيات الإنسان محكومة بتكوينه وواقعه وبيئته وتطلعاته المادية والفكرية وأن المسألة ليست مسألة غواية شيطانية تدفع الإنسان لشهوة أو طلب غير نابع من ذات الطبيعة الإنسانية .

إن هذه النظرة ، نظرة العقاد ، تفصل جذرياً ما بين الإنسان وبين مطالبه وتطلعاته ، والتي هي متغيرة ومتطورة بطبيعة الحال ، وتشيع في روح الإنسان العادي المؤمن بمثل هذه الفكرة شعوراً بالذنب والمجاهدة غير المبررة ، بالإضافة الى الروح التبريرية التي تسند ما يقوم به الى عمل إبليس . كذلك فهي تنشيء هوّة بين متطلبات وطبيعة الحياة الإنسانية وبين القيم الأخلاقية التي يسمى الإنسان في مسيرته نحو الرقي أن يدعّمها . ففي الوقت الذي يجب أن تكون فيه القيم الأخلاقية معبّرة عن تطلع الإنسان نحو الرقي ضمن المجموعة البشرية دون أن يكون ذلك على حساب قهر المطالب الإنسانية (وهذا لا يمنعها من

(١) عباس محمود العقاد ، ابليس ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص ٩ .

تنظيمها) نرى أن المفهوم الأسطوري للشيطان يغفل ذلك كله ويحيل القيم الأخلاقية في نظر الإنسان الفرد الى مجموعة من الممارسات التي يفترض فيها أنه يعادي الشيطان دون أن تكون لهذه الممارسات في كثير من الأحيان صلة حية وإيجابية بالواقع الذي يحياه الإنسان ، الأمر الذي يترتب عليه انفصام بين واقع المجتمع وأخلاقه المثالية . وينتج عن ذلك ازدواج في الأخلاقيات : إحداها الأخلاقيات العملية ، ونعني بها النابعة عن صميم الواقع الاقتصادي والاجتماعي بعلاقاتها الديناميكية والجدلية بين الفرد والمجتمع ؛ والثانية الأخلاقيات المثالية غير الموجودة والتي لا يمكن أن توجد بحكم التركيب المادي للمجتمع .

ولعل هذا يفسر الهوّة الضخمة بين الأخلاقيات العملية للمجتمع العربي عموماً (والتي تفتقر في كثير من الأحيان الى مزايا وخصائص قد تتوفر بصورة أوضح لدى عـــدد من الشعوب المتقدمة كالصدق في التعامل ، والتسامح ، والأمانة ، والوفاء ، والالتزام ، والتضحية ، واللطف وحب الخير للمجموعة واحترام حرية الآخرين) هـــذه الأخلاقيات النابعة عن واقع المجتمع العربي بكل ما فيه من تخلّف في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، وتخلّف فكري وعلمي وبين الأخلاقيات المثالية التي يتحدث عنها المواطن العربي ولا يمارسها مثل الشجاعة ، والكرم ، والإيثار والوفاء .. الخ .

ومن ناحية أخرى فإن مفهوم الشيطان، من الناحية الايديولوجية ، وبحكم حالة الجهل والتخلف التي عاشها الوطن العربي خلال القرون الماضية، كان من تأثير هـــذا المفهوم أن ساعد الى حد كبير ، وما زال كذلك ، في تعطيل ميكانيكية العقل العربي من حيث صرفـــه عن تقصي الأسباب والبحث عن العلل ، سواء كان الموضوع يتعلق بالفرد أو العائلة أو المجتمع . وسواء كان الموضوع سيكولوجياً أو علمياً أو تكنولوجياً .

إن الشيطان بأعماله ومكايده وحيله وأفانينه يقـدم للعقل العربي تفسيراً ساذجاً وجاهزاً لكل ما لا يعجبه وما لا يحبه وما لا يعرفه . فحين قامت مجموعة من العلماء الفرنسيين الذين رافقوا حملة نابليون بونابرت في نهاية القرن

الثامن عشر يعرض بعض من التجارب الكيميائية أمام نفر من علماء الأزهر دهش علماء المسلمين بما رأوا ولم يجدوا تفسيراً،حسب ما رواه الجبرتي في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار إلا أن يرجعوا تلك « التجارب » الى الشيطان أو الجن [١] .

أما علي مبارك فيخبرنا في الخطط التوفيقية أن إدخال المطبعة العربية الى مصر على يد الفرنسيين قد ووجه بمعارضة كبيرة من العلماء المسلمين باعتبار أن المطبعة من عمل الشيطان [٢] . ولم يختلف الحال في عاصمة الدولة العثمانية الآستانة التي عرفت الطباعة في أوائل القرن السادس عشر ، ولكن الطباعة بالأحرف العربية لاقت مقاومة وتردداً شديدين لنفس الأسباب، ولم يشرع في الطبع إلا بعد أن أفتى شيخ الإسلام بجواز ذلك في الثلث الأول من القرن الثامن عشر . وهكذا حرمت عاصمة كالآستانة الاستفادة من مطبعة عربية مدة قرنين من الزمن [٣] .

وما تزال كثير من القصص تدور على ألسنة الناس عن التفسيرات الشيطانية التي كان يبتدعها الإمام يحيى في اليمن لكل آلة أو اختراع حديث ، وذلك لكي يمنع إدخالها اليمن أو تعميمها على المواطنين حتى يحافظ على مكانته « السامية » ويمنع التقدم والوعي عن الجماهير .

وكذلك فإن الخلافات بين الأفراد وبين الزوج وزوجته تفسر أحياناً على أن الشيطان قد « لعب بعقل » أحد الأطراف وبذلك يكتفى بهذا التفسير عن الدخول في تفاصيل الموضوع والبحث عن أسبابه الحقيقية . بل لقد استخدم المتزمتون من السلفيين الشيطان لمنع أشكال التعبير الأدبي الجديد التي لم تكن معروفة من قبل . فلم يحاول نقاد الأدب في أوائل هذا القرن، أن

---

(١) عبدالرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة سنة ١٨٧٩ ، الجزء الثالث ، ص ٣٦ .

(٢) علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، القاهرة سنة ١٨٨٨ ، جزء ١٣ ، ص ٥٥ .

(٣) جودت ، تاريخ جودت ، ترجمة عبد القادر الدنا ، الجزء الأول ، بيروت سنة ١٣٠٨ هـ .

يدرسوا الأسباب المادية والفنية التي أدت الى ظهور أشكال للأدب في أوربا ، تختلف عما هو معروف في الوطن العربي ، بل كان لهم موقف آخر ، يصور موقف هؤلاء « النقاد » وينقدهم بسخرية الكاتب المصري « فتحي غانم » حين يقول :

القصة (في نظر أولئك النقاد) فتنة يهمس بها الشيطان . كاتب القصة ومؤلف الروايات كافر بالله ! القصة دسيسة استعمارية ، أجنبية أدخلها الغربيون في بلادنا لإفساد العقول وتقويض أركان اللغة العربية : لغة القرآن الكريم المقدسة [1] .

.... فلما بدأ بعض الكتّاب – أغلبهم من الشام – يؤلفون القصص والروايات الافرنجية قامت القيامة . وثار القادة المفكرون على هذه الفتنة ... تماماً كما ثاروا على بدعة التلفون ، والسيارة والسفور واختلاط الجنسين [2] .

إن سيطرة مفهوم الشيطان على العقل العربي أدى ويؤدي بالضرورة الى فصل الانسان من حيث تعليل سلوكياته ونمط حياته عن بيئته وواقعه المادي ، الأمر الذي يقدم له تفسيراً مزيفاً للواقع . فبدلاً من أن يدرك أنه جزء لا يتجزأ من بيئته بكل علاقاتها ومؤسساتها وأن سلوكياته هي عموماً تعبير عن هذه البيئة ، تؤكد فكرة الشيطان أن أعماله منفصلة عن البيئة والمجتمع وأنه يفعل ما يفعل لأن الشيطان قد فتنه وأغواه أو فتن غيره وأغواه أو لأن إبليس قد وجد الى نفسه سبيلاً (راجع شجرة البؤس لطه حسين وراجع تعليقنا على مفهوم الكاتب) . وهكذا بدوره يقلص من شمولية النظرة الاجتماعية في ذهن الفرد ويجعله في أحسن الظروف يبحث عن التغيير في خلال نفسه وعن طريق « تجنب مزالق الشيطان » . وهو كذلك حين يدعو الى التغيير لا يفهم التغيير على أنه تغيير للواقع بعلاقاته ومؤسساته

---

(١) لاحظ تسلسل أجزاء المقولة: شيطان – كفر – استعمار – إفساد العقول – اللغة العربية – القرآن الكريم .

(٢) روز اليوسف ، عدد ٢١١٥ ، ٨ ديسمبر سنة ١٩٦٩ ، ص ٧٦ .

الاقتصادية والاجتماعية بقدر ما يفهم التغيير على أنه تغيير أخلاقي طوباوي. بمعنى أن يهدي الله الآخرين ويجنبهم غواية الشيطان وفتنته.

وأكثر ما تتركز هذه النظرة لدى دعاة الإصلاح بالأسلوب الوعظي الأخلاقي، حيث يطلب المصلح أو الواعظ الى الناس أن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة ويتمسكوا بأهداب الفضيلة[1]، بل لقد شملت هذه النظرة التحليلات السياسية للواقع العربي، بحيث ساد وربما حتى الآن وخاصة في الأوساط اليمينية، ولدى كثير من الجماهير البسيطة أن الخلاف بين الدول العربية سوف يزول وتتحد كلمتهم اذا ما هداهم الله وتمكنوا من أن يطردوا الشيطان الذي هو سبب الشقاق وأصل الخصومة بينهم.

لقد برع الحجاج بن يوسف الثقفي في إعطاء صورة حية ومفصلة لتغلغل الشيطان في «خلايا» الإنسان والمجتمع العراقي آنذاك بشكل لا يدع مجالاً للشك بأن شمولية مجال عمل الشيطان كما صوّرها طه حسين هي من شمولية سيطرة الشيطان كما صوّره الحجاج. وكأن الشيطان خلال القرون الثلاثة عشر الماضية أمعن في نشر لواء سيطرته من العراق الى مصر وحتى أعماق القرية التي دارت فيها حوادث **شجرة البؤس**.

ففي خطبته بعد معركة «دير الجماجم» قال الحجاج:

يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى الى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشعش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم خلافاً، أتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمّراً تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟[2]

---

(1) يعتبر هذا النمط من التفكير محمد قطب في كتابه جاهلية القرن العشرين، مكتبة وهبة، القاهرة، سنة ١٩٦٤، حيث يتأمل الوضع الحضاري العالمي ويحلله من وجهة نظر دينية ويقول مستنكراً: «فماذا يكون هذا الصنيع إن لم يكن صنيع الشيطان» (ص٨٠). إن فساد العالم يعود الى الشيطان واليهود».

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ص ٢٨٦.

وهنا يظهر لنا بوضوح أن الشيطان أصبح سلاحاً سياسياً يتهم باتباعه والرضوخ لغوايته أولئك المخالفون لسلطة الدولة والمتمردون عليها دون أن يستطيع الانسان العادي أو حتى الفقيه المتدين أن يصل الى قرار عقلاني فيما اذا كان أولئك الناس قد تبعوا الشيطان أم تصرفوا من تلقاء أنفسهم ، أم هم أصحاب حق متمردون على دولة باطل .

وحين دالت دولة الأمويين (٧٥٠ م / ١٣٢ هـ) ، وسيطر العباسيون على مقاليد الحكم بالعنف والثورة المسلحة ، وواجهوا الناس يعلنون إليهم بيانهم السياسي ، لم يتركوا كبيرة أو صغيرة من أعمال الشيطان إلا وأسندوها لبني أمية أو لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة من أعمال بني أمية إلا وأسندوها الى الشيطان ، في حين أن تفسيرهم لملك بني أمية كان على أساس أنه استدراج من الله ومكر منه .

وفي الوقت الذي قال فيه زياد بن أبيه عن حكم بني أمية في خطابه لأهل العراق ، في خطبته البتراء :

أننا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي فوّضنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ...(1)

نجد أن العباسيين قد رأوا في الأمويين خلفاء للشيطان وليس للرحمن . عبّر عن ذلك داوود بن علي في خطبته لأهل العراق من على منبر الكوفة بقوله:

تباً تباً لبني حرب بني أمية وبني مروان ! آثروا في مدّتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار .... وركضوا في ميادين الغي جهلاً باستدراج الله ، وأمنا لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون ... وأدالنا الله من مروان

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، ص ٢٤٤ .

وقـــد غرّه الله الغرور[1]... فظن عدو الله أنا لا نقدر عليه ... فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشمـاله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ، ومحق ضلاله ...

.... وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان المتتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين وانتهـاك حرم المسلمين ، الشاب المتكهل المتمهل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيـــار ... (يعني السفاح) ... (فضج الناس له بالدعاء) .

.... وأدالكم من أهل الشام.. وعز الإسلام، فخذوا ما أتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا [2].

ولم ينج الحجاج نفسه من أن يتهم بالتحالف مع الشيطان من واحد من مشاهير معاصريه ، هو قطري بن الفجاءة من زعماء الخوارج . فحين كتب الحجاج الى قطري :

سلام عليك ، أما بعد ، فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية ، قد علمت حيث تجرثمت ، ذلك أنك عاص لله ولولاة أمره ، غير أنك أعرابيُ جلف أمّي ، تستطعم الكسرة ، وتشتفي بالثمرة ، والأمور عليك حسرة ... ثم أهلكهم الله بنزحتين والسلام .

رد قطري بقوله :

سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حرم الله ويرهبون نقمه . فالحمد لله على ما ظهر من دينه ، وأظلع به أهل السفالة ، وهدى به الضلالة... يا ابن الحجاج انك لميت في جُبّتك، مطلخم في طريقتك، واهن في وثيقتك ، لا تعرف الله ، ولا تجزع من خطيئتك .

---

(١) لاحظ الصفات الشريرة التي نسبها داوود بن علي لمروان بن محمد في الوقت الذي عرف عن الأخير انه كان من خيرة خلفاء بني أمية .

(٢) علي صافي حسين ، حجاج بني العباس ، داوود بن علي ، حياته وخطبه ، الدار القومية للطباعة والنشر ، مصر سنة ١٩٦٥ .

يئست واستيأست من ربك .. فالشيطان قرينك ، لا تجاذبه وثاقك،
ولا تنازعه خناقك ...[1]

وهكذا فإن السلطة السياسية قد وجدت في الشيطان حليفاً تستخدمه ضد معارضيها منذ العهد الأموي ، بل على وجه الدقة منذ مقتل عثمان . وتعددت الأطراف التي تستخدم الشيطان ضد مخاصميها ليشمل كل فرقة ، أو أي فرقة سياسية أو دينية أو شبه ذلك . واستمر هذا السلاح السياسي سائداً في الوطن العربي وحتى يومنا هذا ، حيث توجه الاتهامات من قبل الجهات اليمينية المحافظة الى العديد من معارضيها بأنها تتبع هوى الشيطان وتمرق عن الدين ، الى آخر ما هو معروف حين تشعر تلك الجهات اليمينية أن رياح التغيير قد أصبحت خطراً عليها .

ويشير الواقع الى أن السلطة السياسية عموماً تلجأ الى استخدام مفهوم الشيطان أو الإله لدى الجماهير لصالحها باستمرار . فهي تستخدمه سلاحاً ضد أعدائها لإبعاد الجماهير عنهم وهي تستخدمه لإسكات الجماهير عن ما تقوم به السلطة من أعمال ، وذلك بأن تتهم السلطة الجماهير بأنها قد أصبحت حليفة الشيطان ، كما فعل الحجاج ، وأن ما أصابها ليس نتيجة لتقصير أو استغلال أصحاب السلطة لمراكزهم وإنما هو بسبب غضب من الله ولعنة من الشيطان حلّت على الناس . وتدعي السلطات في هذه الحالة بأن لا سبيل الى خلاص الجماهير إلا استرضاء الرب واستلهام الشيطان .

وقد أبرز الدكتور ابراهيم بدران هذا الموقف الميكافيلي الاستغلالي لمفهوم الشيطان من قبل السلطة في مسرحيته الرمزية سَرَبيكا التي جعل حوادثها تدور في احدى الجمهوريات الإغريقية القديمة ، حيث نجد الحاكم « براميس » يخاطب الجماهير بعد هزيمة سَرَبيكا أمام قوات جمهورية بلطانا المجاورة ، معلناً لهم أن الخطأ لم يكن أبداً في حكومته ، إنما يعود الى أن :

قديموس وسَتَانوس (إلهي الخير والشر أو الرب والشيطان) كانا طرفين في الصراع .

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ص ٣٦٦ .

ويقول لهم :

لا تتعبوا أنفسكم بحثاً عن جواب آخر .. فقديموس غير راض عن سَمرَبيكا .. غاضب عليها .. بل يلعنها.. أجل هذه هي النتيجة التي وصلنا اليها .

وبعد أن هيأ براميس نفوس المواطنين لقبول هذا التفسير ينهال عليهم متوعداً ومؤنباً ومحملاً إياهم مسؤولية الهزيمة مع بلطاة .

براميس: يا رجال سَمرَبيكا ونساءها أنتم مسؤولون عما حل بكم . أغضبتم قديموس فكيف تتوقعون نصرته ؟ هل ينصر الرب من يعصيه ؟ هل يساعد من يغضبه ؟ كلا .. ألف كلا ..

لعب سَتَانوس (الشيطان) لعبته المألوفة .. اللعبة المزدوجة .. وكنتم ضعفاء في نفوسكم !

غدر بكم سَتَانوس وتآمر مع عدوكم .. كشف سَتَانوس أسرار جيشنا للعدو .. نقل اليه أنباء تحركات قواتنا .. لأن أهل سَمرَابيكا مكّنوا لستَانوس من أسرارهم .. فنقلها الى العدو !

أبداً يا مواطني سَمرَابيكا .. الحرب (ويشير الى تمثال قديموس) حرب الآلهة ! حرب الرب يُسيّرها حسب تصرف رعاياه .. إن رآهم حلفاء له .. سيّرها لصالحهم .. وإن رآهم حلفاء لستَانوس .. سيّرها ضدهم .. بل وقاتلهم بنفسه .. وبما أن الحرب قد سارت ضدكم فالعلّة فيكم يا أهل سربيكا .. إبحثوا عن قديموس في نفوسكم تجدوا مكانته قد تضاءلت الى درجة مخيفة .. بالكاد نرى قديموس في قلوبكم وعقولكم .. مات أفراد منكم .. بذنوبكم وآثامكم .

ابحثوا عن سَتَانوس في نفوسكم .. تجدونه متربعاً في كل مكان.. في عقولكم .. بين ضلوعكم تحت طيّات ملابسكم .. ها هو !

(يشير براميس الى نقطة ما بين الجماهير بإصبعه)

إني أراه بينكم ومعكم وفيكم !

. . . .

إني أبكي عليكم .. أرثي لكم .. أبكي على سربيكا المسكينة .. المذبوحة بخناجر مواطنيها !..

تتساءلون ماذا فعلتم حتى استحقت عليكم لعنة قديموس ؟

تتساءلون لماذا غضب منكم إلهنا العظيم ؟

تتساءلون أين الخطأ في سربيكا ؟

أين النقطة القاتلة ..؟

هذه هي مهمتكم يا أهل سربيكا ! مهمتكم الجديدة .. وأزمتكم الحقيقية .. أن تبحثوا.. وتبحثوا.. عن أفعالكم .. وفي أفعالكم .. تزنوها .. تقيموها .. وتكتشفوا بأنفسكم ما فيها من خطأ.. وتقارنوا بين ما فعلتم وبين ما يجب أن تفعلوا ..

... قديموس ... منكم غضب وعليكم يجب أن يرضى .. حاسبوا أنفسكم في كل شيء .. في كل صغيرة وكبيرة.. فقد تكتشفون ما دعا قديموس الى الفتك بكم .. على يد أعدائكم .. وأعدائه في بلطانا ..

تأملوا أعضاءكم وراقبوا حركاتها .. قد تجدون ما قد يغضب قديموس ! دققوا في زوجاتكم.. وأزواجكم وأبنائكم .. فقد تتعرفون على حلفاء لستانوس فيهم .. أعداء لقديموس منهم ! فكروا في أشعاركم ، في فلسفتكم ، في فنونكم واستخلصوا منها النتائج ..

ثم يتابع براميس خطابه الى المواطنين ملقياً العبء عليهم ومتنصلاً من كل مسؤولية :

قديموس إله تعبده سربيكا ، وعليها أن تكتشف الطريق الى مصالحته .. وبراميس لا يعرف مزاجه .. حتى ولا الكاهن الأكبر يعرف ذلك . قد يطلب من مواطن غير ما يطلبه من الآخر ، ومن الرجل غير ما يريد من المرأة ، ومن الأب غير ما يريد من الابن .. وقد يطلب اليوم غير ما كان يريد بالأمس.. ويطلب غداً غير ما يرضى به اليوم .. إنه إله متغيّر .. في تغيُّره تتغير الحياة ..

ابحثوا عن كل هذا .. حاربوا ستانوس .. إلعنوه .. صلّوا

لقديموس .. أقيموا له التماثيل .. احملوهـا في أعناقكم .. إذبحوا له القرابين .. افعلوا كل شيء .. وأي شيء .. حتى يرضى[1] .

* * *

ولا ينكر أحد أن رجال الدين المسيحيين في أوروبا خلال قرون ما قبل النهضة قد دأبوا على استعمال الشيطان كسلاح ضد الجماهير بقصد تطويق حركة التقدم التاريخي لأوربا في المجال العلمي والفكري والاقتصادي . وقــد تفنن رجال الكنيسة هناك باختراع وتلفيق القصص عن تحالفات قام بها العلماء مع الشيطان أو تقوم بهـا النساء من خلال اتهامات السحر الموجهة إليهن . حتى حالات الاستغراق الديني التي كان يمر بها بعض من الناس، كانت تؤول أحياناً من رجال الكنيسة على أنها من أعمال الشيطان الى الدرجة التي أعدم فيها مَن أصبح بعد إعدامه قديساً . ولعل جان دارك من أبرز الأمثلة على ذلك . إلا أن وقوف العديد من رجال العلم والمصلحين في وجه تحكم رجال الكنيسة رغم الاضطهاد ، وتطور العلاقات الاقتصادية في المجتمعات الأوربية، وانتشار التعليم وعمومية الثقافة بعـد اختراع آلة الطباعة ، كل ذلك أدى الى انحسار سلطة الكنيسـة وانحسار مفاهيمها بشكل واضح ، ويكاد يكون نهائياً .

غير أن الخلاف الرئيسي بين استعمال مفهوم الشيطان كأداة سياسية للمحافظة على السلطة الكنسية في أوربا من قبل الكنيسة ، وبالتـالي محافظة رجـال الدين على امتيازاتهم ، وفاعلية هذا المفهوم وتحديديته يختلف عن استعمال مفهوم الشيطان في التاريخ السياسي للدولة الاسلامية منـذ الأمويين وحتى وقتنـا الحاضر . فبسبب تفرّد الكنيسة بالسلطة الدينية ، والنظام السُلّمي لرجال الدين في الكنيسة فإن الله والشيطان هما فقط من اختصاص الكنيسة ولا توجد فرقة أو سلطات أخرى دينية ذات أهمية تستطيع منازعة الكنيسة في توجيه الاتهامات ، الأمر الذي يركّز جبهة الصراع بين المفهوم التقدمي لسلوك الانسان وبين المفهوم الميتافيزيقي المتخلّف له ليكون بين

---

(١) د. ابراهيم بدران ، تَمرَّيكا (مسرحية) مخطوطة في طريقها الى الطبع .

الكنيسة من جهة وبين الفئات التقدمية (بالمعنى التاريخي والسياسي) من جهة أخرى .

أما في الشرق الإسلامي فإن أي فرقة سياسية أو دينية كانت تعلن تمردها ، وتتهم الآخرين بأنهم على ضلال أو حلفاء الشيطان ، مستندة بذلك الى تفسيرها للآيات القرآنية ، أو لتفسيرات أحاديث نبوية صحيحة أو موضوعة[١] . والواقع أن فرقة واحدة رئيسية من الفرق الإسلامية هي التي أهملت دور الشيطان بالمفهوم التقليدي وجعلت أثيره ثانوياً في تقرير مجريات الأحداث ، ونعني بها المعتزلة ؛ فقد استند بعض المعتزلة الى الآية القرآنية :

« وكان كيد الشيطان ضعيفاً » ، فقالوا بأنه لا يستطيع إلا أن يوسوس في قلب الكافر وسوسة لا تدفعه الى الكفر ، وإنما قد تُزيِّن له الكفر . وشبهوا ذلك بوسوسة الفقير الى الغني بتوزيع أمواله[٢].

ونستطيع أن نتبين أن معظم من قالوا بخلق الإنسان لأفعاله (القدرية) كانوا بالضرورة ميالين الى الإقلال من دور الشيطان كما هو الحال مع المعتزلة . غير أن فلسفة المعتزلة لأسباب تاريخية وفكرية معروفة لم تكن لتستطيع أن تحافظ على بقائها ، ناهيك عن انتشارها بين جماهير المسلمين . وأدى سيادة مذهب أهل السنّة الى ذهاب معظم ما قاله المعتزلة ، ورجع الشيطان ليحتل دوره كأحد العوامل البالغة الأهمية في الشرق الإسلامي كما بيّنا فيما تقدم . واتسع نطاق عمل الشيطان وأعوانه ليشمل الإنس بالإضافة الى الجن . وفي هذا يقول العقاد :

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الإنس ، فإن الشيطنة هي عداوة الحق حيث كانت: «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً»[٣].

---

(١) راجع على سبيل المثال كتاب الملل والنحل للإمام أبي منصور البغدادي ، تحقيق د. البير نادر ، سنة ١٩٦٨ ، بيروت .

(٢) راجع القاضي عبد الجبار الهمذاني ، فرق وطبقات المعتزلة ، تحقيق وتعليق د. سامي النشار، وعصام الدين محمد علي ، سنة ١٩٧٢ .

(٣) عباس محمود العقاد ، ابليس ، ص ١٢٢ .

ومع أن العقاد لا يوضح فيما اذا كان يقصد بشياطين الإنس مـــا يعرف بتلبيس الشياطين ليظهروا بمظهر الإنسي (في المفهوم الميثولوجي) أو أنه يعني مجرد « الأشرار » من الناس والذين لهم حيَل كحيَل الشياطين . إلا أن هذا المفهوم الشامل لشيطنة الإنس والجن يزيد المسألة تعقيداً من حيث أنه يضاعف من خوف الانسان لكثرة مـا يتوقع من هجوم شيطاني عليه من كل جانب . الأمر الذي يؤدي الى تعميق الشكوك بالآخرين والتوجس منهـــم والخوف والحذر الذي يصل الى حد الوسواس خوفاً من أن يكون الصديق أو الزوج أو الزوجة، أو الأم أو الشريك شيطاناً حقيقياً أو متلبساً أو مجازياً . وهذا يضيف عبئــاً آخر جديداً على نفسية الانسان ليجعله يشعر بالصغر وشبه الانسحاق أمام مفاتن وألاعيب الشيطان ، خاصة وأن مـا ينسب الى إبليس من قوة وجبروت تبلغ من الضخامة مـــا يجعلها موازية (في التصور الوهمي الإنساني) لجبروت الله ، حيث يتحدى الله إبليس أن يحمل على بني آدم بخيله ورجله ، ليرد إبليس مقسمـــاً بعزة الله أن سيغوي البشر أجمعين إلا القلة القليلة من المؤمنين .

أضف الى ذلك أن تعريف العقاد للشيطنة بأنها عداوة الحق هو تعريف عمومي لا يحمل معنى واضحاً ولا يدل على شيء بالتحديد . ذلك أن مفهوم الحق نسبي جـداً من حيث الزمان والمكان ونسبي جـداً من حيث المصلحة والغاية، ويرتكز أساساً حتى بعموميته على القواعد الايديولوجية السائدة . كذلك فإن عدم وجود مرجع معين للحق يمكن للناس استشارته في خلافاتهم قد يحيل كل أمر الى شيطنة من وجهة نظر فريق من الناس . فقد رأينا أن كل فرقة إسلامية اتهمت خصومها بالحيود عن الحق ومعاداته، وبالتالي بالشيطنة حسب مفهوم العقاد. وكذلك الخلافات السياسية في التاريخ الإسلامي فُبررت بأنها ناجمة عن فتنة الشيطان كما في « فتنة عثمان ومعركة الجمل » وامتدت هذه التصورات لتشمل الفقهاء ورجال الدين ليصفوا أي شيء لا يريدون بأنه معاداة للحق وبالتالي شيطنة .

وإذا نظرنا الى الأديان المختلفة كاليهودية والمسيحية والإسلام نلاحظ أنها

تتضمن مفهوم الشيطان كمصدر للشر مشترك . غير أن مفهوم الشر يختلف في بعض جوانبه بحيث يصعب التمييز بين عمل الشيطان في تحريك الشرور. ففي الوقت الذي يرى رجل الدين المسلم أن شرب كأس من الخمر هو بغواية من الشيطان للرجل المسلم ، لا يرى رجل الدين المسيحي مثل هذه الرؤية في مثل هذه المسألة ، هذا اذا لم يكن يحبذها في بعض الأحيان .

وهكذا نرى أن الشيطان حسب ما حاول العقاد أن يصور دوره يعمل في كل اتجاه،ويعمل أي شيء وكل شيء ولن نستطيع أن ننسب اليه(الشيطان) عداوة الحق المطلق أو الحث على الشر المطلق لانعدام إطلاقية الحق والشر أو الفضيلة والرذيلة ، مما يجعل عبارة العقاد :

فإذا كان لا يدرك تاريخ الأخلاق الإنسانية حقاً وصدقاً إلا من تاريخ الشيطان ، فلا ينكرن هذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى .

إنه وجود أرسخ من وجود الانسان .

....لنستخرج منه (تاريخ الشيطان) تاريخ الأخلاق الإنسانية...[1]

تفتقر الى أي مدلول حقيقي عن الفضيلة والرذيلة مرتبط بالإنسان نفسه وبواقعه ، وتعوزها مقاييس محددة ومتعارف عليها لمعنى الأخلاق الإنسانية . وفي نفس الوقت تتيح هذه النظرة فرصة كبرى للتبرير والمطاطية الأخلاقية المستندة الى مصدر وهمي للرذيلة .

وخلاصة القول أن العقل العربي ما زال في أعماقه متأثراً بدرجة واضحة بمفهوم الشيطان كواحد من الميكانيكيات التي يستخدمها في تفسير الأحداث والتي كما ذكرنا تحجب عنه رؤى أخرى كثيرة، وتعطل في ذهنيته ميكانيكيات أخرى أصبحت هي الدعائم الأساسية للتفكير في العصر الحديث .

ولقد تحول مفهوم الشيطان في أذهان عدد من المتعلمين أو الجماهير التي أتيح لها نصيب من التعلم ، تحول هذا المفهوم ليصبح أقرب التصاقاً بالحياة

---

(١) عباس محمود العقاد ، ابليس ، ص ١٤ .

المـادية للإنسان ، مع المحافظة على التأثير الذهني لفكرة الشيطان في المفهوم الميثولوجي. ذلك أننا نرى عدداً من الكتّاب أو السياسيين أو الناس العاديين أصبحوا يرون في شيء معيَّن « شيطاناً » العصر الحديث ينسبون اليه كل ما يحدث من شرور ، ويسندون اليه قوى وسلطات وسلطان ، لا يشابهها سوى القوى الأسطورية التي تمتع بها إبليس . فعلى سبيل المثال : أصبح « الاستعمار » في الشرق العربي أو الصهيونية العالمية كما تصورها **بروتوكولات حكماء صهيون** بديلاً للشيطان في المفهوم التقليدي ينسب إليه كل ما يقع وكل ما سيقع وكأن الشعب العربي في المنطقة أو الشعوب الأخرى في العالم لا حيلة لها إلا الانتظار والتفرج على ألاعيب الاستعمار أو الصهيونية [1]. أما الأسباب الحقيقية وراء المشكلات السياسية ، أما الدوافع الحقيقية وراء التصرفات والسلوك ، أما الحركات العقلية للأحداث فإنها تفوت – وللأسف – الكثيرين ، لأن العقل العربي قد اعتاد أن يرى العلة في شيء واحد ، الشيطان ، في الماضي والاستعمار أو الصهيونية في الحاضر – أو أي شيء مشابه ، إنما المهم أن يكون مصدراً آخر بعيداً عن إمكانيات الوصول اليه – مصدراً لكل ما لا يرضى عنه . وهذا يعفيه من المسؤولية في نظره وأمام الآخرين .

يتفق معنا في هذه النظرة الى ميكانيكية التحليل في العقل العربي الدكتور صادق جلال العظم حيث يبين في أكثر من مكان أن العقل العربي ما زال بتأثير التفكير الميثولوجي يعلل الأحداث بردّها الى كائنات غير مرئية . ففي عرضه لأنماط التفكير العربي في تحليله لهزيمة حزيران عام ١٩٦٧ يقول الدكتور العظم :

... إن العقل العربي (أو بالأحرى الخيال العربي) لا يزال يميل ميلاً شديداً الى الأخذ بأبسط التفسيرات لمجرى الأحداث التاريخية وأكثرها سذاجة .

---

(١) إقرأ على سبيل المثال بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود، شوقي عبدالناصر، دار التعاون ، القاهرة .

إن أبسط السبل لفهم ظاهرة معقدة مثل السياسة الخارجية لدولة مثل الولايات المتحدة ، هي نسبتها الى شخص ما أو الى مجموعة من الأشخاص (حكماء صهيون مثلاً) نعتبرهم مسؤولين عنها كلياً ، فنصبّ اللوم عليهم ونستنتج أنه لو تلاشى هؤلاء الأشخاص من الوجود لتبدل مجرى الأحداث تماماً . أي أننا نبحث دوماً عن تعليل للأحداث يرجعها في نهاية الأمر الى « قوة إرادية » كامنة خلفها أو الى « نوايا وغايات » مستقبلة لأشخاص يتدبرون مجاريها وفق أهوائهم ولكن بسرية تامة .

... لم يألف العقل العربي بعد تفسير الأحداث بأساليب علمية جديدة لا تعتمد على التعليلات الغائية وإرجاع الأحداث الى إرادات خفية وقوى شخصية ، وإنما تعتمد على اعتبارات اقتصادية موضوعية مثلاً أو قوى اجتماعية تضغط بصورة آلية أو تتفاعل على نحو جدلي فيما بينها .

وينتهي الدكتور العظم الى القول :

إن هذا النمط الشائع في التفسير ناتج عن تأثير التفكير الميثولوجي – الديني التقليدي الذي يعلل الأحداث، في نهاية المطاف، بردّها الى الإرادة الإلهية والى رغبات الكائنات غير المرئية ويرى في مجرى التاريخ تدبيراً إرادياً مسبقاً لسير الأحداث وتخطيطاً معداً لكل واقعة تقع[1] .

وكخلاصة لهذا الفصل يمكننا الاستنتاج بأنه وإن كان الانسان العربي المتعلم قد بدأ تدريجياً ، وببطء شديد ، يتخلص من بعض المظاهر الشكلية للخرافة ، فان الميكانيكية الخرافية ما زالت تعمل في العقل العربي لتعطيل الميكانيكية العقلانية العلمية . ذلك أن مفهوم الشيطان أو الأفكار الخرافية

---

(١) صادق جلال العظم ، النقد الذاتي بعد الهزيمة ، دار الطليعة ، بيروت، ١٩٧٢ ، ص ٥٥ – ٥٦ .

عموماً تحرم العقل العربي من أدوات التحليل العلميـة والتي تتطلب عـادة قدراً كبيراً من الجهد والمتابعة والمسؤولية ، وتحتاج الى مثـــابرة وتقص مضنيين، سواء على مستوى الفرد أو المؤسسة أو المجتمع ، في الوقت الذي تقدم المفاهيم الخرافية ختمـاً مطاطياً للتحليل ، يحمل كلمتين يمكن استعمال إحداهما عند الرضى، واستعمال الأخرى «من فعل الشيطان» فيما دون ذلك.

إن المفاهيم الخرافية بهذا الصدد والتي هي نتاج السنوات الأولى للحضارة الإنسانية تمثل أدوات حجرية كان يستعملها الإنسان الأول بالمقارنة بأدوات التحليل العلمية والتي تمثلها تكنولوجيا هذا العصر بكاملها .

الفصل الثاني

الأوليـــــاء

الأوليــاء

١ ـ لمحة تاريخية :

جاء في مقدمة طبقات الصوفية للسلمي :

... واتبع الأنبياء عليهم السلام ، بالأولياء ، يخلفونهم في سننهم ويحملون أمتهم على طريقتهم وسمتهم .

فلم يخل وقتاً من الأوقات ، من داع اليه بحق ، أو دالّ عليـه ببيان وبرهان .

وجعلهم طبقات ، في كل زمان ، فالولي يخلف الولي، باتباع آثاره والاقتداء بسلوكه . فيتأدب بهم المريدون ، ويأتسي بهم الموحدون .

قال النبي ﷺ : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

وقال ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر ، لا يـدري أوله خير ، أم آخره » .

فعلـّم ﷺ أن آخر أمته ، لا يخلو من أولياء وبدلاء يبنون للأمة ظواهر شرائعه ، وبواطن حقائقه ، ويحملونها على آدابها ومواجبها ، إما بقول أو بفعل .

فهم في الأمم ، خلفـاء الأنبياء والرسل ، صلوات الله عليهم ، وهم أرباب حقائق التوحيد ، والمتحدثون ، وأصحاب الفراسات الصادقة ، والآداب الجميلة والمتبعون لسنن الرسل ... الى أن تقوم الساعة [1].

---

(١) أبو عبدالرحمن السلمي ، طبقات الصوفية ، تحقيق نورالدين شريبة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٩ ، ص ١ — ٢ .

إن الإيمان بالقوى الميتافيزيقية المطلقة لكائنات خيالية قد امتد ليشمل الاعتقاد بقدرات خارقة تستند الى أساس ميتافيزيقي أيضاً يتمتع بها عدد من الناس يتميزون عن الانسان العادي بأنهم ذو مكانة خاصة عند الآلهة أو بأنهم « أولئك المقربون » (سورة الواقعة ، آية ١١) . وهؤلاء حسب اعتقاد كثير من المسلمين ، هم الأولياء ، الذين يتمتعون بمكانة تشابه مكانة القديسين عند المسيحيين .

وفكرة الولاية تشكل النظرية الثانية الكبرى في مذهب الصوفية بالإضافة الى النظرية الأولى وهي التوكل[١] . ومسألة الولاية يرجح أنها ترجع الى أصل نصراني[٢] . فقد حصل اتصال مباشر بالكنيسة المسيحية إثر الفتوحات الإسلامية، مما أدى الى تسرب عقائد وأفكار مختلفة الى الصوفية، نذكر منها على سبيل المثال في هذا المجال، الاهتمام بالأبطال المتدينين والكلام في حب الله. ويقال ان الذي أدخل مسألة الولاية في مذهب الصوفية هو أبو عبد الله محمد ابن علي الحكيم الترمذي (المتوفى ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م)[٣] .

وقد تطور معنى كلمة ولي[٤] ليدل على الشخص الذي «يواليه الله وينصره»، وهي فكرة صوفية أدخلها الصوفية في الإسلام فلم ينفك عنها في كل عصوره. وهذا هو أكبر نجاح ظاهر للصوفية . وقد أخذ هذا النجاح يظهر في القرن

---

(١) راجع باب التوكل في الرسالة القشيري ، دار الكتب العربية الكبرى ، مصر ، ص ٧٥ – ٨٠ .

(٢) هناك قائمة طويلة لمراجع مسيحية مكتوبة باللغتين الاغريقية واللاتينية تظهر فيها مراراً عبارة « المقرب الى الله » كلقب شرف يلقب به الراهب المتعبد . راجع :
Holl, Karl, Enthusiasmus, pp. 129, 214.

(٣) يذكر ابن العربي في الفتوحات المكية (الجزء الأول ، ص ٢٠٦ ، مطبعة بولاق عام ١٢٥٩ هـ) إن الحكيم الترمذي نبه على أن سيدنا عيسى خاتم الأولياء وذلك في كتاب ختم الولاية .

(٤) الولي في اللغة هو الناصر ، وقيل : المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها ومن أسمائه عز وجل . والولي ضد العدو ، وهو الصديق والنصير ، والولي هو التابع المحب . لسان العرب، ابن منظور، مطبعة بولاق، سنة ١٣٠٧ هـ، جزء ٢٠ ، ص ٢٨٨–٢٩٢ .

الرابع الهجري . وينسب للمحاسبي (المتوفى عام ٢٤٣ هـ / ٨٥٨ م) الذي تأثر بالمسيحية تأثراً قوياً ، المتكلم في مسألة درجة الأوليـــاء وفي مقامات الحياة الصوفية [١] .

ولقد تطور النظام السُلّمي (hierarchy) لدى الصوفية ليشمل درجات تبدأ بالمريدين ، فالأخيار وعددهم ثلاثمائة ، ثم الأبدال ويبلغ عددهم أربعين ، ثم الأبرار وعددهم سبعة ، ثم الأوتاد وهم أربعة يطوفون العالم بجملته كل ليلة، ثم النقباء وهم ثلاثة ، ثم القطب أو الغوث[٢] وهو قمة الهرم . وحسب المفهوم الصوفي فإن الأولياء هم ولاة العالم ، والحل والعقد منوط بهم ، وتدبير العـالم موصول بهمتهم[٣] .

مع أن عبادة وتقديس الأولياء والقديسين غير واردة في القرآن ، إلا أن هذا لم يمنع الاستفادة من بعض الإشارات القرآنية حول عدد من الصالحين أو الأولياء الذين خصهم الله بعلمه وأودع فيهم سره . فنقرأ في سورة يونس ، آية ٦٢ :

---

(١) تدل المقارنة بين كلام المحاسبي – الذي بدأ بـه أحد كتبه نقلاً عن بعض الحكماء والذي يمثل فيه الهادي بالباذر، وكلامه بالبذر، والناس بأرض صالحة مثمرة ، أو أرض ذات شوك يختنق الزرع..الخ – وإنجيل لوقا – الفصل الثامن – على أن المحاسبي ينقل كلام المسيح. وكذلك نجد في كتاب آخر له صورة مكبرة لخطبة المسيح على الجبل ، إنجيل متى – الفصل الخامس . راجع آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، جـزء ٢ ، ص ٢٠ – ٢١ .

(٢) لا يستوي القطب والغوث من حيث الدرجة في بلاد الجزائر . فالقطب يعتبر هناك أكبر أولياء زمانه، أما الغوث فهو القمة الخالصة، وقادر على أخذ ذنوب المؤمنين على عاتقه .
Doutté, L'Islam Algérien en l'an 1900, Algiers 1900.

القول بالقطب من أهم تعاليم الصوفية والتي كان لها أثر في تاريخ المسلمين . فهم يقولون :
« إن القطب هو أكمل إنسان تمكن في مقام الفردية أو الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان ... فهو من الكائنات بمثابة المهيمن عليها ... وإنه ليظل كذلك طول حياته حتى يقبضه الله فيخلفه واحد من الأولياء الثلاثة الذين دونه في المرتبة » . أحمـد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء ٤ ، ص ١٦٩ .

(٣) الهجويري ، كشف المحجوب ، ص ٢١٠ ، ٢٢٨ .

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وجاء في تفسير هذه الآية في البيضاوي[1] :

ألا إن أوليـــاء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ، لا خوف عليهم من لحوق مكروه ولا هم يحزنون بفوات مأمول ..

كذلك ورد في سورة الكهف ، آية ٦٥ :

فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً.

وفي تفسير الإمامين جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي نجد أن العبد هو الخضر ، والرحمة هي الولاية ، والعلم أي معلوماً من المغيبات[2] .

كما أن تأثير الثقافات المسيحية واليونانية والفارسية والهندية التي كانت سائدة في المنطقة عند الفتوحات الإسلامية، بالإضافة الى انتشار فكرة الجبرية بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التي بدأت تسود العـــالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري على وجه الخصوص ، ساعد على نجاح الأفكار الصوفية وتغلغلها بين جماهير الشعب في معظم أنحاء الوطن العربي الاسلامي. فأصبحت وكأنها جزء من العقيدة الاسلامية . ويعلل أحمد أمين نمو التصوف المطرد ، وخاصة بعد سقوط بغداد ، الى

أن التصوف لا يحتاج الى عقل كبير، وبحث كثير. بل هو بالقلب والشعور أعلق . ولذلك كانت دائرته أوسع . ولأن النـــاس فقدوا الدنيا فتطلعوا الى الآخرة ، ويئسوا من العدالة الاجتماعية في الأرض فأملوها في السماء . ولم يجرؤوا أن يثوروا في وجوه الحكام يطالبونهم بتحقيق العدل ، فقنعوا بالسلامة وضعفت عقولهم عن تمييز الحق من الباطل ، وملأوها بالخرافات والأوهام . ولم تتجرد طبيعتهم من حب اللهو فأدخلوه في التصوف فكان فيه الغناء والموسيقى والرقص وألعاب

---

(١) البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ص ٤١٩ – ٤٢٠ ،
Commentorius in Coranum ed. H. L. Fleischer - Lipsiae, 1848.

(٢) جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير القرآن الكريم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص ٣٩٧ .

البهلوان . وعجزوا عن ربط المسببات بالأسباب فهرعوا الى المتصوفة يمنحونهم البركة ويستقضون منهم حوائجهم ، ويقرعون بهم أبواب السماء ، فامتلأت البلاد بأرباب الطرق ومشايخ الصوفية ومدعي الولاية [1] .

وفي الواقع فإنه اذا استثنينا حالات التطرف للمتصوفة سواء من حيث الممارسات أو الأفكار - كفكرة الفناء في الله وحلول روح الله في الانسان - فإن المدرسة السنّية قد قبلت الصوفية ووقفت منها موقفاً مشجعاً [2] خاصة بعد مجيء الغزالي (المتوفى عام ٥٠٢ هـ / ١١١١ م) الذي كان له أكبر الأثر في التوفيق بين الفقهاء الذين غالوا على مر الزمن في مراعاة الشعائر الظاهرة ، كالوضوء والصلاة والزكاة ومتى تصح ومتى لا تصح ، والصوفية المغـالية في أحوال الروح مع أن الإسلام في « جوهره لم يكن يفرق بين الاثنين ، بل يأمر بالأعمال الظاهرة ، ويطلب إصلاح الباطن، ومراقبة الله في أدائها » [3]. وقد دعا الغزالي في كتابه إحياء العلوم الى المحافظة على الشريعة الظاهرة ، من صوم وصلاة وزكاة وحج، كما بيّن أن لا قيمة لها ما لم تدعم بالنية الحسنة:

من قال إن « الحقيقة » تخالف « الشريعة » ، والباطن يخالف الظاهر فهو الى الكفر أقرب . وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة. فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة أنباء عن تصريف الحق . فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده . والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قدر وأخفى وأظهر [4] .

---

(١) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء ٤ ، ص ٢١٩ .

(٢) أراد الفقهاء وخاصة الحنابلة أن يقضوا على الصوفية كما قضوا على المعتزلة ولكنهم لم ينجحوا لأن قسماً كبيراً من العامة كان يشايع الصوفية. راجع أحمد أمين، ظهر الاسلام، جزء ٢ ، ص ٧٦ .

(٣) أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، الجزء الأول ، ص ١٣ - ١٥ .

(٤) نفس المصدر. وقد حاول القشيري في رسالته الشهيرة أن يوفق بين تقوى أهل السنّة وتقوى الصوفية قبل الغزالي، فيجد القارىء تشابهاً كبيراً بين مقولة المؤلفين . راجع الرسالة القشيرية ، ص ٤٣ .

كذلك قال القشيري في رسالته المعروفة باسمه :

انفرد خواص أهل السنّة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة[1] .

ويعتبر ابن خلدون علم التصوف من العلوم الشرعية ويقول في مقدمته يصف طريقة التصوف :

بأنها لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية [2].

كذلك فإن الأزهر عموماً كان مع التصوف بطريقة أو بأخرى على اعتبار أن أهل السنّة يتفقون مع امكانية وجود الولي والذي تظهر على يديه كرامات لا تظهر على يدي غيره من البشر . وفي نفس الوقت يوافقون أهل التصوف على أن العبادة والتقرب الى الله قد يوصل الى الولاية استناداً الى الحديث النبوي الذي ورد في صحيح البخاري ورواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي أنه قال :

اتقوا فراسة المسلم فإنه ينظر بنور الله .

وفي مصر ، على سبيل المثال ، فإن الدولة ، على ما يبدو ، تعترف رسمياً بالأولياء . يتضح ذلك من حفلات الموالد التي تشرف عليها الدولة من ناحية كما سيأتي تفصيله ، أو من حيث أراء رجال الدين الرسميين وفتاويهم . فقد أفتى الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية الأسبق عام ١٩٤٠ بصحة وجود الأولياء ، من الناحية الشرعية ، وبكراماتهم . فقد سأله سائل :

هل الأولياء لهم تصريف فيما يجري في الكون ؟ وفي الوساطة بين الله وعباده وفي قضاء حاجاتهم ... وهل في القطر المصري

---

(١) الرسالة القشيرية ، ص ٧ — ٨ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٧١ .

سبعة لهم التصريف ... منهم السيد البدوي ، والفرغل ، وإمامنا الشافعي ، والسيدة نفيسة ، فهل لهذا أصل في الدين ؟ "[1] .

وكانت إجابة مفتي الديار المصرية بعد حمد الله والصلاة على نبيه كالتالي :

... إعلم أن الله تعالى قال : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) ... فأنت ترى أن الله تعالى قد بيّن لنا أن له أولياء وأن هؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ... فهم مصدقون بالقضاء والقدر ... فإن فاته شيء مما يطلبه لا يحزن على فوته لاعتقاده أنه لم يقدّر له ولو قدّر له ما فاته، كما أن ما وصل اليه إنما وصل بقضاء الله وقدره ...

فالولي شرعاً ... هو من يتولى الله تعالى ويتخذه مولى له ، فيؤمن به ويتقيه ويمتثل لأوامره ويجتنب نواهيه ويتولاه الله تعالى بأن يوفقه فيخرجه من ظلمات الجهل الى نور العلم ..."[2]

وبناء على ذلك يستنتج مفتي الديار المصرية بأن كل مؤمن له قسط من الولاية فيقول :

وإذاً فكل مؤمن ولي ، وإنما تختلف درجات الولاية على حسب درجات التقوى [3] .

ثم أورد الشيخ محمد بخيت المطيعي بيت شعر لعبدالسلام صاحب الجوهرة:

واثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه[4]

وأشار الشيخ بخيت أن هذا المعنى بالولاية هو المعنى الأخص وبالتالي تقترن الكرامة بالولاية الخاصة . ثم يقول الشيخ المطيعي :

---

(١) محمد شاهين حمزة ، السيدة نفيسة ، الطبعة الثانية ، مكتبة الجندي ، ١٩٧٠ ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٣ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

وقال علماء الكلام : يجب الاعتقاد بأن للأولياء كرامة حال حياتهم في الدنيا وبعد موتهم الى يوم القيامة [1].

وفسر ذلك بقوله :

والمراد أن يجب على كل مكلف أن يعتقد الكرامة أي حقيقتها ، بمعنى جوازها ووقوعها لهم ، كما ذهب اليه جمهور أهل السنة ، ومعنى الكرامة أمر خارق للعادة ...[2]

وبعد أن يميز بين الكرامة والمعجزة التي تظهر فقط على يد الأنبياء ويتحدث عن المعونة والإهانة والمصحوبية يورد أدلة على حقية الكرامة وإثبات وقوعها للأولياء مأخوذة عن الحموي في كتابه **نفحات القرب والاتصال** وعن السجاعي في رسالته . ثم يورد دليلاً

على جواز وقوع الكرامات للأولياء بعد مماتهم .

نقلاً عن الحافظ المنذري في كتاب **الترغيب والترهيب** وعن الترمذي والحموي والتفتازاني .

ويقرر الشيخ المطيعي بعد ذلك

ان ما يظهر من التصرفات على يد الأولياء لا يخالف صريح القرآن ... يظهره الله إكراماً لهم ، تارة بإلهام وتارة بمنام وتارة بدعائهم وتارة بفعلهم واختيارهم ، وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم ، بل قد يحصل من الصبي المميز وتارة بالتوسل الى الله تعالى بهم في حياتهم وبعد مماتهم ، مما هو محكي في القدرة الإلهية ، ...[3]

أما فيما يتعلق بوجود سبعة أولياء في القطر المصري لهم التصريف في شؤونه ، فقد كانت إجابة المفتي غير محددة تحتمل الموافقة أو الإنكار حسب ما يميل القارىء اليه . فعلى وجه الابتداء قال :

---

(١) محمد شامين حمزة ، السيدة نفيسة ، الطبعة الثانية ، مكتبة الجندي ، ١٩٧٠ ، ص ٧٤ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص ٧٧ .

فالتصريف الذي ينسب لهؤلاء السبعة هو عبارة إكرام الله تعالى لهم وإظهار خارق العادات لمن يتوسل بواحد منهم في أي شيء من الأشياء التي تكون كرامة للولي، وليس هذا التوسل ممنوعاً أصلاً... وهذا لا فرق فيه بين الحي والميت لما تقدم من أن الفاعل هو الله تعالى، بل إنه بعد الموت أقرب منه حال الحياة الدنيوية ... وهذا لا مانع من اعتقاده بناء على ما اشتهر عن هؤلاء السبعة من إكرام الله تعالى لهم بعد مماتهم ..."[1]

وبعد هذا الإقرار المحدد يتدارك الشيخ المطيعي فيقول :

ولكن لا يجب الاعتقاد أن فلاناً بعينه ولي وأن الله أظهر الكرامة على يده، ... بل يجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن يُنكر صدور أي كرامة كانت من أي شخص كان على التعيين . ولا يكون بإنكاره هــــذا مخالفاً لشيء من أصول الدين، ولا مائلاً عن سنّة صحيحة، ولا منحرفاً عن الصراط القويم ..."[2]

ثم يعود فيقول :

لكن من يُنكر أن لله أولياء معينين فهذا هو المخالف للقرآن ولإجماع أهل السنّة [3].

ثم ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن التوسط بالأولياء، أحياء أو أموات، فيقرر جواز ذلك على اعتبار أن الولي اذا مات

وفقد الحياة الحيوانية بقيت نفسه وروحه على حياتها الملكوتية وتعلقت بجسمه تعلقاً آخر[4].

الى أن يقول :

فلا مانع عقلاً أن يكون بعض أرواح الأوليـــاء والصالحين

---

(١) محمد شاهين حمزة، السيدة نفيسة، الطبعة الثانية، مكتبة الجندي، ١٩٧٠، ص ٧٨ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر، ص ٧٩ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

بعد موت الأجساد سبباً بدعائها وتوجهها الى الله تعالى في قضاء حوائج بعض الزائرين لهم المتوسلين بهم ...»[1]

بالإضافة الى هذا الموقف الرسمي والذي يعبر فيه المفتي عن رأي الدولة فإن هناك العديد من الأحاديث النبوية التي يستند اليها المصدقون بالأولياء ويفهمونها فهماً مباشراً وبسيطاً خالياً من الإطار الفلسفي الذي صاغ به المفتي فتواه ومسقطاً التحفظات التي ذكرها . وهذا بطبيعة الحال يجعل هذه الدعاوى الى التصديق بالأولياء وكراماتهم أقرب الى عقلية الجماهير ونفسيتها.

فقد ورد في صحيح البخاري عن النبي أنه قال :

لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، فلئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعذينه .

والغزالي نفسه يؤكد انكشاف « سر الملكوت » وتلألؤ « حقائق الأمور الإلهية » فيمن يتولى الله أمر قلبه ، فالأنبياء

والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا ، ... والإقبال بالكلية على الله تعالى ، فمن كان لله كان الله له .

... وإذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، تلمع لوامع الحق في قلبه ويرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، فينكشف له الغيب ويحصل له اليقين[2] .

أما ابن تيمية فقد أثار في كتابه الفرقان مشكلة جديدة في الولاية فقسمها الى ولاية للشيطان وولاية للرحمن . ويبدو من كتاباته أن الخوارق أو الكرامات قد تظهر على أشخاص هم أولياء الشيطان ، فقال :

---

(١) محمد شاهين حمزة ، السيدة نفيسة ، الطبعة الثانية ، مكتبة الجندي ، ١٩٧٠ ، ص ٧٩ .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ص ١٣٧٧ – ١٣٧٨ .

إن هذه الأمور وأمثالها ، أي الخوارق ، قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي الصلوات المكتوبة ، بل يكون ملابساً للنجاسات، معاشراً للكلاب... فهذه علامات أولياء الشياطين لا أولياء الرحمن ... وإن كان الرجل خبيراً بحقائق الإيمان الباطنة ، فارقاً بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية ، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره ...»[1]

ومن الناحية السياسية فإن الصوفية ، وخاصة حين تطورت الى طقوس وتصوّرات تجتذب اليها الجماهير وتصرفهم عن واقع أوضاعهم السيئة، لم تكن في يوم من الأيام خطراً على أنظمة الحكم تستدعي تدخل الدولة للقضاء عليها ، باستثناء بعض الحالات التي تتوفر فيها القدرة للمتصوف على اجتذاب الجماهير اليه بحيث يشكل التفافهم حوله تجمعاً جماهيرياً قد يتطور الى تحرك سياسي كما حدث للحلاج . فقد اضطرت السلطة للتدخل ضده وقتله بطريقة وحشية للغاية ، حين خاف الخليفة العباسي المقتدر والوزير حامد بن العباس الذي أوعز الى الفقهاء بمحاكمته ، حدوث فتنة في بغداد سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م. فضرب ألف سوط ، وقطعت يداه ورجلاه وأحرق بالنار[2] .

على أن حركة التصوف قد خرجت كثيراً في بعض صوّرها عن حدود المبادىء الإسلامية . فادعى بعضهم أن من « اتصل بالله وبلغ الغاية في الفناء خضع له الكون وقوانينه، جرى على يديه خرق العادة بما يسمى «الكرامات» مقابل ما كان للأنبياء من معجزات » . كما قالوا :

---

(١) عبد الكريم الخطيب ، نشأة التصوف ، ص ٤٨ .

(٢) يبدو أن التهمة التي وجهت الى الحلاج وسببت قتله هي تهمة « القرمطية » . وكان القرامطة يريدون توسيع دائرة خلافة أهل البيت، وينحوا الخلفاء العباسيين . وقد انتشرت دعوتهم في العراق وخراسان وجزيرة العرب . راجع أحمد أمين، ظهر الاسلام، جزء ٢ ، ص ٧٥ . وقد ذكر الاصطخري أحد معاصري الحلاج المتأخرين ، أن الحلاج قد أثّر في كبراء أهل بغداد — جماعة من الوزراء وطبقات من حاشية السلطان وأمراء الأمصار — تأثيراً قوياً نادر المثال . الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٣٩ . كما ورد في كتاب المسالك والممالك لابن حوقل أن الحلاج كان في أول أمره داعياً من دعاة الفاطميين .

إن من بلغ درجة الولاية تحرر من المظـــاهر ، أي غير ملتزم بالشريعة ... بل أشاعوا أن المعصية لا تمنع الولاية[1] .

فعرضوا السلطة بهذه الأقوال والادعاءات والنزعات الى الخطر ، فاتهموا بالزندقة ، وثارت العامة عليهم ، فقتل منهم نحو « نيف وسبعين » وسيق الكثير منهم الى السجون كالجنيد وسحنون[2] .

وقد وجه عدد من فلاسفة الإسلام نقداً مريراً الى حركة التصوف ، وخاصة لأفكارها المتطرفة فقد :

أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الارشادات في فصول التصوف منها فقال : جل جناب الحق أن يشرعه لكل وارد ، أو يطلع عليه الواحد بعد الواحد (إشارة الى انتقال السر الإلهي من قطب الى قطب) وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي ، إنمـــا هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقول عليه الرافضة ، ودانوا به . ثم قالوا بترتيب الأبدال بعد هذا القطب كما قال الشيعة في النقباء[3].

كذلك وجه ابن حزم نقده اليهم ، ومما قاله :

إن من الصوفية من يقول أن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم: واتصل بالله تعالى . وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد أبا الخير من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجـــال ، ومرة في اليوم يصلي

---

(١) أحمد أمين، ظهر الاسلام، الجزء ٢ ، ص٦٤ . راجع متز، الحضارة الاسلامية... ص٩٥ . كان الشلمغانية مثلاً (نسبة الى الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر، وهو من قرية من قرى واسط) يفتقرون ترك الصلاة والصيام والاغتسال ويبيحون الفروج ولا ينكرون أن يطلب أحدهم من صاحبه حرمته، بل يرون أنه لا بد للفاضل منهم أن ينكح المفضول ليولج النور فيـــه . كذلك كانوا يقولون بـ « الحيلولة » . ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جزء ١ ص ٢٩٦ – ٣٠٧ .

(٢) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء ٢ ، ص ٦٩ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٧٣ .

الف ركعة، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة ؛ وهذا كفر محض...[1]

ولم تتوقف حركة الإستياء من الصوفية عبر القرون وإن لم تنشأ عنها مدرسة منظمة قوية تتولى محاربتها والقضاء عليها وعلى تأثيرها المعطّل لعملية تخلص الجماهير من رواسب الخرافة . ورغم أن شخصيات كبيرة من أهل السنّة أبدت استنكارها لأفكار وممارسات الصوفية بين آن وآخر ، إلا أن موقف أهل السنّة استمر في غالبيته متعاطفاً مع الصوفية .

ففي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هاجم عبد الرحمن الكواكبي الصوفية في كتابه أم القرى واتهمهم بأنهم

لم يرضوا بالشرع المبين ، وابتدعوا أحكاماً في الدين سموها علم الباطن ، أو علم الحقيقة ، أو علم التصوف [2].

وفسر فلسفتهم بأنها قائمة على تأويل المتشابه من القرآن والأحاديث والآثار ، أو الأحاديث الموضوعة من جانبهم . وقرّعهم باتخاذهم الدين ملهاة وملعبة إذ أنهم :

اتخذوا دين الله لهواً ولعباً ، فجعلوا منه التغني والرقص ونقر الدفوف ودق الطبول ولبس الأخضر والأحمر واللعب بالنار ... يخدعون بذلك البسطاء ويسترهبون الحمقاء [3].

ثم هاجم الكواكبي تواكلهم واتهم بعضهم بالبلاهة فقال :

ومنهم قوم يعتبرون البلادة صلاحاً ، والخمول خيراً ، والخبل خشوعاً، والصرع وصولاً، والهذيان عرفاناً ، والجنون منتهى المراتب السبع للكمال [4].

وأكد الشيخ محمد عبده موقف الكواكبي، وأيده سواء من حيث ادعاءات المتصوفة أو سلوكياتهم ، ووجه اليهم تهماً تشبه ما قاله الكواكبي فيهم ، فهم في نظر الشيخ محمد عبده :

---

(١) ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، الجزء ٤ ، ص ١٨٨ .

(٢) عبدالرحمن الكواكبي، أم القرى ، المطبعة العصرية ، حلب، ١٩٥٩ ، ص ٩١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٣ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

خليط من الناس جمعتهم وحدة الفرار من الدنيا وحب الكسل ، والابتعاد عن أي عمل يعود على الانسانية بالنفع ، وهم إمـــا فاشل عجزت نفسه عن السير في طريق الحياة والأخذ بالأسباب والمسببات. وهم إما مسخ مشوّه منبوذ في المجتمع وإمـا طريد من طرداء العدالة أراد أن يتستر وراء هـــذا المظهر الخادع حتى يفلت من القصاص . وإما أبله قد ألقي في روعه أنه حبيب الله وصفيّه وقد وجد لهؤلاء أنصار ومحبذون يؤيدونها وينشرونها بين الجماهير فيخدرونهم بمخدرهم السام ، وهم يلقون في روع الناس أن الحياة الدنيا دار فناء ويأخذون في ذمها وتنفير الناس من العمل السليم . ومما يؤثر عنهم قول العـامة أن الرزق ليس بالشطارة وأن المجتهد قد لا يكون له نصيب من الحياة وأن الخامل قد يصيبه الجد فيها ، وأن الدنيا دار فناء والزهد فيها خير من التمسك بها ...»[1]

كذلك اتخذ أحمد أمين موقفـاً يقوم على الاستنكار والسخرية بالمتصوفة وخاصة المتأخرين منهم ، فقال يصف حالة التصوف :

صـــار في أغلب الأحيان ، إلا في القليل النادر ، صناعة لكسب العيش .

وتتطلب هـــذه الصناعة عمامة خضراء .وسبحة طويلة غليظة والتظاهر بذكر الله ، ودعوى مخاطبته الأوليـاء والاتصال بهم عن طريق الروح ، وقد ذمّهم كثير من الناس والشعراء[2]! .

وهو ينقل عن الجبرتي انتقاد الأخير لأعمال المتصوفة فيحكي قصة عن شيخ كبير من مشايخ الطرق الصوفية أعطته وزارة الأوقاف أربعمائة جنيه ليصرفها على الاحتفال بالمولد النبوي ، فاتضح أنه مدين لتاجر مشهور « بثمن صناديق مشروبات روحية » .

---

(١) أنور الجنـــدي ، الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ص ٤٧٩ – ٤٨٠ .

(٢) أحمد أمين ، قاموس العادات ... ، ص ١٢٠ – ١٢١ .

لم تقتصر التهم الموجهة الى الصوفية على الناحيتين العقيدية والسلوكية ، بل امتدت لتضع عدداً من الفرق الصوفية في قفص الاتهام من الناحية السياسية . يذكر أنور الجندي في معرض حديثه عن الخلاف بين السنّة والصوفية أن عدداً من الفرق كانت أدواتاً للاستعمار في أنحاء متفرقة من الوطن العربي ، فيقول :

لقد كان للصوفية دوران واضحان لا سبيل الى إنكارهما :

الدور الأول هو استغلال الاستعمار لهذه الفرق لخدمة أغراضه...

وفي مصر إبان الاحتلال البريطاني كانت الطريقة الدمرداشية التي يرأسها عبد الرحيم الدمرداش تحظى برعاية الاستعمار . وقد حرصت الصحف الدائرة في فلك التغريب (يقصد الدعاية الى الأخذ بالثقافة الغربية) أن تدعو لها وتحميها وتصورها بصورة العمل النافع ...

وفي السودان وفي المغرب كانت بعض الطرق الصوفيـة أداة من أدواته (يقصد الاستعمار) ...

ومما يذكر أن الاستعمار أفاد من جموع الصوفية في رسم صورة مزرية للشعوب التي احتلها ...

... في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي .. « انقلبت الزوايا بعد مؤسسيها الأولين الى معاهد خرافات وأباطيل تستثمر غفلة العامة وبلههم ، فتنال منهم مال السحت الذي يدفعونه بصفة نذور وينفقه رجال الزاوية على ملاذهم وملاهيهم ومنكراتهم ... » .

وأشار علال الفاسي في كتابه « المغرب العربي » :

« ...أن الدعاية الفرنسية جندت في الشمال الافريقي قسماً كبيراً من مشايخ الطرق الصوفية الذين اعتادوا أن يعملوا لمصلحة رجال الحكم ، أو الذين خلقتهم الإدارة الفرنسية لتسخيرهم في أغراضها ، فاشتغل محمود التيجاني في الجزائر وعبدالحي الكتاني في المغرب وابن عزوز في تونس دعاة متحمسين للسياسة الفرنسية ...»[1]

---

(١) أنور الجندي ، الفكر العربي المعاصر ... ، ص ٤٨٠-٤٨١ .

ويؤكد الجندي أن عدداً من المسلمين تيقظوا الى خطر هــذه الفرَق، وفطنوا الى مفاهيم الإسلام الحقة التي تحرّفها الطرق الصوفية، وأن هـذه الطرق كما صورها الشيخ محمد عبده تحمل

الدعوة الى التواكل والقدرية، وتنفير النـاس من العمل، وتحت هذه العناوين يمكن دعوة الناس الى قبول الاستعمار والرضى بالحاكم المستبد وقبول الغزو الأجنبي ...."(١)

ولسنا هنا بصدد بحث صدق الاتهامات التي توجه الى المتصوفة فيما يتعلق بعلاقاتهم مع الدوائر الاستعمارية، وإن كنا نتفق مع الرأي القائل بأن ممارساتهم الخرافية لها تأثير ذهني مدمّر على عقلية الجماهير البسيطة التي تنخدع بادعاءاتهم. وما يهمنا هنا هو التأثير السلبي على العقلية الجماهيرية الذي تتركه الآراء الإسلامية المختلفة حول المتصوفة والأولياء.

المتصوّف أو الولي يتأرجح بين الولاية لله والولاية للشيطان، أو بين السماء والأرض. والفرق بين أن يكون ولياً لله أو ولياً للشيطان فرق غير معروف. فالظاهر لا ينبىء بالباطن والمظهر ليس دليلاً على الجوهر. عين الانسان عاجزة عن رؤية الحقيقة، وعقله عاجز عن التعليل. ادعاء الولاية والكرامات تسنده آيات وأحاديث نبويه وآراء لشخصيات إسلامية، والنتيجة: أن يصبح الانسان العـادي على استعداد للتصديق بأي شيء، أو يجمع المتناقضات في ذهنه دون أن تلغي واحدة منهـا، الأمر الذي ينعكس على ميكانيكية التفكير ككل.

ومع أن موجة التعليم التي بدأ يتعرض لها العالم العربي منذ أوائل هـذا القرن قد أتاحت الفرصة لقطاع عريض نسبياً من المتعلمين من الشرائح الوسطى والدنيا أن يتخلصوا قليلاً من جزء من الخرافات التي كانت جزءاً أساسياً من الحياة العلمية والثقافية السائدة. ومع أن العديد من الناس قـد يتسرب اليه الشك بصدق دعاوى المتصوّفة سواء من حيث الولاية أو من حيث الكرامات،

---

(١) أنور الجندي، الفكر العربي المعاصر ...، ص ٨٢.

أو يتسرّب الشك اليه بسبب تصرفاتهم التي تعتبر خارجة عن العرف الاجتماعي الإسلامي التقليدي ، وأن العديد من المتعلمين قد يحاول أن يوفق بين جزء مما تعلمه وبين قناعاته الدينية والاجتماعية ، إلا أن طبيعة الحيـــاة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في البلاد العربية تخمد هـــذا الشك ، وتطفىء جذوة التحليل العقلاني بفعل الضغوط الاجتماعية من ناحية وطلباً للسلامة والراحة من ناحية ثانية .

إن التراث الثقافي للجماهير لقبولها أو رفضها للأوليـــاء هو تراث ديني وتاريخي بالأساس . وخلال آلاف السنين أصبح الكاهن أو القديس أو الولي جزءاً أساسياً من الواجهة الاجتماعية بغض النظر عن حقيقـة الفلسفة الدينية – شكلاً وموضوعاً – التي يستند اليها .

ولأن حظ الشرائح الدنيـا من التعليم يكاد لا يُذكَر[1] فإن قدرتها على التحليل ضعيفة بطبيعة الحال ، وتفتقر الى القدرة على المتابعة والربط ورؤية المتناقضـات الفكرية أو السلوكية إلا فيما يمسها مباشرة وبشكل أقرب الى العفوية . أضف الى ذلك أن « مبدأ جهل الإنسان بغاية الله ومراده » ومبدأ الظاهر لا يدل على الباطن » تعني بالتطبيق العملي أن أحداً لا يستطيع أن يصدر حكمه على الأشياء ، وتعني سيطرة حالة من « الإرجاء الذهني الى يوم القيامة » وهذا ما تجد الجماهير نفسها مضطرة الى الانسياق فيه . ومن ناحية ثانية ، وهذا هو الأهم ، تطبيقاً أن اهتمام الجماهير الفقيرة بالأولياء وكراماتهم هو في الناحية العملية اهتمام وراء حاجات ومصالح صغيرة يريدون قضاءها . فالجماهير البسيطة تخاف الولي أو الصالح لأنها تعتقد أنه قادر على إيذائها اذا هي أغضبته إذ « أن لله رجالاً اذا أرادوا أراد » أو كما ورد في الحديث القدسي « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » وهي ترغب في الولي لأن دعوته مستجابة ولأنه وسيطها الى الله . ولذلك لا يهمها في كثير أو قليل أن يكون شيخ الطريقة عميلاً للاستعمار أو لا يكون ؛ لا لأن الجماهير أقل

---

(١) تصل نسبة الأمية في ريف البلاد العربية الى تسعين بالمئة ولا تقل عن السبعين .

وطنية ، بل لأن صراعاتها اليومية من أجل البقاء ، صراعاتها ضـــد المرض والموت تأخذ كل طاقاتهـا الجسمانية والذهنية . ولأن المجتمع لا يزال متخلفاً حضارياً تحكمه علاقات متخلفة تتسم بالزيف من ناحية ، والقسوة من ناحية ثانيــة ، فإن الفلاح البسيط يهمه أن تتحقق مطالبه الصغيرة ، ولا بأس أن يكون شيخ الطريقة أو الولي أو ضريحه أو خادم الضريح ستاراً يختفي خلفه الضعف والقصور الإنسانيين .

إن المرأة الريفية الفقيرة – أو مثيلتها في المدينة – المهددة بالطلاق لأنها لم تستطع أن تنجب لزوجها خلفاً مستعدة لأن تقبل بنصائح الولي أو الرجل الصالح سواء كانت هذه النصائح نظرية أو عملية. وإذا تحقق لها الحمل، وهذا يعيد الى زوجها رجولته ، وبالتالي كرامته ، ويعزز من قوته الاقتصادية في نظر المجتمع ، اذا تحقق الحمل فلا شيء بعد ذلك يهم ، ويصبح الولي أكثر شعبية وأقدس مكانة .

إن الجماهير الفقيرة تحت وطـأة الاحتياجات اليومية لا تستطيع إلا أن تقبل بالولي كما هو . أما حقيقته فالله بها أعلم .

فإذا انتقلنا الى الشرائح الأرقى في السلم الطبقي، فإننا نلاحظ قلة احتياج أفراد هـــذه الشرائح عموماً للأولياء والصالحين بحكم الإمكانات الاقتصادية « المعقولة » نسبياً التي يعيش بهـــا قطاع الطبقة المتوسطة ، وتوفر الخدمات الطبية والتعليمية في المناطق المدينية بالإضافة الى مـــا تحمله حياة المدينة من تسهيلات مهما كانت كفاءتها قليلة إلا أنها غير متوفرة في الريف .

غير أن عدم استقرار الأنظمة السياسية والتغير المستمر في السلطة الحاكمة (منذ مئات السنين عبر التاريخ العربي) وانعدام الحرية السياسية والاجتماعية وافتقار الدولة الى المؤسسات الدائمة الثابتة التي توفر للفرد الحماية السياسية والضمان الاقتصادي والاجتماعي ، كل ذلك بالإضافة الى الرصيد الخرافي في الذهنية والاجتماعية وعقم أساليب التعلم ينعكس على الموقف العقلي لأفراد الطبقة المتوسطة تجاه المتناقضات التي تذكر عند الصوفيين والأولياء . وهذا يدفعهم الى اتخاذ موقف محايد أو متساهل أو « مغمض العينين» طلباً للسلامة

وابتعاداً عن المشاكل التي قد تترتب على اتخاذ موقف مضاد للرجل الصالح . ذلك أن الخوف من أن يكون الرجل ولياً لله حقاً ، وبالتالي تكون دعوته مستجابة ما زال متأصلاً في نفسية الفرد منذ طفولته . وكما عبّر عن هذا الموقف أحد الأساتذة الجامعيين بقوله : « الأضمن لي والأسلم أن أصدق بأنه ولي . فإن كان ولياً حقاً ربما نالني خير من دعواته وبفضل بركاته . وإن كان كاذباً ووليا للشيطان فإن الله سوف يحاسبه على ذلك ولن يصيبني ضرر لأن نيتي حسنة ومخلصة على أي حال » .

وهكذا وبمثل هـذا الموقف الفردي الذي يفتقر الى الوعي السياسي والاجتماعي والإلتزام تجاه قضايا الجماهير ، يتجاهل كثير من الذين اتيحت لهم فرص التعلم يتجاهلون استمرار الخرافة في أوساط المجتمع لأنهم محكومون بعقيدة الخوف من القوى الخفية الغيبية منذ الطفولة ولأنهم غير متأكدين من مستقبلهم الاجتماعي والاقتصادي ، ويخشون على هذا المستقبل أن يفسده تدخلهم في مسائل الدين والشيطان والأولياء وما شابه ذلك .

أما الفئات الحاكمة فموقفها واضح تماماً : ما دام هؤلاء الأولياء لا يهددون السلطة بشكل أو بآخر فإن صلاحهم أو عدمه مسألة ثانوية .

وعلى الرغم مما تقدم فإن الطرق الصوفية والتي تعتبر العمود الفقري لفكرة الأولياء والكرامات ، ما زالت واسعة الانتشار في وقتنا الحاضر في البلاد العربية من المغرب وحتى العراق ، وأنه على سبيل المثال :

مئات الآلاف في مصر سواء في المدن أو الريف ما يزالون ملتزمين بعمق تجاه طريقة صوفية أو أخرى ... وأنه في عام ١٩٦٤ ذكر (المؤلف) أسماء أربع وستين طريقة صوفية تمارس نشاطها في مصر . وهم ممثلون جميعاً في « المجلس الصوفي الأعلى » ... والذي كان يُعيّن رئيسه من قِبل الخديوي ، ثم من قِبل الملك ، ثم من قِبل رئيس الجمهورية ...[1]

---

(١) M. Berger, Islam in Egypt Today, Cambridge Press, 1970, pp. 63, 64, 67, 68.

وقد حاول الكواكبي أن يرجع إقبال الجماهير على التصوف سواء بالممارسة أو التصديق

الى تضييق الدين على المسلمين (من قبل الفقهاء) ... جعل المسلم لا يكاد يمكنه أن يعتبر نفسه مسلماً ناجياً لتعذر تطبيق جميع عباداته... فبذلك أصبح الجمهور الأكبر من المسلمين يعتقدون في أنفسهم التهاون اضطراراً ... وكم من مسلم يحكم عليه الفقيه الشافعي بأنه نسل سفاح ومقيم على السفاح وراض لمحارمه بالسفاح ، الى غير ذلك ...

فبهذا التضييق صار المسلم لا يرى لنفسه فرجاً إلا بالإلتجاء الى صوفية الزمان الذين يهونون عليه الدين كل التهوين .

ولم يكن الكواكبي في رأينا بعيداً عن الصحة ، ضمن الإطار الديني لتفسير سلوكيات الجماهير . إلا أننا من الناحية الاعتقادية نرى أنه لا يستبعد أن يكون شعور المسلم وخاصة في الطبقات الدنيا بأنه متضائل القيمة الى حد يكاد يكون طلقاً بالنسبة لله وحكمته وإرادته وقدرته ، وانعدام التسلسل الهرمي في المكانة الدينية كما هو في المسيحية مثلاً قد ساعد على قبول عامة المسلمين لفكرة السلّم الصوفي ، على اعتبار انه يشكل تدرجاً مقبولاً بين ضآلة الإنسان وعظمة الله. كذلك فإن الهوة الضخمة بين الله والإنسان لا تجعله قادراً ولو من الناحية النفسية على اجتيازها بدون وسطاء ، خاصة وأن أحواله الاقتصادية والاجتماعية السيئة تؤكد له عجزه وانسحاقه (١) .

إن أهم ما يترتب على الأفكار الصوفية فيما يتعلق بذهنية الجماهير هو :

١ — الإيمان بالأولياء وما يودع فيهم من أسرار وبالتالي قدراتهم الخارقة.

٢ — الإيمان بالكرامات التي تنسب اليهم .

٣ — الأدعية التي ألفوها لقضاء الحاجات .

٤ — تعميق فكرة الاستسلام والإذعان للواقع والزهد فيه .

٥ — ممارسة العديد من الطقوس الجماعية التي تنسي الانسان واقعه وتفصله عنه .

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي ، أم القرى ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ .

وعلى مر القرون تجمعت في معظم أرجـاء الوطن العربي ، وخاصة مصر والعراق والشمال الافريقي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب) قائمة طويلة من الأسماء التي تنظر اليها الجماهير كأولياء لها مقامات منتشرة في المدن والقرى. فمن أشهرها في بغداد -وتعرف بمدينة الأولياء لكثرة من عاش أو دفن فيها- عبد القادر الجيلاني ، والجنيد ، وشهاب الدين السهروردي . وبقرب دمشق ضريح ابن العربي الصوفي الشهير ، وفي مصر ابراهيم الدسوقي وأحمد البدوي ومقاماهما في طنطا . ومن الأولياء المعروفين كذلك الشاذلي. وتكثر الأضرحة لأولياء مختلفين في الطريق الى طرابلس الغرب ، ليبيا [1] . أما ضريح الشيخ السنوسي فهو في الصحراء قرب جربوب . وفي تونس أضرحة ابن عروس ، وابن قاسم ، وابن سعيد . أما أشهرهم فهو سيدي مخلص . ويشتهر سيدي بو مدين في الجزائر ، وكذلك عبد القادر الجيلاني ولي العراق الشهير ، ومن أولياء مدينة مراكش في المغرب الأقصى بن عباس وسليمان الجزولي ، ومن أشهر أوليائهم « مولاي ادريس » مؤسس الأسرة الادريسية .

ومع أن العدد الأكبر من الأولياء هو من الرجال ، إلا أن حظ النساء في هذا المضمار لم يكن صفراً . فالسيدة نفيسة والسيدة زينب في مصر مثلاً شهرتها لا تقل أبداً عن الأولياء الرجال المعروفين . وأسماء الأولياء كثيرة ومألوفة تبتدىء عادة بلقب الشيخ أو السيد أو سيدنا أو السيدة أو مولاي أو «الست» أو الشيخة الى آخر القائمة . وكثير من هذه الأسماء غير معروفة إلا في محيطها الضيق مثل القرية أو الحارة . وبحيث يكاد المرء أن يستنتج أن كل تجمع سكاني له مولاه أو سيده الخاص والذي غالباً مـا يكون غير معترف به لدى التجمعات السكانية الأخرى . ونجد هنا تشابهاً الى حد كبير بين فكرة الألياء وفكرة القديسين عند المسيحيين .

---

(١) راجع على سبيل المثال كتاب الدكتور عبد الجليل الطاهر، المجتمع الليبي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٩ ، ص ١٦٥ - ١٧٣ .

٢ – الكرامات

لا نريد هنا أن نبحث في موضوع الكرامات من حيث مدلولاته الصوفية أو حقيقة كونه قائماً على أسس دينية صحيحة من وجهة نظر رجال الدين أنفسهم ، وإنما يهمنا هنا مفهوم الكرامات في ذهن الجماهير وما يمكن أن تكون عليه هذه الكرامات ، وإن كان بإمكاننا من الناحية التقريرية أن نقول بأن العديدين من رجال الدين يقرون جواز حدوث الكرامات ، والقليلين منهم ينكرونها .

إن معظم الأفكار الدينية في بقاع العالم المختلفة ، كما هو معلوم ، ترسخ في أذهان الجماهير الفكرة القائلة بأن أمراً ما خارقاً للعادة ، غير مألوف الناس ، غير متفق مع ما هو سائد من علاقات طبيعية قد يظهر على أيدي بعض الرجال الذين تربطهم بالآلهة علاقة ما خاصة . فالأنبياء تقع على أيديهم المعجزات ، والقديسين أو الأولياء قد تظهر على أيديهم كرامات أو خوارق لا تختلف من حيث الظاهر كثيراً أو في أذهان الجماهير عما هو معجزة[١].

---

(١) ورد في رسالة القشيري أن « الإمام أبو اسحاق الاسفرايني رحمه الله ... يقول من الفرق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها والولي عليه سترها واخفاؤها والنبي صلى الله عليه وسلم يدعي ذلك ويقطع القول به والولي لا يدعيها ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكراً » . القشيري ، ص ١٥٨–١٥٩ . يذكر آدم متز في كتابه الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الجزء الثاني ، ص ٥٣ : « اننا لا نجد أنه قد وقع على أيدي المسلمين في ذلك العهد ما كان يقع على أيدي أصحاب الخوارق النصارى من إحياء الموتى ؛ أما المسلمون فلم يصلوا إلا الى قيام الحيوانات بعد موتها على أيديهم » . (كما جاء في رسالة القشيري ، ص ١٧٤) .

وقد جاء في كتاب جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف، لمحمود أبو الفيض المنوفي الحسيني ، أن :

الكرامة للولي رتبة ثانوية للمعجزة بالنسبة للنبي، وتأتي في الترتيب بعدهـا مباشرة ، فمعجزة النبي مقرونة دائماً بالتحدي واستدرار الايمان والتصديق من قلب مشاهدها عن طريق المعجزة بخرق العادة كإسراء محمد وانفلاق البحر لموسى وإحياء الموتى لعيسى وغير ذلك ، ومعجزة محمد ﷺ الكبرى في أنه أمّي وأنه أنزل عليه القرآن...[1]

وفي المنطقة العربيـة راجت القصص والحكايات العديدة عن الكرامات بسبب اكتساب هذه الكرامات طابعاً دينياً ، سواء من حيث التفسير أو من حيث علل الحدوث . وكان المتصوفة هم أكثر الناس ترويجـاً لهذه المسألة بحيث لم يتركوا شيئاً خارقاً للعادة مبطلاً لقوانين الطبيعة يمكن أن يتصوره خيالهم إلا ذكروه ونسبوه الى أحد أوليائهم . فقد ورد في رسالة القشيري أن الكرامات :

قد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمن عطش ، أو تسهيل قطع مسافة في مـدة قريبة ، أو تخليصاً من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف ، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة [2].

وفي الوقت الذي حارب بعض علماء المسلمين ، وخاصة الفقهاء ، مقولات الصوفية وما يدور منها حول الكرامات كما فعل الإمام ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس حيث نسب هـذه الظواهر الى الشيطان [3] ، إلا أن الجماهير بحكم واقعها الحياتي ومستوى تقدمها العلمي كانت وما تزال ميالة الى تصديق

(١) محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني ، جمهرة الأولياء ، الجزء الأول ، ص ١٠٥ .
(٢) رسالة القشيري ، ص ١٦٠ .
(٣) إن عدداً من خاصة الصوفية لم يعطوا الكرامات شأنـاً كما هو واضح في رسالة القشيري، ص ٢٦ ، ١٦٤ ، ١٧٢ . فيحكى عن أبي سهل الصعلوكي (المتوفى عام ٢٢٣ هـ أو ٢٨٣ هـ / ٨٨٦ أو ٨٩٥ م) أنه قال : «أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك» .

كثير من هذه القصص . وواضح أن نسبة خوارق الأحداث الى أئمة الصوفية يلهب خيال الجماهير ويزيد من تعلقها بهؤلاء الأئمة وأتباعهم ، ويعزز في نفس الوقت المكانة المادية والمعنوية للمتصوفة في نفوس الجماهير سواء رغبة في أن يصيبهم جزء من الكرامات الخيرة لهؤلاء الأولياء أو خوفاً من انتقامهم الذي يوحون بقصصهم أنه قد يكون مدمراً . فقد ورد في الحديث القدسي :

مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ...[1]

وفي حديث قدسي آخر :

عبدي أنا الذي يقول للشيء كن فيكون، فأطعني اجعلك بقدرتي ربانياً تقول للشيء كن فيكون[2] .

والصوفيون يؤكدون أن ما يذيعونه بين العامة من كرامات قد ورد في القرآن وفي الأحاديث استناداً الى المقولة بأن الله يفعل ما يريد ومتى يريد وبالكيفية التي يريد دون أن يكون هناك اشتراطات من نوع معين

... والعجب كل العجب ممن ينكر الكرامات ، وقد جاءت في الآيات الكريمات ، والأحاديث الصحيحات ، والآثار المشهورات ، والحكايات المستفيضات الصادرات عن العيان والمشاهدات، من السلف والخلف ، وبلغت في الكثرة والشهرة في جميع البلاد ، مبلغاً يخرج عن الحصر والتعداد. قال: ثم إن كثيراً من المنكرين لو رأوا الأولياء والصالحين يطيرون في الهواء لقالوا هذا سحر ، أو قالوا هؤلاء شياطين ...[3]

وليس هناك شرط عقلاني أو مواصفات خاصة يجب توافرها في صاحب الكرامة . فقد يكون رجلاً عادياً متديناً أو غير ذلك ، عاقلاً أو أبله . يقول ابن عطاء الله :

---

(١) د. عبد الحليم محمود ، منبر الاسلام ، العدد ٥٤ ، ابريل ١٩٧٤ ، ص ٣٨ .
(٢) محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني ، جمهرة الأولياء ، ص ١٠٦ .
(٣) يوسف بن اسماعيل النبهاني ، جامع كرامات الأولياء ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٢ ، الجزء الأول ، ص ٤٢ .

ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة [1]

بل قال بعض الصوفية عن كرامات معينة :

ما رأيت هذه الكرامات إلا على أيدي البله من الصادقين [2] .

أما الكرامات فقد قسموها الى أنواع أو فصائل ، جعلها التاج السبكي في طبقاته الكبرى أكثر من أربع وعشرين نوعاً : إحياء الموتى ، كلام الموتى ، انفلاق البحر والمشي على الماء ، إنزواء الأرض ، كلام الجمادات والحيوانات ، إبراء العلل، طاعة الحيوانات ، طي الزمان ونشر الزمان ، استجابة الدعاء ، إمساك اللسان ، جذب بعض القلوب ، الاخبار ببعض المغيبات والكشف ، الصبر على عدم الطعام والشراب ، مقام التصريف، ، القدرة على تناول الكثير من الغذاء ، الحفظ عن أكل الحرام ، رؤية المكان البعيد من وراء الحجب ، الهيبة (بحيث يموت المشاهد من الرؤية) ، كفاية الله لهم الشر، التصور بأطوار مختلفة ، اطلاع الله اياهم على ذخائر الأرض، عدم تأثير المسمومات... الخ[3].

ثم جعلوا لكل عضو من أعضاء الانسان كرامة خاصة به ولكل طبقة من الأولياء كرامات، بحيث يبدو المشي على الهواء وتحويل الرمال الى طعام، والماء الى يابسة ، والشبع من غير طعام، وكأنه جزء طبيعي من حياة هؤلاء، الأمر الذي يشعر الجماهير بالعجز أمامهم والالتجاء اليهم دائماً . وهذا التنوع في أنواع الكرامات يتيح للأولياء فرصة أكبر للحركة ، فيستطيعون أن يفسروا أي شيء وبأي شيء .

إن أهم ما يميّز خَلق الأولياء ، هو السهولة التي يمكن للولي أن يصبح ولياً في نظر الجماهير المسلمة . ففي الوقت الذي يقل عدد القديسين عند المسيحيين عن عدد الأولياء ، نلاحظ أن إعلان قديسية القديس يحتاج الى

(١) الحسيني جمهرة الأولياء ، ص ١٠٧ .

(٢) النبهاني جامع كرامات الأولياء ، ص ٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٨ — ٥١ . يبدو أن « مسألة إحياء الموتى » التي لم تكن من الخوارق التي وصل اليها المسلمون زمن القشيري — القرن الرابع الهجري — أصبحت تعد من الكرامات التي يقوم بها الأولياء زمن تاج الدين السبكي في القرن الثامن الهجري .

إجراءات كنسية قد تأخذ قروناً . وقد تتأخر الكنيسة في هذه الاجراءات في الوقت الذي تكون الجماهير قد أحاطت القديس بهالته القدسية لما يروى عنه من حكايات [١]. أما بالنسبة لجماهير المسلمين فإن شيوع الحكايات عن كرامات إنسان ما مهما كانت ظروفه غريبة أو غامضة كافية لتعميده ولياً في نظر البسطاء من الجمهور. فقد ذكر الحسيني في كتابه جمهرة الأولياء أن:

لله رجال لا يعرفهم إلا الخاصة، ولله رجال يعرفهم الخاصة والعامة، ولله رجال لا يعرفهم الخاصة ولا العامة، ولله رجال أظهرهم في البداية وسترهم في النهاية ، ولله رجال سترهم في البداية وأظهرهم في النهاية ، ولله رجال لا يعرفهم سواه ولا يطلع على ما بينهم وبينه إلا الحفظة الكرام الذين وكلوا بحفظ السرائر. ولله رجال اختص الله بمعرفتهم [٢].

وبهذه السلسلة من الاحتمالات التي تفترض أي شيء يسد الحسيني الباب أمام أي تعليل عقلاني أو أي استدلال منطقي ممكن اللجوء اليه ، حتى يطمئن الانسان الى دعوى المدعي ، بمعنى آخر : الاحتمال قائم بأن يكون أي انسان ولياً .

ويقول في موضع آخر :

وهمة الوالي لا تخطيء في الغالب هدفها ولذا يقول ﷺ : « إن لله رجالاً لو أقسموا على الله لأبرهم في قسمهم » ومعناه : ان لله رجالاً اذا اهتموا بالشيء كان بإذن الله حصوله واقعاً [٣].

ولقد أثرت هذه الحالة من انعدام «المواصفات المنطقية» المتعلقة بالكرامات أو أصحابها ، في عقلية الجماهير العربية ، بحيث عمقت من عدم القدرة على التمييز بين ما هو معقول وبين ما هو غير معقول . ورسخت من الخاصية الذهنية المميزة للمنطقة، وهي الاستعداد لقبول أي شيء وتصديق أي شيء.

---

(١) راجع ما جاء بهذا الخصوص في :
Encyclopaedia Britannica, Saints, vol. 19, 1968, pp. 886 - 888.

(٢) الحسيني جمهرة الأولياء ، ص ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٦ .

هـذا القبول والتصديق الذي يجمع في أغلب الأحيان المتناقضات النظرية والتطبيقية ، ويكون بالدرجة الأولى على حساب الحقائق العلمية أو المفاهيم العقلانية المدعومة بالعلم والحضارة الحديثة .

إن المدقق في الذهنية العربية المعاصرة يلمح آثاراً واضحة لفوضى التصديق واعتباطية القبول وتناقضية المنطق تنسحب على موقف الإنسان العربي من الانجازات العلمية أو التكنولوجية المعاصرة ، أو من الأحـداث السياسية أو الاقتصادية .

ولا يقتصر التصديق بالكرامات وما يترتب على ذلك من « الغاء العقل » على الطبقات الفقيرة الجاهلة ، بل يتعداها ليشمل قطاعات عريضة من المتعلمين أيضاً . وما يزال الانسان العربي المتعلم عاجزاً في أغلب الأحيان عن اتخاذ موقف حاسم من الخرافة التي تروى على صورة كرامة لأحد الأولياء . وعلمية المتعلم العربي لا تزال محصورة في أماكن خاصة تتطلب الظهور بمظهر العـالم أو التحدث في العلم ، وكما عبّر الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه **تجديد الفكر العربي** :

وأما ثالث العوامل المقيدة لعقولنا عن الأصالة ، المكبلة لأرجلنا عن السير ، فهو ذلك الميل الشديد الذي نحسه في نفوسنا نحو أن تكون قوانين الطبيعة لعبة في أيدي نفر من أصحاب القلوب الورعة الطيبة ؛ فيكفي أن يشاء الله لواحد من عباده أن يكون من «الصالحين» لينصرف «صلاحه» هذا – في أوهام الناس – لا الى شق الترع وبناء الجسور ورصف الطرق وإقامة المصانع ؛ بل لينصرف « صلاحه » نحو تعطيل أي قانون طبيعي شاء ؛ فهو يأتي لك بالفاكهة من هواء الغرفة ، وليس من الضروري عنده أن تُساق الفاكهة الى تربة وماء وشمس وهواء ؛ وهو يقرأ لك الطروس المطوية ، لأن القراءة عنده ليست مشروطة ببصر ورؤية .

ويؤكد الدكتور زكي نجيب محمود الملاحظة التي أوردناها سابقاً فيقول :

ولو اقتصر الأمر في هذا على سواد العامة ، لما أخذنا عجب ...

لكن الأمر يجاوز هؤلاء الى العلماء أنفسهم ، وأي علماء ؟ علماء الكيمياء والفيزياء والنبات وطبقات الأرض؛ ومتى ؟ في عصرنا هذا ؛ وأين ؟ في قلب الجامعات !!

انك في يومنا هذا ليأخذك العجب أشد العجب، اذا ما أتيح لك أن تجالس طائفة من رجال العلوم الطبيعية ، لتستمع الى ما يديرونه بينهم من أحاديث عن تصديق وإيمان ، اذا ما فتح لهم موضوع الخوارق والكرامات ؛ إنهم عندئذ يقبلون وهم في نشوة السعادة والرضى أن يحكى عن أصحاب الصلاح والطيبة والتقوى كل الخوارق التي تبطل أي قانون شئت من قوانين الطبيعة ، كأن الله تعالى يرضيه أن تكون سنته في كونه لهواً وعبثاً ؛ إن هؤلاء العلماء وهم في معاملهم لا يقبلون إلا أن تكون قوانين العلم حاسمة صارمة، فما الذي يصيبهم اذا ما تركوا معاملهم وعادوا الى منازلهم يسمرون؟ أيتركون عقولهم مع معاطفهم البيضاء في حجرات المعامل، ليعودوا الى منازلهم وقد فرغت رؤوسهم إلا من الخرافة وانعدام النقد وسرعة التصديق؟ أيثقل عليهم عبء العقل ، فيلقون به آناً بعد آن ليستريحوا في ظل الخرافة الندي الطري الممتع اللذيذ ؟

ويستطرد الدكتور زكي نجيب محمود فيقول :

انني إذ قرأت ما أطالعه من حكايات الخرافة الساذجة عند أسلافنا ... بما أسمعه بأذني من حكايات الخرافة يرويها بعض رجال العلم فينا اليوم ، تأخذني الدهشة العميقة ، وأتساءل : هل زاد هؤلاء الرجال الذين ظفروا في ميادين العلوم الطبيعية والرياضية بأعلى الدرجات العلمية على أولئك الأسلاف السذج شيئاً في درجة التصديق؟ هل زاد هؤلاء على أولئك شيئاً إلا صفحات من علوم « حفظوها » ليلقنوها لطلابهم تلقيناً لقاء الرواتب ينفقونها على مظاهر الحياة. فيبدون للأعين وكأنهم اختلفوا عن سائر العامة العوام في نظرتهم اللاعلمية الى تسلسل الأحداث ؟

أسلافنا السذج... وأقراننا المعاصرون في عصر العلوم كلاهما سواء في قبول ما يحكى لهم من أن من ذوي النوايا الطيبة والقلوب المؤمنة مَن يطير في الهواء بلا أجنحة ، ومَن يسير على الماء بلا حوامل ، كلاهما سواء في تصديق ما يحكى لهم من قدرة أصحاب الكرامات على أن يغرفوا من وعاء صغير على النار طعاماً يكفي ألفاً من عباد الله الجائعين ... كلاهما سواء في تصديق ما يحكى لهم عن القوة السحرية لكلمات تكتب أو تقال ... فإذا المهزوم المغلوب غالباً منتصراً ، واذا الرزق كثير والخير وفير بغير عناء العمل [1] .

هذا العجز لدى المتعلم العربي له أصوله المادية وأصوله الذهنية والنفسية . فرغم أن العلم قد أتاح للإنسان العربي نوعاً جديداً من المعرفة ، إلا أن طبيعة الحياة في البلاد العربيـــة ما زالت بعيدة عن الاستقرار والمنطقية والعصرية والثقة التي تتناسب مع العلم . ما زال الانسان العربي يشعر أن مستقبله غير مضمون ؛ مشاكله ليست أكيدة الحل ؛ قد يتعرض له رئيسه بالتسلط ، لأن المؤسسات لا تعدو عن كونها محكومة بمزاج أركانها ونزواتهم . كل هذا يقوي نزعة الخوف من المجهول والخوف من المستقبل ، ويدفع المتعلم الى التصديق بالكرامة ، ما دامت تنسب للولي الصالح . فالتصديق على أي حال لا يثير غضب الوالي ، وبالتالي ينجو الانسان من انتقامه . أو بعبـــارة مختصرة ، إن مسالمة الخرافة ومسالمة الأولياء بتصديق مـا يقال يجنب المتاعب . فإذا أضفنا الى ذلك استمدادية العقل العربي منذ الطفولة لقبول المتناقضات وعدم الشعور بالتناقض ، والفصل بين العوامل ، أي العقلية التجزيئية ، نجد أن تكوين المتعلم العربي الحالي لا يجعله أقل تصديقاً للكرامة من الانسان البسيط. بل ربمـا بفارق واضح هو محاولة المتعلم لأن « يفبرك » تفسيراً علمياً للكرامة التي يقبلها الانسان البسيط استناداً الى إيمانه الديني .

ولقد نشأ عن الغيبية المفرطة للأفكار والممارسات الصوفية وولعهم بالظهور

---

(١) د. زكي نجيب محمود ، تجديد الفكر العربي ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٥٧ – ٦٠ .

أو التظاهر بهيئات غير مألوفة (١) ، واعتقادهم بأن الله يضع سره في أوليائه دون أن يظهر ذلك الناس وأن الولي قد يبدو للناس إنساناً بسيطاً عادياً ، أو درويشاً (٢) أو حتى أبلهاً أو مجذوباً (٣) ؛ وقد يكون غنياً أو فقيراً ، واعياً أو غائباً عن الوعي في بعض الأحيان ، نشأ عن ذلك كله خلط عجيب بحيث أصبحت الجماهير الجاهلة غير قادرة على التمييز بين الدرويش وبين الأبله، بين الغائب عن الوعي وبين « العبيط » ، بين الولي الصالح وبين « الذكي » الذي يتعابط ويتدروش ليكسب عطف وصدقات البسطاء وعطاءاتهم (٤) . ولذا لم يكن غريباً أن تتمتع عدد من البلهاء والمجاذيب ، أو المصابين بأمراض عقلية وعصبية ، بصفة الولاية لدى الجماهير البسيطة . وأخذ الناس يتقربون اليهم ويطلبون منهم البركة ، ويسألونهم التوسط لهم لقضاء الحاجات . ويعتبرون دخول أحدهم لبيوتهم تشريفاً لهم وتبريكاً . ويتفاءلون بطلعته

---

(١) منها لبس المرقعة والقلنسوة الطويلة. انظر طبقات السبكي ، جزء ٣ ، ص٢٥٧ ، و رسالة القشيري ، ص ١٦ و ١٧ ؛ يتيمة الدهر الثعالبي ، جزء ٣ ، ص ٢٣٧ . كذلك راجع :

Lane, E.W.,...The Manners and Customs of the Modern Egyptians, London, 5 th. ed. 1860. ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) قد اختلف أهل الحقيقة في هل يجوز أن يعلم الولي أنه ولي . فقال بعضهم : لا . وقال بعضهم : يجوز للولي أن يعلم أنه ولي باطلاع الله تعالى على عاقبة أمره ودوام حاله بطريق الكرامة . وقالوا : لله رجال لا يعرفهم إلا الخاصة ، ولله رجال لا يعرفهم الخاصة ولا العامة . وفي الحديث القدسي عن الله عز وجل: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري». انظر الحسيني جمهرة الأولياء ، جزء ٢ ، ص ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٢١ . كما ورد في رسالة القشيري أمثلة مختلفة تشير الى « أن أحوال الولي تكون مستورة ». ص ١٧٢ ، ١٧٤ .

(٣) المجذوب في مصطلح الصوفية : من اصطنعه الحق لنفسه واصطفاه لحضرة أنسه . الحسيني جمهرة الأولياء ، جزء ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٤) ورد في قوت القلوب لأبي طالب المكي أنه حكي عن الإمام الصوفي أبي سهل التستري المتوفى عام ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م أنه قال : « بعد سنة ثلاثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا (يقصد التصرف) لأنه يحدث قوم يتصنعون الخلق ، ويتزينون بالكلام ، لتكون مواجيدهم لباسهم، وحليتهم كلامهم، ومعبودهم بطونهم » . جزء ١ ، ص ١٦٢ . وشبيه بهذا الكلام ما ورد في مقدمة الرسالة القشيري ، ص ٢ - ٣ .

ويتغاضون عن كثير من أعماله . ويحاولون تفسيرها بشكل يتناسب مع قدسية السر الإلهي المودع فيه. أما في الحالات التي يتجاوز فيها «جنونه» أو«خبثه» الحد الذي يستطيع أهل الحارة أو القرية أن يتغاضوا عنه ، فكثيراً ما ينقلبون عليه ويجردونه من « ولايته » وسرعان ما يتحول في نظرهم الى « شيطان » يستحسن التخلص منه .

يصور لنا محمود تيمور بدقة موقفاً كهذا في قصته الشيخ سيد العبيط . فقد كان الشيخ سيد العبيط واحداً من أولياء الله الذين تكن له القرية كل محبة واحترام. كانت تنظر الى أفعاله غير المفهومة، ومواقفه الشاذة أحياناً و كلماته المخبولة (العبيطة) وكأنها توحى اليه ، ويلهم اليها إلهاماً . وكان القرويون يترجمون كل ما يقوم به الشيخ سيد العبيط الى « كرامة » و « بركة » يمنحها لهم .

وفي الواقع لم يكن الشيخ سيد إلا واحداً من القرويين ، أصيب بحادث فاختل عقله، وقبله الناس على أنه واحد من الأولياء. وبعد أن تطور اختلاله العقلي الى درجة أصبح فيها خطراً على القرية ، اضطهدوه ، وفي النهاية تخلصوا منه .

إن المدقق في مواقف الجماهير من الأولياء يلاحظ بسهولة – وكما هو متوقع طبعاً – أن درجة التصديق بالأولياء وكراماتهم تعتمد على مواقع الشريحة الاجتماعية في السلم الطبقي ، وأن الجماهير الأكثر فقراً وكبتاً هي الأكثر تصديقاً . أما الشرائح الغنية سواء في المدينة أو الريف فهي أمنع من أن تصدق مثل هذه الخرافات وأغنى من أن تلجأ الى الأولياء الذين كثيراً ما ينظر اليهم من الشرائح الغنية كمدعين ومشعوذين ومجاذيب . يستثنى من ذلك الحالات التي لا تستطيع الثروة والمكانة السياسية أو الاقتصادية تحقيق هدف لصاحبها ، مثل الحصول على ولد ذكر أو استجلاب زوج .. الخ . ففي هذه الحالة تعتمد درجة التصديق على درجة الجهل ، إذ تكون أكثر في القطاعات الجاهلة منها في المتعلمة .

ففي رواية أهلا وسهلا للدكتور حسين مؤنس نجد أن عمدة كفر سهيل

مع انه ليس أقل جهلاً من رجال كفر سهيل إلا أنه بحكم غناه ومركزه أقل منهم حاجة الى الأولياء. ولذا فهو أذكى وأكثر دهاء من أن يخدع بادعاءات خادم مقام الحسين عند زيارته القاهرة لأول مرة. اتجه العمدة وفقيه القرية الشيخ عبد الجليل نحو المقام ووضع يده على نحاسه المتشابك ...

وأخذ يقرأ الفاتحة، فـإذا هو في أولها إذ راعه صوت عابث يعكر جلال المكان ويقول في صوت بغيض لا جمـال فيه: « أنا محسوبك !.. أنا حبيبك .. شيء لله يا حبيبي .. شيء لله يا حبيب الصالحين .. » ونظر العمدة فإذا بمسخ هو أقرب الى المهرجين وحواة سوق الخميس منه الى أهل الحشمة والتقى، على رأسه عمامة خضراء تدور على طربوش أصفر، وقد تدثر بجلباب من كل لون، رقع حمراء وخضراء وصفراء وبيضاء .. وقد علق في رقبته مسبحة طولها متر، وأحاط خصره بحزام تمتد منه حمالة من الجلد الى الكتف كأنه جندي ميدان، وهو يتمايل ويتراقص كأنه مهووس أو مأخوذ، مردداً غزله السخيف كأنه يهذي.. وتأمل العمدة وجهه البشع... فاستعاذ بالله.. وكلما شرع يقرأ الفاتحة أفسد القراءة عليه ذلك المسخ العابث، حتى ضاق صدره من طول ما بدأ وأعاد، وما شعر إلا وهو يتجـه نحو هذا المخلوق ويمسك به من قفاه بكل قوته، فصرخ الرجل، ومضى العمدة بـه حتى الباب فدفعه دفعة ألقت به خارجاً، وإذ بأصوات تصيح: « حرام عليك يا راجل !.. هذا محسوب الحسين .. هذا ولي من أولياء الله .. هذا حمامة المقام .. هذا حارس الحسين !..»[1].

ويتمتع عادة « الأولياء » و « الصالحون » « الأموات» بالإحترام والتقديس أكثر بكثير ممـا يناله الأحياء منهم. ولذا نجد الجماهير البسيطة تتردد على مقاماتهم وقبورهم تتلمس منها البركة وقضاء الحاجات الى الدرجة التي يتحول « القبر » أو « المقـام » ذاته الى مكان شبه مقدس تنسج حوله الأساطير

---

(١) د. حسين مؤنس أهلا وسهلا، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٩٦ – ١٩٧.

وتخترع له الحكايات التي يتناقلها فرد عن آخر دون أن يكون للإنسان الذي يروي الحكاية تجربة ذاتية في الموضوع .

وفي كثير من الأحيان لا تكتفي الجماهير بالبسيطة بزيارة قبور الأولياء بصورة مبسطة ولا بالطلب الى الولي أن « يقضي حاجة المحتاج » عن طريق التوسل الى الله أمـــام ضريح الولي بل تقام كثير من الطقوس التي تعود في جوهرها الى أصول وثنية . بل إننا نجد وحتى في وقتنا الحاضر أن فكرة الجماهير عن بعض الأولياء تختلف كلية حتى عن الأسطورة الأصلية المتداولة عن الضريح .

يعلق الدكتور حسن سعفان، أستاذ الاجتماع بجامعة الأزهر، على الاحتفال بمولد « أبي مسلم » في محافظة الشرقية بمصر بقوله :

وفي بعض الأحيان يتناسى الناس أن الاحتفال بالمولد ليس إلا للذكرى والعبرة ولتجديد ثقتهم بالله . وأن المحتفى بمولده ليس إلا مجرد بشر كان مثالياً في أخلاقه ولكنهم يتقربون اليه بشكل يجعل منه شبه إله وهذا أكثر ما يكون استنكاراً من الدين الاسلامي .. الذي حرص على التمسك بأن الله وحده هو الذات العليـا ولا إله آخر معه [1] .

وواضح أن تقديس الأموات بالإضافة الى كونه عادة قديمة جداً توارثتها الجماهير جيلاً بعد جيل ، وترتبط بالأديان البدائيـة والسحر والشعوذة والخوف من الموت وجهل أسبابه ، إلا أن « الأولياء الأموات » أو « القبور » تعطي بطبيعة الحال مجالاً أوسع لاختراع القصص والأعمال الخارقة « والتي هي من الشروط الهامة » للاعتقاد بولاية الولي . يضاف الى ذلك أنهـا تعطي فرصة للمتكسبين والمشعوذين الذين يقومون على « خدمة هذه المقامات » . فيتمتع «الخادم» بجزء من الاحترام ويأخذ أحياناً دور الوسيط بين الجماهير والولي .

ويجيد ذو النون أيوب في روايته الدكتور ابراهيم ، تصوير اكتشاف والد

---

(١) جريدة الجمهورية (القاهرة) ١٩٦٥/٨/١٩ ، ص ٦ .

بطل الرواية – وكان « درويشاً متجولاً يقتات على الصدقات ، ويترنم بمحامد النبي مصطفى » – قبر الولي أبي الحسن ، في قرية نائيــة من قرى الموصل في العراق ، غاية الإجادة [1].

« فلولاه (أي الدرويش) لبقي قبر الولي بقعة من الأرض كثيرها يبول فيها القوم ويدنسونها دون أن يدروا أن تحت ثراها ولياً عظيماً ذا بأس شديد وفتك ذريـع » [2].

أما كيف علم الدرويش «الشيخ اسماعيل» بوجود هذا الولي أصلا ثم وجود قبر له في تلك البقعة من الأرض ، فيعود الى أنــه وقف صباح يوم في وسط القرية ينذر القوم « بعذاب الدنيا وجحيم الآخرة » لأن :

في قريتكم ولياً وأنتم عن هذا الشرف غافلون ، لقد جــاءني في المنام يشكو من مرور الحيوانات فوق قبره وعدم احترام الناس لثراه.. وصاح القوم : « أظهره لنا لنبني فوق جثمانه قبة ونستعين بـــه في الملمات » [3].

فطلب الشيخ اسماعيل أن يمهلوه الى اليوم التالي ليصلي ويتهجد « لعل الله يرشدنا اليه » [4]. وكان يخرج الى الحقل في منتصف الليل بين آونة وأخرى، فيقف هنا وهناك يهلل ويكبر » [5]. وفي صباح اليوم التــالي وبعد أن أنذر القوم بأن من كان غير سيد وابن سيد « سيصيبه العمى وتشل يــده اذا تقدم لحفر القبر » [6] ، وذهب لوحده الى بقعة معينة من الحقل . وبعد أن حفر نصف ذراع رفع بيده «حربة يلمع نصلها في ضوء الشمس ومعها قطعة خضراء» [7].

---

(١) ذو النون أيوب الدكتور ابراهيم ، حياته وآثاره ، شركة التجــارة والطباعة ، بغداد ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ ، ص ٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

(٦) نفس المصدر ، ص ٥٤ – ٥٥ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٥٥ .

فارتفع صياح الجماهير ، وأسرعوا الى البقعة . فأعـاد الشيخ اسماعيل التراب الى محله « خوفاً من أن تبهر أنوار الولي الناظرين اليه فتعميهم »[1]. وسرعان ما أقام القوم على القبر القبة ، ووضعوا في قمتها كفاً خضراء جلبوها للولي من مدينة الموصل . وأصبح الشيخ اسماعيل «المقيم» على قبر الولي يتعهده بالخدمة ، ويستلم النذور باسمه . وأصبحت القرية مركزاً للقرى المجاورة يحج اليها القوم ويقدمون النذور والقرابين الى الولي . ولم تمض بضع سنوات حتى كان أهـل القرية ينظرون اليه بخشوع حين كان يتكلم . فقد أصبحت سلطته أكثر من سلطة روحية ، إذ آل اليه نصف أراضي القرية تقريباً أملاكاً خاصة ، رُبعاً باسم الولي ورُبعاً باسمه[2].

كتب السيد مصطفى الماحي في تقرير محفوظ في دائرة الأوقاف العراقية عن النفائس والأموال المخزونـــة في العتبات المقدسة في النجف وكربلاء . وذكر أنه اتصل بالسادن ليطلعه عليهـا ، والذي لم يسمح له برؤية صندوق داخل المقصورة والذي فيه كما يعلم « كثير من الماس والحجارة الكريمة في مصوغات مرصعة »[3]. أما قطع السجاد الأثرية الثمينة فقد تمكن من رؤيتها ولكنه تألم أشد الألم للإهمال وعدم تقدير قيمتها العظيمة وتطرق يـد العث اليها . كذلك لم يشاهد « الخزانة الكبيرة » والتي قـــال مسؤول سابق في الأوقاف أن فيها من «الدرر النادرة ومنقلة من الذهب جمرها يواقيت متوهجة ورمادها مسك . كما أن فيها بدلة نسائية منسوجة كلها من اللؤلؤ» . ويلاحظ الكاتب أن هذه الكنوز « غير مسجلة لدى أية جهة وأنهـــا موضوعة تحت تصرف السادن بلا حسيب ولا رقيب » . ثم يعلق أن هذا يفسر « ما يتمتع به مرتزقة العتبات المقدسة من ثراء عريض وحياة باذخة فيها الكثير من العجرفة والاستعلاء على عامة الناس وليس فيهـا شيء من التدين والورع[4] . كما يفسر

---

(١) ذو النون أيوب الدكتور ابراهيم ، حياته ومآثره ، شركة التجـــارة والطباعة ، بغداد ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ ، ص ٥٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٥–٥٩ .

(٣) هادي العلوي ، مجلة مواقف ، العدد ٢١ ، أيار– حزيران ١٩٧٢ ، ص ٦٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٦٠ .

تعرض رجال الدين للزوار « وتوسلهم بخضوع مؤلم أن يعطوهم النقود أو القطع الذهبية بدلاً من رميها داخل القفص المنصوب على الضريح لأنهم يحرمون منها وتذهب الى غيرهم ، يعنون كبار السدنة » .

كذلك نقرأ في كتاب جاذبية صدقي على باب الله أنها حين استفسرت من خادم مسجد الإمام الشافعي عن سبب سكوت من يقوم على خدمة المسجد فيما يخص الأكوام المتناثرة من الخطابات التي يرسلها يومياً أولئك الذين يأملون حلاً لمشكلتهم من « الإمام الشافعي » والتي يكون مصيرها « كومة القمامة » ، يجيبها الخادم وهو يمسك بقشته :

– نعمل لهم إيه يعني ؟ أدينا بنسترزق من وراهم !.. اللي تدس في ايدي قرشين واللي تغمزني بحتة خمسة صحيحة !

وحين تعلق جاذبية صدقي على هذا القول بالسؤال :

– لكن ، أليس هذا تضليلاً ؟

يلوح الرجل ذراعيه الاثنتين في وجهها ويصيح ثائراً :

– خبر إيه يا ست انتي ؟ حتلبسينا تهمة ليه ؟ حد مسلطك علينا ؟.. [1]

وهناك عدد من الأولياء « العظيمي المنزلة » (مر ذكر بعضهم أعلاه) لهم أكثر من مقام في أكثر من بلد ، ويتصور المواطنون في كل بلد أن المقام الحقيقي هو الذي عندهم وليس الآخر .

ففي القاهرة مثلاً نجد أن مقام الحسين بن علي بن أبي طالب هو أعظم المقامات في مصر . ويندر أن يزور قروي القاهرة دون أن يعرج على مقام الحسين وإلا كانت زيارته للقاهرة ناقصة . ولا يكتفي زوار المقام بالصلاة والدعاء لأنفسهم ، بل كثيراً ما يفعلون ذلك نيابة عن أهل القرية الذين يرجونهم ذلك ، طلباً للبركة والرضى . وما ينطبق على مقام الحسين

---

(١) جاذبية صدقي على باب الله ، مؤسسة أخبار اليوم ، ١٩٧٣ ، ص ٧ – ٨ .

ينطبق كذلك على غيره مثل السيدة زينب والشافعي[1].

أما في العراق فإن قبور الأئمة والأولياء ، وخاصة من آل البيت ، تتمتع بمكانة هائلة من التقديس، بحيث تأخذ شكل الحج لأعداد غفيرة من المواطنين، ويقوم على خدمتها طاقم من المشايخ والمساعدين . وتصرف على تزيين هذه المقامات وزخرفتها وطلاء أجزاء منها بالذهب والفضة أموال طائلة .

يذكر هادي العلوي ما يمارسه الجمهور الشيعي من « طقوس محيرة » في شهري محرم وصفر حيث تصادف ذكرى مقتل الحسين . فمن هذه الطقوس مجالس تعزية تقام على امتداد الشهرين يخطب فيها رجل دين . وتشمل الخطبة على موضوعات دينية متنوعة وتنتهي عادة بفقرة ختامية تتلى على شكل حداء من قبل رجل الدين أو مساعده ويأخذ الحاضرون بالبكاء على الحسين . ويرجع الكاتب هذا الطقس الى أصل وثني يعود الى عهد البكاء على تموز إله الرعي والخصب في الأساطير السامية الموغلة في القدم[2].

ومن الطقوس التي يذكرها هادي العلوي :

· مواكب لطم تنظم في المعابد المعروفة بالحسينيات وحول مراقد الأئمة وفي شوارع المدن والقرى. وفيها يخرج الرجال عراة الى النصف ومعهم حاد يقرأ لهم وهم يلطمون صدورهم بقسوة . وتستعمل في بعض المواكب سلاسل من حديد تضرب بها الظهور . وفي مواكب أخرى تستعمل حراب تسمى في العراق « قامات » تطعن بها مقدمة الرأس وهو حليق ... وكثيراً ما يسقط قتلى من المطبرين (نسبة الى

---

(١) راجع الأرض ، ص ١٤٣ لعبد الرحمن الشرقاوي ؛ أهلا وسهلا ، ص ١٣٤ لحسين مؤنس، والأيام جزء ١ ص ٦٤ لطه حسين ؛ وفي رواية في قافلة الزمان لعبد الحميد جودة السحار تقرأ أن ليس ثمة عروس تدخل دار زوجها قبل مرور موكبها على ضريح الحسين ، وقراءة الفاتحة له ، وما من شخص يموت إلا ويصلى عليه في الحسين مهما بعدت الشقة ، ومها أصاب المشيعين من تعب . ص ٨٣ .

(٢) هادي العلوي « أشياء من فصول المسرح الديني في الوطن العربي » ، مجلة مواقف، العدد ٢١ ، أيار - حزيران ١٩٧٢ ، ص ٥٩ .

الطبر وهو الفأس) بسبب الجروح التي يحدثها التطبير[1].

ويوضح الكاتب أنه :

استُحدث في السنوات الأخيرة «مواكب مشاة» يسير فيها الناس على أقدامهم مسافة تزيـــد أو تقل عن مئة كيلو متر نحو كربلاء للمشاركة في لطمية الأربعين [2].

أما عن المراقد الدينية فيقول :

هـــذه المراقد مصفحة كلها بالذهب : قبابها ومآذنها وجدرانها وأبوابها وأضرحتها . وهي تعمر ويبدل ذهبها باستمرار .

ويذكر هادي العلوي :

أن مثل هذه العمليات غالباً ما تكون مصحوبة بضجيج إعلامي يصل أحياناً الى إقامة المظاهرات الاحتفالية في الشوارع العامة كما حدث عندمـا جلبت الأبواب الذهبية لمرقد العباس بن علي من ايران سنة ١٩٦١ [3].

ويستطرد الكاتب أنه :

من الجدير بالذكر أن الراقدين تحت هذه القباب متفقون كلهم على أن الذهب محرم على الرجال حتى ولو كان خاتماً على قدر إصبع ...

فمن المفارقات... أن تكدس هذه الكتل الهائلة من السبائك الذهبية على جثة رجل« لم يضع في حياته لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة»[4].

ويعلق هادي العلوي أن علياً بن أبي طالب كان سيرفض

هذا التكريم لو خُيِّر فيه خاصة وهو يرى هذه الكنوز والمشاهد البالغة الثراء تقام في وسط تموت أكثرية أهله من الجوع[5].

---

(١) هادي العلوي « أشياء من فصول المسرح الديني في الوطن العربي » ، مجلة مواقف ، العدد ٢١ ، ايار—حزيران ١٩٧٢ ، ص ٥٩ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٤ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

٣ - الأضرحة والقبور

وفي عدد من الروايات خاصة المصرية يقدم لنا مؤلفوها صوراً حية للدور الذي يلعبه الأولياء وقبورهم في ذهن المواطنين البسطاء . وفي كل حالة نجد أن الفقر والجهل والكبت والتقاليد تكمن وراء ذلك . وقد علل الدكتور حسن الساعاتي زيادة الكثافة السكانية واستقرار الحياة في حي الجمرك بالاسكندرية مثلاً ، بوجود العدد الكبير من المساجد وأضرحة الأولياء التي تعمل كمركز جذب للسكان ، باعتبارها في نظرهم منطقة آمنة ، فأولياء الله لا خوف عليهم ولن يصيب من يسكن بجوارهم أي سوء[1].

ويعكس محمد صدقي هذه النظرة بوضوح في روايته القمر وراء السحاب. فيذكر أن من كرامات الأولياء ، ذلك الحادث الغريب الذي قال الكثيرون من أبناء الاسكندرية أنهم شاهدوه بأنفسهم .. وهو :

سقوط طوربيد على ضريح سيدي أبو الدرداء في أثناء غارة جوية في الحرب العالمية الثانية .. لكن يدا «أبو الدرداء» التقطا الطوربيد قبل أن يسقط ، وقذفتا به في البحر[2].

كذلك يعكس نجيب محفوظ هذه النظرة في روايتيه خان الخليلي و بين القصرين . ففي خان الخليلي انتقلت أسرة أحمد عاكف من السكاكيني بعد الغارة على القاهرة الى «الحسين» لأن «هذا الحي في حمى الحسين رضوان الله عليه ، وهو حي الدين والمساجد »[3] . كما أن أمينة في بين القصرين كانت

(١) د. حسن الساعاتي، التصنيع والعمران، دار المعرفة، القاهرة ١٩٥٨ ، ص١٢٦ .

(٢) نقلاً عن محمد جبريل ، مصر في قصص كتابها المعاصرين ، ص ٢٩٧ .

(٣) نجيب محفوظ خان الخليلي ، مكتبة مصر، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ص ١١ .

أمنيتها الوحيدة أن تزور مقام الحسين . وبحكم التقاليد فإنها كانت أسيرة بيتها منذ أن تزوجت عبد الجواد قبل خمسة وعشرين عاماً . وكانت عيناها تقعان على مئذنة الحسين وهي في بيتها وتدور في ذهنها الخيالات عن ذلك المكان العظيم . وحين جاء اليوم الموعود ، يوم زيارتها للمقام ، تملكتها مشاعر عارمة لم تتمكن من السيطرة عليها . وتقف أمام قبر الحسين تود لو أنها تبقى كذلك لأطول مدة ممكنة لتملأ نفسها بطعم السعادة . غير أن ضغط الجماهير من الزوار يحول بينها وبين الوقوف طويلاً . وتمد يدها تتلمس الجدران الخشبية تقرأ الفاتحة ثم تحتضن الجدران وتقبلها وهي تصلي طوال الوقت"(١) .

وواضح أن حيـــاة العزلة التي فرضت على أمينة في أوائل هذا القرن ، وانفصالها كلية عن الحياة الاجتماعية خارج البيت ، وقسوة زوجها وتحكمه في شؤونها ، والحكايات التي كانت تسمعها عن الحسين، ثم جهلها وانعدام خبرتها ، كل ذلك كان وراء الاحساسات بالإضافة طبعاً الى المشاعر الدينية التقليدية .

ويبدو واضحاً من قصة عالم الأسرار لمحمود البدوي أن الإيمان المطلق بالأولياء وكراماتهم غير مقصور على نساء جاهلات معزولات كأمينة ، بل يتعداه ليشمل فئات مختلفة من المتعلمين ومن هم قد تجاوزوا الشرائح الدنيا في السلم الطبقي . فنحن أمام بطل القصة الذي يتوجه الى صديق له من « أنبغ المهندسين » طالباً منـــه أن يبني له دارة صغيرة في مصر الجديدة . يرحب المهندس بالفكرة ويعد بإسناد العمل لمساعده الذي سيقوم بعمل الرسم للدار بينما يقوم هو – المهندس – بمراقبة التنفيذ . وعند الاستفسار عن سبب إسناد الفكرة للمساعد ولماذا لا يتولى المهندس نفسه العمل ، يجيب قائلاً :

– لقد خلعت ذراعي .

وأضاف وهو يشير الى النافذة :

– خلعها هذا الرجل الذي هناك .

– ليس أمامي سوى ضريح .

---

(١) نجيب محفوظ بين القصرين، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٩١ ، ١٩٤ .

– إنه هو .

ويستطرد بطل القصة فيقول إنه لم ير أمامه إلا ضريحاً صغيراً :

قد طلي بناؤه وشباكه الصغيرة وبابه بالدهان والزيت على أحسن صورة .. ووراءه عمارة حديثة عالية قد أخذ في بياضها وزخرفتها من كل جانب . وكان الضريح يشغل الجانب الأيمن من العمارة، وحوله فضاء على شكل دائرة . وتراجعت العمارة عن الشارع بما يزيد على ثمانية أمتار إكراماً للضريح .

وينكر بطل القصة حدوث مثل هذا في القرن العشرين ، فالعمارة كادت أن « تكون مشوهة » بالإضافة الى الأمتار العديدة التي تنازل عنها صاحب العمارة إكراماً للضريح وفي منطقة حيوية. وعند الاستفسار من صديقه المهندس فيما اذا كان صاحب العمارة هو الذي رغب في ترك مكان الضريح، يجيبه المهندس بالنفي وبأنه حين وضع التصميم مع المقاول ، لم يفكرا في الضريح إطلاقاً ، و « أرلناه ونحن نضع التصميم كلية » ، إلا أن المقاول عاد اليه بعد أيام من إعطائه الرسم للتنفيذ قائلاً إن العمال حفروا الأساس في قطعة الأرض كلها . أما الضريح « فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه » .. وكلما شرعوا في إزالته شلت أيديهم أو حدث لهم حادث .

فيستفسر المهندس من المقاول إن كان يعرف اسم صاحب الضريح :

– أبداً .. إنه رجل مجهول .

– هل نخضع للخرافات ونشوه العمارة ، ونحمّل صاحبها خسارة الآلاف من الجنيهات من أجل ضريح لإنسان مجهول.. هذا تخريف.. يا معلم أحمد .. هذا الضريح يزال غداً .

ويبدو أن المقاول لم يزل الضريح :

لأن العمال الذين شرعوا فعلاً في إزالته سقط واحد منهم من فوق السقالة ، وكادت أن تدق عنقه ، وحلّت مصيبة بعامل آخر ، ومرض الثالث .

وكانت النتيجة أن «تشاءموا من هذه الحوادث وامتنعوا عن العمل كلية».

فما كان من المقاول إلا أن يتصل بصاحب العمارة الذي وافق أن يبقى الضريح في مكانه وأن يغيّر التصميم تبعاً لذلك ، مما أغضب المهندس والذي حاول إقناع صاحب العمارة بالعدول عن رأيه لأن « بقاء الضريح في مكانه سيشوه واجهة العمارة ويجعله يخسر آلافاً مؤلفة من الجنيهات .. » . ونصحه إن كان لا بــد من ضريح لذلك الشيخ ، أن يبنى في مكان آخر . فوافق صاحب العمارة ووضع المهندس تصميماً رائعاً لضريح جديد . وحدث أن حلم المهندس في تلك الليلة أن رجلاً في « لباس أبيض » جاءه وقال :

سيب الضريح مكانه !.. وقد فسرت هذا الحلم بأني كنت مشغولاً قبل أن أنام بالضريح.. وكان مسيطراً على عقلي.. فلما نمت حلمت به...

وشرعنا في إزالة الضريح ، ولكن واحداً من العمال لم يقدر على أن يضرب الفأس في الأرض أو في سقفه أو في حوائطه .. فشعرتُ (المهندس) بالغيظ وأوقفتُ الماكينات التي تحفر الأساس في الجهة الأخرى . وجمعت العمال جميعاً ورائي في حلقة كبيرة.. وأمسكتُ بالفــأس أمامهم لأريهم بأن الأمر أسهل مما يتصورون ويقدرون ، ولأزيل هذه الخرافات من عقولهم جميعاً . أمسكت بالفأس، وضربت ضربة قويّة في الجدار. فانخلع قالب واحد من الطوب ، ولكن انخلع معه ذراعي، وأحسست بمثل النار تسري في كتفي اليمنى.. وبسواد شديد يزحف أمامي حتى أظلم المكان . ولم أقوَ على حمل الفــأس ، فألقيتها وأنا أتصبب عرقاً .. ونظر إليّ العمال في ذهول.، ثم صــاح أحدهم : شهدنا لك يا سيدنا الشيخ !. وصفقوا وهللوا .. وتركتهم مخذولاً : أخذت أفكر في هــذا العالم الآخر ، عالم الأسرار .. وتذكرت الحلم والشيخ الذي جاءني في المنام ، وكل ما دار في رأس العمال من مخاوف بسبب الضريح وقلت إن هذا عالم آخر ، يعلو عن فهمنا وإدراكنا ، وأسراره لا تحيط بها عقولنا .. إنه عالم الأسرار لا ندرك منــه شيئاً .. وأبقينا على الضريح كما ترى في مكانه .. بل بنينــاه بالحجر والجرانيت من جديد ، وزيّنّاه ووضعنا في سقفه

القناديل .. وإنه الآن مصباح العمارة ونورها .. وقد أخذ ذراعي في التحسن، فأنا الآن أستطيع تحريكه ، وأعتقد أنه سيشفى تماماً [1].

بهـــذا العرض الذي قدمه محمود البدوي نتعرف على إيمان الكاتب نفسه بفاعلية كرامات الأولياء و «حقيقة» مكاناتهم ، معللاً ذلك بأنهم ينتسبون الى عـالم آخر يستعصي على فهم وإدراك عقول البشر . أو بعبارة أخرى ، عـالم من الأسرار الميتافيزيقية ، يذهب الكاتب الى التدليل على وجودها من خلال النهاية التي أوصل اليهـا المهندس صديق بطل الرواية ، سواء من خلال ترتيب « شفاء ذراعه » أو من خلال تغير نظرته الجمالية للتخطيط العمراني ، حيث تحول مقام أو ضريح الولي الى زينة للعمارة ومصباح لها. كما أن الكاتب لا يحاول أن يقدم تعليلاً فيزيائياً مقبولاً للحادث الذي نزل بالمهندس . فهناك احتمالات كثيرة كافية لأن تصاب ذراعه « بالخلع » . إذ يكفي لتفسير ذلك أن يهوى بالفأس بكل طاقته لتضرب حجراً أو صخرة صلدة ترتد معها الفأس بشدة كافيـة لخلع ذراعه وذراع غيره . كذلك فإن العوامل النفسية تلعب دورها في مثل هذه الحالات ، خاصة لدى العمال البسطاء الذين ما أن يسمعوا بأن ذلك المكان هو ضريح ولي له كراماته حتى يسترجعوا أمامهم مخزونهم الذهني الضخم من الخرافات والقصص والحكايات التي تكفي لإحداث حالة من الخوف والارتباك والتوجس من المجهول كافيـة لأن ينزلق أحدهم من على السقالة هـــذا اذا سلمنا بأن الكاتب متأكد من صحة الرواية في بعض تفاصيلها على الأقل .

إن هـذا التسليم من جانب الكاتب يعكس صورة عن الواقع الذهني ، لدى فئات متعلمة لا تزال تنظر الى العلم كمفهوم وتقنية لتفسير الأحداث نظرة مملوءة بالشك أو الخرافة أو بالرفض أو بالتجاهل. وحينما يكون هنالك مجال الصراع بين العلم والخرافة يميل البعض الى إبراز الجانب الخرافي بعد أن يصبغ عليه صبغة دينية أو شبه دينية ، تثير في نفس القارىء العادي رهبة، وتعمق

---

(١) محمود البدوي ، قصة « عالم الأسرار » من مجموعة الجمال الحزين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .

فيه الاعتقاد بالخوارق والتي هي بالتعريف « مضادة العلم » باعتبار أن الكاتب واحد من الرواة الذين شاهدوا هذه الخارقة .

ومع أنه يصعب على الدارس أن يفرق بين إلقاء الكاتب على الخرافة ثوباً دينياً ، أو بين انتصاره للخرافة ، انطلاقاً من مفهومه الديني (سواء كان هذا المفهوم من وجهة نظر دينية أكاديمية صحيحاً أم غير صحيح) ، فإن هذه الكتابات يكون من شأنها تقوية الاتجـاه الخرافي في عقلية المواطن البسيط بحيث يلجأ الى تقليد الكاتب ، أو استعمال نفس الميكانيكية في التفسير بأن يعزي الأسباب الى قوة غيبية مجهولة ، كأن يكون مصدر هذه الغيبية ولياً مجهول الهوية ، مجهول التاريخ ، مجهول القضية .

ففي رواية يحيى حقي قنديل أم هاشم ، والتي يشير عنوانهـا الى قنديل معلق في مقام السيدة زينب « أم هاشم » نجد مثالاً آخر على ترويج المفهوم الخرافي ، وإن كان الكاتب قد لجأ الى تخفيف جوهر الخرافة بأن زوّجها الى شيء من العلم ، ربما لمجاراة العصر ، وربما لأن الكاتب لم يستطع بعد أن يكتشف التضاد والتناقض بين العلم والخرافة .

كذلك نجد في هذه الرواية ، وصفاً دقيقاً للدور الذي يلعبه الأولياء (من النساء والرجال) في حياة البسطاء من الجماهير وخاصة في الأحياء الشعبية من المدينة . هذه الجماهير التي أكثر ما يهمها من الأوليـاء هو « المعجزات » والكرامات التي تظهر على أيديهم لتقضي للجماهير الفقيرة الجاهلة حاجاتها اليومية المتواضعة .

ففي الرواية المذكورة نجد أن زيت القنديل الذي يضاء بـه مقام السيدة زينب أصبح له في نظر سكان الحي، مكانة خاصة ولأسباب حياتية محضة . فبه تشفى الأمراض وتبرأ الجروح وتداوى الأعين المريضة ، الى غير ذلك . وعلى وجـه الدقة فهو في نظر المواطنين متخصص بشفاء الأعين المريضة . وهكذا أصبح زيت القنديل مقدساً .

إن أكثر من في الحي حماساً للزيت المقدس وأحرهم دفاعـاً عن قدرته الشفائية العظيمة ، وأنشطهم في الترويج لهذا الزيت المنقطع النظير وأهم من

يقوم بالدعاية له هو الشيخ « درديري » خادم المقام . ذلك أنه هو الذي يملأ القنديل بالزيت وهو الذي يقدمه للمحتاج من أهل الحي مقابل كمية متواضعة من النقود ، أو هدية معقولة ، أو مـا يستطيـع أن يقدمه صاحب الحاجة . وهكذا فإن المقام بالنسبة للشيخ درديري هو مصنع الزيت المقدس والقنديل هو الماكينة التي تحول الزيت الخام الى زيت مقدس يباع للمواطنين بالقطارة. إن الشيخ درديري يبذل كل جهـده وقوته للدفاع عن مصالحه والمحافظة على صناعته ضد هجوم العلم ، والذي يمثل في نظر الشيخ منافساً تجارياً قوياً .

تعرف يا سي اسماعيل ليلة الحضرة ، يجيء سيدنا الحسين، والإمام الشافعي ، والإمام الليث ، يحفون بالسيدة فاطمة النبوية ، والسيدة عائشة ، والسيدة سكينة ، في كوكبة من الخيـل ، ترفرف عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد ، يأخذون أمكنتهم عن يمين الست وعن يسارها،... في تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير الذي تراه فوق المقام، يكاد لا يشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ لألأ يخطف الأبصار ... إنني (أي الشيخ درديري) ساعتها لا أطيق أن أرفع عيني اليه . زيته في تلك الليلة فيه سر الشفاء . فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين[1] .

وحين يدخل اسماعيل ، الطبيب الشاب بعد عودته من بريطانيا ، ميدان السيدة زينب لأول مرة بعد غيبته سنوات سبع ، يصدمه واقع الحيـاة التي تعيشها الجماهير الفقيرة في ذلك الحي المتواضع من القاهرة ، ويتأمل ما يرى أمامه وكأنه يكتشف عالماً جديداً غريباً عليه ، فيلاحظ أن الحي :

يموج كدأبه بخلق غفير ، ضربت عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل .

ليست هذه كائنات تعيش في عصر تحرك فيه الجماد ...

يتطلع الى الوجوه ، فلا يرى إلا آثار استغراق في النوم كأنهم

---

(١) يحيى حقي قنديل أم هاشم، سلسلة اقرأ، رقم ١٨ ، دار المعارف بمصر، ص١٧ .

جميعـــاً صرعى أفيون . لم ينطق له وجه واحد بمعنى انساني .
... أجساد لم تعرف الماء منذ سنين. الصابون عندها والعنقاء سواء .
وحين تمر فتاة تلف نفسها بملاءة :
سرعان مـا بدأ الناس يتحككون بها كأنهم كلاب لم يروا في حياتهم أنثى !
هناك جمود يقتل كل ما تقدم ، وعدم لا معنى فيـــه للزمن ، وخيالات المخدر ، وأحلام النائم والشمس طالعة ...
لو استطاع اسماعيل لأمسك بذراع كل واحـد منهم وهزه هزة عنيفة وهـــو يقول : استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك. ما هذا الجدل في غير طائل؟ والشقشقة والمهاترة في سفاسف؟ تعيشون في الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور وتلوذون بأموات[1].
أما القنديل الذي في المقام، فقد بان على حقيقته في عيني اسماعيل بعد أن انفصل عن الحي وما فيه مادياً وذهنياً خلال سني دراسته في الخارج، وها هو يراه الآن من جديد ويلاحظ أن :
أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء . هذا الشماع إعلان قائم للخرافة والجهل (نسي يحيى حقي أن يشير الى أنه إعلان أيضاً للفقر والحرمان والاضطهاد والهروب من الواقع واستلهام المعجزات من القوى الميتافيزيقية كتعبير عن عجز الانسان) .
... حول المقام أناس كالخشب المسندة ، وقفوا مشلولين متشبثين بالأسوار . فيهم رجل يستجدي صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه اسماعيل، وإنما وعى أنه يستعديها على خصم له ، ويسألها أن تخرب بيته وتيتم أطفاله[2].

---

(١) يحيى حقي قنديل أم هاشم ، سلسلة اقرأ ، رقم ١٨ ، دار المعارف بمصر ، ص ٤٣ — ٤٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٦ .

وحين لم يحتمل اسماعيل هذا الموقف، ولم يستطع ان يتقبله عقلياً وعاطفياً، وحين تأكد له أن ما تعلّمه يتناقض مع ما يراه اندفع لتغيير هـذا المنظر المعبر عن الواقع الخرافي لجماهير الحي فاندفع الى المقام « وأهوى بعصاه على القنديل فحطمه .. وهو يصرخ »[1]. فهجمت عليه الجموع وأوسعته ضرباً .

الى هنا ويبدو أن المؤلف قد عبر بصدق عن الواقع المادي والنفسي للجماهير الجاهلة ، وعن الانفعالات والأعمال التي يفترض أن تعتمل في نفسية الطبيب الشاب أو يقوم بها حتى يحافظ على توازنه الذهني ، منطلقـاً من باب الإلتزام للمفاهيم العلمية التي استقاها ومارسها . غير أن يحيى حقي كان له مفهوم آخر ، يخالف التوقعات المستنتجة من الصورة الواقعية التي رسمها . وانطلاقاً من هذا المفهوم يأخذ يحيى حقي بتوجيه بطل الرواية بشكل تعسفي حتى يوصله الى النتيجة التي يريدها وهي أن مزيج العلم والخرافة خير وأبقى .

فحين يحاول اسماعيل معالجة خطيبته فاطمة ، بوسائل الطب الحديث ، بدلاً من زيت القنديل ، نجد أن الطب الحديث يفشل[2] . هكذا أراد له يحيى حقي دون مبرر موضوعي أو تكنيكي (فيما يتعلق ببنـــاء القصة) ، رغم أنه يؤكد نجاحه في معالجة « أكثر من مائة حالة » مثل حالة فاطمة في أوروبا[3] . وبعـد ذلك يجبر الكاتب ، اسماعيل على أن « يراجع نفسه » ، ويرجع الى الحي الذي تركه والى فاطمة ، ليعلن نبأ تنازله عن حربه ضـد الخرافة وتركه وسائل الطب الحديث ، واللجوء الى طب الشيخ درديري . فهو يقول لفاطمة :

تعالي يا فاطمة ! لا تيأسي من الشفاء . لقد جئتك ببركة أم هاشم (فقد أحضر معـــه شيئاً من زيت القنديل) ستجلي عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد اليك بركك ، فإذا هو جديد ...[4]

---

(١) يحيى حقي قنديل أم هاشم، سلسلة اقرأ، رقم ١٨ ، دار المعارف بمصر، ص٤٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٩ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٤٨ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

وهكذا ينهي المؤلف روايته بشفاء فاطمة بزيت القنديل وعودة اسماعيل الى الحي ليعيش فيه وينجب البنين والبنات ويصبح له كرش كبير[1].

إن رواية قنديل أم هاشم لها أهميتها من ناحيتين . فهي من ناحية أولى تكشف عن جهل البسطاء من الجماهير ، والفقراء منهم خاصة ، وتكشف كذلك عن إيمانهم بالخرافات واعتقادهم بالأضرحة والأوليـــاء وكراماتهم . ولكنها من ناحية ثانية لا تقل أهمية عن الأولى ، تكشف عن تغلل الخرافة في أذهان عدد كبير من الكتّاب ، ومنهم مؤلف الرواية ذاته . فخلاصة الرواية أن العلم وحده لا يكفي ، وأن المبالغة في استعمال الآلات شيء غير مُجْد . لا بد أن يمتزج العلم في شرقنا العربي بالبركة [2] ، رغم أن الشعوب المتقدمة يكفيها العلم وحده . **لا بد للعلم في بلادنا من عكازة يتكيء عليها ولا مانع أن تكون هذه العكازة، قطعة من الخرافة سواء كانت زيت القنديل في ضريح أم هـــاشم ، أم بركة سيدي البرّاني ، أو ولي لا يعرفه أحد .** وهذا الموقف يعكس جهل الكاتب بالأسباب الحقيقية الكامنة وراء مظاهر الجهل والتخلف والخرافة ، كما يعكس الموقف التوفيقي التقليدي والذي أصبح من سمات العقلية العربية سواء في الماضي أو في الحاضر ، وعلى مختلف المستويات .

إن محاولة التوفيق بين العلم والخرافة ومزجهما معاً ، هي عملية ساذجة ، لعلمنة الخرافة وخرفنة العلم . وهي عملية غير بريئة في كثير من الأحيان . إن مشتقات البنسلين لا يمكن أن تتوافق مع زيت القنديل المعلق في مقـام السيدة زينب ، لأن العقلية التي تستعمل أحدهما لا تلجأ بالضرورة الى الآخر . ولأن أحدهما ناسخ للآخر باعتبار أن لجوء الإنسان الى زيت القنديل وما يقوم مقامه يمثل فترة في تاريخ العقل البشري لم يعرف الإنسان فيهمـــا البنسلين .

---

(١) يحيى حقي قنديل أم هاشم، سلسلة اقرأ، رقم ١٨ ، دار المعارف بمصر، ص٥٧ .

(٢) راجع دراسة الدكتور عبد الجليل الطــاهر ، المجتمع الليبي ، المكتبة العصرية ، صيدا ١٩٦٩ ، حول مفهوم البركة والاعتقاد بها في مجتمع شمال إفريقيا عموماً ، والمجتمع الليبي خاصة .

والرجوع من البنسلين الى زيت القنديل يعني بالضرورة تنازلاً ونكوصاً وتخلياً عن الأرقى الى الأدنى .

والواقع أن هذا الموقف التوفيقي يدل بوضوح على تغلغل الخرافة في أعماق النفسية والعقلية العربية عموماً ، ولا يدل على أي فهم حقيقي وتصديق إيجابي للعلم .

إن الإيمان مهم . ومشاعر الجماهير مهمة بدون شك لكي تؤخذ بعين الاعتبار ؛ والتدرّج في عملية تغيير العقلية مهم أيضاً . ومن الضروري ألا تُصدَم الجماهير بمشاعرها الدينية صدماً فجّاً . ولكن الإيمان المهم **هو الايمان بالقضية، هو الايمان بالفكرة، هو الايمان بالهدف**، وليس أي إيمان؛ وليس الإيمان كما يفهم من الكلمة في الشرق التقليدي .

وحين يفشل الكاتب أو المفكر أو القائد السياسي أو حتى الجماهير في التعرّف على نوعية الإيمان اللازم وماهيته ومقوماته وعلميته وارتباطه الوثيق بالقضية ويستميض عنه بأي إيمان أو بإيمان تقليدي مقصود ، فإن العملية تتحول الى خرافة . لقد عجز يحيى حقي عن أن يدرك أو يتصور وسيلة التدرج في تحويل عقلية الجماهير عن طريق تغيير واقعها الاقتصادي والسياسي، وعجز عن أن يحمل الإيمان بجدوى الوسائل العلمية هو الإيمان الذي تدور عليه عقدة الرواية ، وتجذب اليه الجماهير[1] . **ولم يستطع يحيى حقي الا أن «يفبرك» واحداً من «الكوكتيلات» العربية العجيبة : ماكينات + قنديل + قطرة أتروبين + زيت + علم بريطانيا + بركة أم هاشم .**

وهذا الموقف الذهني لدى مؤلف الرواية يعكس العجز عن إدراك التفاعل الديناميكي بين العناصر المختلفة للنظام الواحد . إن العقل العربي ما زال

---

(١) نلاحظ نظرة أكثر وعياً وتقدماً في قصة يوسف ادريس « النـــاس » حين يعالج موضوعاً مشابهاً وهو اعتقاد أهل القرية ببركة شجرة لشفاء العيون . ينهي القصة باقتناع أهل القرية تدريجياً بعد توفر عيادة طبية لهم ، بالإقلاع عن تلك الخرافة والثقـــة بفاعلية الطب الحديث . يعبّر ريفي عن هذا الموقف حين يقول رداً على بركة الشجرة: « القطرة يرضك أنصف » . يوسف ادريس ، قصة « الناس » ، مجموعة أليس كذلك .

قاصراً عن أن يفهم أن مفعول الزيت يفسد مفعول الأتروبين ، وأن العلم تفسده الخرافة ، وأن العلم بالتعريف هو نقيض الخرافة . وأن الماكنة تحتاج إلى عقل يؤمن بدورها ومهمتها في مواجهة مشاكل الإنسان ، ومطالبه . وأن القنديل يقلل من أهمية الماكنة ، وبالتالي يقلل من الثقة بها والاعتماد عليها والاستفادة منها الى أقصى حد ممكن . وأن البركة تعني بالضرورة الشعور بالعجز ، وأن الشعور بأهمية البركة يعني التقليل من دور الانسان في الخلق والابداع والتغلب والتفوق .

إن العقل العربي في خرافيته ما زال بدائياً ، يتصور أن تجميع الأشياء وإضافتها إضافة بسيطة عفوية أمر لا بأس به بل مستحب ، بغض النظر عن تضارب هذه الأشياء . إن العقل العربي لم يستطع أن يدرك بعد أن النظام (System) يعني التكامل الادائي بين مختلف الأجزاء لتحقيق حالة الأداء الكلية، ونوعية هذا الأداء بالنسبة للنظام كوحدة قائمة بذاتها . وبالتالي أن العلاقة بين المركبات للنظام يجب أن لا تكون تعطيلية أو تعويقية . لا زالت القاعدة المعمول بها هي (زيادة الخير خير) ، دون التمييز بين التضارب الذي قد ينشأ عن الزيادات المتنافرة .

ويحتل الأولياء موقعاً هاماً في ذهن الجماهير حيث يمثلون تجسيداً حياً « للمعجزة » المنتظرة التي ستظهرها القوى الغيبية على أيديهم والتي تأمل الجماهير أن تتكرر – أي المعجزات – لتحل لهم مشاكلهم . والولي حسب موقعه هذا يشكل حلقة تربط الإيمان الديني بالأساطير الموروثة بالتطلعات الحياتية . ولذا كان لكل مدينة أو قرية ولي هو واسطتها الى الله (والوساطة من لب التفكير الصوفي حيث يقولون : لولا الوسيط لذهب الموسوط) . وهذا الولي يتمتع بميزات خارقة كما رأينا . وعند استعصاء حل أي مشكلة فما على الإنسان إلا أن يذهب الى ذلك الولي ويتقدم اليه بنذر مهما كان بسيطاً لحل تلك المشكلة . وحين يكون لضريح الولي خادم،وغالباً ما يكون هناك خادم ، فإن النذر يذهب الى الخادم بطبيعة الحال .

وكثيراً ما تدفع الحاجة المواطن الجاهل الفقير الى حرمان نفسه من الطعام

أو اللباس أو غيره حتى يستطيع أن يفي بنذر نذره لولي ليقضي له حاجته هكذا فعل محمود الدسوقي في قصة مولد الشيخ حمزة لمحمود السعدني ، حتى يتمكن من شراء خروف نذره للشيخ حمزة[1].

وفي الأماكن التي تكثر فيها أضرحة الأولياء نشأ نوع من التخصص في قدرات الأولياء على الاتيان بكرامات من أنواع معينة .

فلكل شيخ مريض يشفيه.... فسيدي البيدق يشفي من الصداع ويزوره المرضى بعد صلاة العصر ، فسرّه الباتع يتجلى بين العصر والمغرب – وأمراض الصداع شفاؤها مؤكد كذلك اذا علقت قطعة من ثياب المريض على بوابة المتولي يرفرف بها الهواء[2]– وأولاد عنان يشفون المرضى بالهزال ، وسيدي الشعراوي يشفي مرضى النفس والجسد ، ولا بد من زيارة ضريحه مرتين في اليوم ، في الفجر وعند الغروب . إنه كبعض الأطباء الذين يحتمون على مرضاهم عيادتهم في اليوم مرتين، وإن لم يكن هناك ضرورة. أما السيدة نفيسة فيزورها مرضى العيون[3] . وأما سيدي الكلشاني ، فإن أمراض الغيرة هي تخصصه ، ولكن سيدي الكلشاني كأولئك الأطباء الذين يحترمون المواعيد، فلا بد أن يزور المرضى ضريحه وقت آذان العصر بالتحديد، فإن بركاته تفيض في أثناء الآذان ، فتذهب بالغيرة النازلة بصدور مرضاه الواقفين ببابه[4].

يقدم لنا عبد الحميد جودة السحار في روايته في قافلة الزمان صورة حية لإيمان الجماهير بالأولياء وعلى « أساس تخصصاتهم » فنرى أنه بعد آذان الفجر واستيقاظ أهل البيت من رقادهم :

قام النسوة يجهّزن أبناءهم المرضى لزيارة أضرحة الأولياء في الفجر،

---

(١) محمود السعدني ، قصة « مولد الشيخ حمزة » ، مجموعة السماء السوداء .
(٢) عبد الحميد جودة السحار ، في قافلة الزمان ، ص ٥٧ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٨ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .

يلتمسون البرء من أسقامهم » وفتح باب الدار في نهاية الصبح . وخرج ثلاث خادمات يحملن ثلاثة أطفال، ومذ بلغن الشارع الرئيسي حتى افترقن ، فما كن ذاهبات الى ضريح واحد ، فإن الأطفال لا يشكون من مرض واحد"(١).

أما توفيق الحكيم فيعرض لنا في روايته عودة الروح صورة « لطلب عصري » يلجأ فيه محسن الى السيدة زينب . فحين فشل في حبه . لم يجد أمامه إلا ضريح السيدة زينب فيذهب اليها ويقبض على قضبان الحاجز النحاسية طالباً منها التدخل لحل مشكلته العاطفية (٢) . أما عمته « زنوبة » فلقد لجأت هي أيضاً الى السيدة زينب تطلب منها المساعدة في حل مشكلتها العاطفية . ذلك أنها – أي زنوبة – تريد الزواج من مصطفى جارها والذي لم يبد أي اهتمام بها ، وبالتالي فهي ترجو السيدة زينب أن تتدخل لتليّن قلبه تجاهها . ومن الطريف والمهم أن نلاحظ هنا ، أن توفيق الحكيم قدم لنا شخصيتين مختلفتي الثقافة والتعلم يلجآن الى نفس « التكنيك » وهو الخرافة . فمحسن هو طالب ثانوي على وشك التخرج ، يدرس العلوم العصرية ، بينما تمثل عمته زنوبة المرأة الجاهلة التي لا تخرج تجربتها الحياتية عن نطاق البيت ، ومع ذلك لم يكن هناك فرق بين تصرف كل منهما عند فشله في مواجهة مشاكله . وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن البيئة الخرافية التي ينمو فيها الطفل ويتزود فيها بمعلوماته الأولية والأساسية عن الحياة ، تشكل مخزوناً هاماً في نوعية تصرفاته . ويعمل هذا المخزون في نفس الوقت على إبطال مفعول العلوم ، ونعني بها العلوم غير الخرافية التي يتلقاها الإنسان العربي في المدرسة أو الجامعة .

إن الأمثلة التي ذكرناها عن الإيمان بالأولياء وكراماتهم اقتبس أغلبها من الروايات أو القصص، وهي تعبر عن الواقع الاجتماعي للشعب العربي في مصر . غير أن الزائر لأضرحة الأولياء في كثير من العواصم العربية يلاحظ دائماً

---

(١) عبد الحميد جودة السحار ، في قافلة الزمان ، ص ٥٧ .

(٢) توفيق الحكيم ، عودة الروح ، المطبعة النموذجية ، الجزء ١ ، ص ١٠٥ .

أعداداً غفيرة من المواطنين يقصدونهم لحاجات مختلفة ، أكثر بكثير مما عبّر عنه الروائيون في كتاباتهم .

ولقد بيّنت جاذبية صدقي في كتابها على باب الله، أمثلة متنوعة وواقعية، بمعنى أنهـــا مشاهدات وليست من خيال الكاتبة ، فقد طافت هي نفسها بأضرحة الأولياء ، مثل الإمام الشافعي، والسيدة زينب، وسيدي الشعراني، والسيدة سكينة ، وسيدي القناوي ، والمرمي أبو العباس ، والسيد البدوي، والحسين ، وكثيرين غيرهم . ويبدو أن زبائن هؤلاء الأولياء ليسوا من الأميين الذين لم ينالوا حظاً من الثقافة أو العلم، بل إن جزءاً منهم ، قد نال في المفهوم الرسمي حظاً من العلم، بحيث لجأ الى استعمال أسلوب عصري في الطلب ، وهو تقديم الطلبات الى الأوليـــاء مكتوبة . فهناك أكوام من الخطابات يكتبها أصحاب الحاجات من الرجال والنساء الى الإمـام الشافعي ، ويلقونها حول ضريحه متوقعين أن يقرأها بنفسه ويتصرف حسب ما يقتضيه الحال[1].

فقد جاء في خطاب[1]:

سيدي ومولاي الإمام الشافعي ، عليه السلام .

أما بعد ، فاعرفكوا إني بنت حتتك يا سيدي ويا تاج راسي ، ساكنة جنبك في حارة السيدة نفيسة في أودة في حوش المعلم موسى غراب . سايقـه عليك النبي يا سيدنا يا شافعي تقضي لي حاجتي لأني غلبـــانة ومسكينة ومقطوعة من شجرة ، والرجل جوزي مغلبني ومتجوز علي! كان بيروح لها ليلة ويجيني ليلة لكن بأه هي لما يروح لها تتزوق له وتتغندر له أم عين قوية ، حاكم فاجرة ... الراجل كرهني يا سيدنا الشيخ ولا سائل في ، وبيغيب عني بالتلات أيام وبالأربعة . ولا بيبعتليش مصروف ودلوقت بقى له داخلين على عشر تيـــام مـــا ورانيش وشه البعيد . وسمعت امبارح من « أم دوسه » جارتي إن مراته الجديدة حبلت وأنا يا حسرة لا معايا عيل ولا عمري شفت الخلف . سايقه عليك النبي محمــد يا سيدنا الإمام توريني كراماتك

---

(١) جاذبية صدقي ، على باب الله ، ص ٥ .

والولية تسقط ولا تشوفش بعينها عيل أبداً أبداً. أو يدهسها ترماي وتروح في داهية والراجل يرجع يحبني ويصرف علي زي زمـــان. أمانة عليك يا سيدنا الإمام يا شافعي مـــا تخيب طلبي ... من عند خدامتك سنية أحمد الزغب[1].

وفي خطاب آخر:

مولانا الإمام الأعظم الشافعي ..

يعني لا حس ولا خبر لحد دلوقتي يا سيدنا الشيخ! الحالة زي ما هي، لا خطوة ورا ولا خطوة قدام. وأقف أنا مغروز محلي زي اللوح، عدم المؤاخذة! البت «شربات» مش معبراني خـــالص ولا أبوها راخر المعلم «عزوز الدحه» معبرني. ده يبقى رابع جواب بعته لسيادتكم سيدنا الإمام أحلفك فيه بالله إنك تخلي نفسك معايا حبتين عشان البنت تحبني وتقع لشوشتها في حبي ... أنا وقعت في عرضك يا شافعي وأبوس قضبان نحاس مقـامك الطاهر عشان تقف جنبي في المأمورية دي ...[2]

وبعض الأولياء يطلب منهم زبائنهم طلبات فيها إيذاء للغير، حيث نشاهد مثلاً المرأة المغلوبة على أمرها والتي تزوج عليها زوجها بامرأة أجمل منهـــا فذهبت الى مسجد سيدي الشعراني تكنس ضريحه وتدعو:

النبي تجيب أجلها، يا سيدي يا شعراني!.. أو وابور جاز يطق في وشها اللي زي البدر ده وبتكيدني بيه!..أو تعميها..أو تكسحها.. أو تكسر لهـا دراع - شيء والسلام يخليها تنهد بآه وتنزوي جنب الحيط، بدل ما هي زي الشمعة المنقادة كده طول الوقت[3].

أمـــا داخل مسجد السيد البدوي في طنطا «فيقبع ضيوف السيد أبو الكرامات. بأطفالهم الكبار، والرضع، الأصحاء والمرضى .. كأنما

---

(١) جاذبية صدقي، على باب الله، ص ٦.
(٢) نفس المصدر، ص ٨.
(٣) نفس المصدر، ص ٢٥.

هذا مستشفى خيري ! » وتصف جاذبية صدقي كيف أنها سألت امرأة تحمل طفلها الذي كان « يركن رأسه على رأسها في إعيـــاء كالوردة الذابلة »، عن مرضه . فتطلعت المرأة اليها في لهفة وكأنها تستجدي حلاً ... وقالت :

- الواد ياختي بطنه بتنتفخ يوم عن يوم وتملا لما بقت زي البطيخة،...
وكان سخن يا حبة عين أمـــه ، وضعيف مش قادر يقيم راسه ..
مع إني يوماتي أزور بيه « السيد » زي ما وصفوا لي - مانيش متأخرة[1] !

إن جاذبية صدقي نفسها تعرض هـذه الصوَر بتعاطف بالغ يكشف عن اعتقادها هي بمثل هذه الخرافات وتصديقها لما يقال عن كراماتهم، وهي بالتالي لا ترى في أكوام الخطابات على أعتاب ضريح الإمام الشافعي مظهراً صارخاً من مظاهر الخرافة والجهل في المجتمع العربي ، ولا ترى في ذلك امتهاناً للعلم الذي ربمـــا تلقاه أصحاب تلك الخطابات ، ولا تتعرض للأسباب الحقيقية الكامنة وراء تلك السلوكيات .

ومع أنه من الواضح أن جاذبية صدقي تعرض تلك الصوَر من منطلق ديني يمثل مفهومهـا الذاتي عن الدين ، ويعكس مدى انخراطها بشكل مباشر أو غير مباشر بالنهج الصوفي ، إلا أننا نرى في ذلك تأكيداً لما سبق وأن أشرنا اليه، بأن مثل هذه الخرافات تحاط دائماً بهالة دينية ليزداد تأثيرها على الجماهير من حيث الإقناع ، ومن حيث الرجاء .

إن الموقع الذي تشغله كاتبة مثل جاذبية صدقي، والدور الهام في تشكيل عقلية الجماهير من خلال الكتابات الصحفية والأدبية ، يبين للأسف أن عدداً من « المتعلمين » و« الأدباء » و« المفكرين » يقومون بتعميق المفاهيم الخرافية في أوســـاط القراء ، مضيفين بذلك زيادات جديدة للمخزون الخرافي في عقلية الجماهير .

إن السلوك الفردي الذي عبّرت عنه الأمثلة التي اقتطفناها من كتاب على باب الله ، والتي تفصح أن اللجوء للأوليـــاء راجع بالدرجة الأولى الى

---

(١) جاذبية صدقي ، على باب الله ، ص ٦٢ .

الشعور بالعجز لدى الإنسان لانعدام وسائل الصراع لديه ، هـذا السلوك ينعكس على المجموعة ككل بحيث تلجأ الى الأولياء أيضاً تطلب اليها أن تساعدها في حل ما عجزت عن الوصول اليه .

يعبر عن موقف العجز الجماعي لدى جماهير الفلاحين واللجوء الى الأولياء تبعاً لذلك ، عبد الرحمن الشرقاوي في روايته الفلاح . فحين تستنفد القرية وسائل النضال السياسي الهشة لحداثتها ، وبسبب ضيق أفق قيـادة القرية وجهلها تطلب من أحد أبنائها أن يذهب الى القاهرة ولا يقصد إلا أهل البيت ، ويحملونه وصية كبيرة موجهة الى كافة الأولياء تكشف بالتفصيل عن مكانة هؤلاء في نفوس الفلاحين . فهم يقولون له :

حملناك الدعاء وسألناك الفاتحة .. اسأل الله أن يزيل الكرب وأن يمحق الكافرين ، قف طويلاً عند مقام الحسين فالتمس من سيد شباب أهل الجنة أن يكون وسيلتك الى الله تعالى لينتقم لنا ممن بغوا علينا ، وليعيد الى القرية رجالها الغائبين .. قل له يا حسين إنها قرية مؤمنة ، ما كفرَتْ بأنعم الله ، فلماذا يذيقها الله لباس الجوع والخوف ؟.. فليمنحهـا الشبع والري ، وليهبها شجاعة القلب وأمن الجوانح .. فليرفع مقته وغضبه عنها . اسأل لنا الله في مقام الحسين أن يولي علينا خيارنا ولا يولي علينا شرارنا ..

ولكن لا تذهب الى الحسين قبل أن تقرأ الفاتحة في مقام السيدة زينب الطاهرة فسِرّها باتِع .

أنذر أن تكنس القرية أرضَ الضريح وأن ترشه بمـاء الورد ، وأنذر لها مائة شمعة ان تُخرج الرجال ، ومائة أخرى ان انتقم الله للقرية من ظالميها .

وعندما تفرغ من زيارة أهل البيت فلتذهب الى السلطان الحنفي .. وأحذر أن تركب اليه ...

رح ماشيا فما يجب أن يقصده الراكبون ، إنـه ولي الفقراء .. صل العشاء أمام الضريح واشك له باسم القرية ...

فإذا فرغت من زيارة هؤلاء الثلاثة ، فلا تجعل يوماً يمر بك إلا طفت بمقام أحد أولياء الله .

انهم هم الذين يحرسون مصر .. ولا تنس سانت تريز حامية الضعفاء وصديقة المسلمين .. وأنذر لها نذراً ... احذر أن تضيّع وقتك في مقابلة رجل أو امرأة فلا جدوى لن ينصفنا أحد[1].

إن أسطورة التخصص في قدرات الأولياء ، وتميز كل ولي بقضاء نوع معين من الحاجات ، يعكس بطبيعة الحال تنوع الاحتياجات الجماهيرية ورغبتها في التأكد من قضاء هذه الحاجات على يد ولي متخصص . ويبدو أن خدم أضرحة الأولياء كان لهم دور كبير في إشاعة فكرة التخصص تبعاً لرواج الحاجة الاجتماعية . وفي كثير من الأحيان فإن الصدفة تلعب دورها في تحديد تخصص الولي، كأن يُشفى مريض بوجع الأذن مثلاً بمحض الصدفة بعد زيارته لضريح واحد من الأولياء فيشاع أن ذلك بفضل تخصص ذلك الولي بأمراض الأذن ... كذلك فإن « كرامة » الولي التي اكتسب بموجبها شهادة الولاية تصلح في كثير من الأحيان لتحديد اختصاص معين له في ذهن الجماهير . غير أننا نجد حالات أخرى تلجأ فيها الجماهير الى أضرحة الأولياء لقضاء حاجاتها بنفسها بعيداً عن أعين الآخرين بسبب ثقل التقاليد الاجتماعية وتقييدها لحركة الإنسان . ويستفاد هنا من الضريح كستار للغياب عن المنزل أو كمكان للقاء . ففي أقصوصته حادثة في المدينة القديمة يقدم لنا صادق النيهوم الكاتب الليبي صورة عن لقاء تم بين زين العابدين، بطل القصة، وبين امرأة يريد أن يتزوجها ولكنه أصر على أن يراها . ولم يكن بسبب التقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع الليبي من وسيلة للقاء إلا عند ضريح أحد الأولياء ، والذي يقع في شارع البحر في مدينة طرابلس . قالت له السيدة التي وعدته بأن تجد له زوجة :

نحن هنا ، أعني نساء المدينة القديمة نملك حيلة متواضعة لعرض بعض عرائسنا على الرجال الذين يرغبون في الزواج .. هل تعرف

---

(١) عبدالرحمن الشرقاوي، الفلاح، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٤٠-٢٤١ .

شارع البحر ، انه أهم جزء في خطتنا [1].

ثم أضافت قائلة :

– إن خطتنا في الواقع لا يمكن تنفيذها بدون جثة الرجل الميت.

– لماذا ؟

– لأن السيدة زوجتك القادمة تستطيع أن تتركك ترى وجهها اذا جاءت لزيارة القبر ، فيما تمر أنت صدفة بعربتك الفولكس فاجن وتنظر بجانب عينك .

– لماذا بجانب عيني فقط ؟..

– لأن ذلك يكفي .. ان المرء يرى أكثر من نصف الوجه في نظرة واحدة . ثم إننا لا نملك سوى ميت واحد في شارع البحر ، والنظر ملياً الى وجه امرأة ليبية يحتاج الى مقبرة كاملة [2].

واتفق زين العابدين على أن يلتقي مع المرأة التي ستكون زوجته في يوم الجمعة ، وكان اللقاء

... عند مدخل شارع البحر .. كانت السيدة قد لبست حذاءها الفضي ووضعت عقداً من الفيروز حول عنقها ، وكانت تمضغ اللبان وتنظر الى المواطنين بعين واحدة ... وقد اتجهت الى قبر المرابط (الولي) على الفور ودارت حوله مرتين ثم طفقت تمسح الراية الخضراء بيدها وتقبلها ... وكان ثمة مواطن زنجي يقف عند انحناءة الطريق المقابل للقبر ويداري وجهه في الجدار .

– ماذا تفعل هنا يا سيدي ؟!

– لا شيء .

– أنا أيضاً مثلك [3].

وهكذا نجد أن هناك أسباباً اجتماعية تجعل لأضرحة الأولياء فائدة من

---

(١) صادق النيهوم ، فرسان بلا معركة ، دار الحقيقة، طرابلس ١٩٧٣ ، ص ٧٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٣ – ٨٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٦ – ٨٧ .

نوع مـا وهي أن يتمكن المواطنون من تحقيق احتياجاتهم التي تحول التقاليد والأفكار التي تقدّس الولي ذاته ، من تحقيقها علناً . وهذا واحد من مظاهر التناقض في الفكر العربي السائد لدى الجماهير وفي القيم الإجتماعية السائدة ، وواحد من مظاهر التناقض في سلوكيات الإنسان العربي الخاضع للتقاليد .

ورغم انتشار التعلم في المدن خاصة وفي بعض أنحاء الريف وبشكل أقل كثافة ، وبرغم اتصال العالم العربي بالعالم الصناعي المتقدم ، ورغم أن العصر قد أتاح مجالاً واسعاً لتبادل المعلومات ، إلا أن اللجوء الى السحر والشعوذة والخرافة والتشفّع وطلب المعونة من الأولياء ما زال واسع الانتشار في عدد من البلدان العربية . وحتى السبعينات من هذا القرن . وما زلنا نجد النساء يتقاطرن على أضرحة الأولياء للعثور على زوج أو استرجاع زوج مال لأخرى أو للحصول على البنين والبنات أو طلب القضاء على 'ضرّة' الى غير ذلك من المطالب . ويتوافد على الضريح نساء يمثلن قطاعات مختلفة من المجتمع فهذه :

سيدة تمشي حافية القدمين .. وفاء لنذر لسيدي يحيى بعد أن فك عقدتها... وأخرى تحمل طفلها لكي يعيش... وثالثة تجر وراءها قطيعاً من الأطفال ... رابعة تبكي بحرارة ... خامسة تصرخ.... سادسة تهمس للضريح من أجل الحصول على ابن الحلال ... سابعة تطلب أن يحل لها مشكلة الزوجة الثانية ويفرّق بين ضرتها وبين « أبو العيال »[1] .

ويقع ضريح سيدي يحيى في حي الفورية في وسط جامع صغير . وحين سئلت سيدة توقد ثلاث شمعات على الضريح عن حكاية سيدي يحيى مع النساء ترد السيدة في صوت منخفض :

إنـــه أحد الأئمة الصالحين ... ذاع صيته .. واشتهر بين الأئمة المسلمين بأنه قادر على حل مشاكل الستات . كان في حياته يقول : « جناحهن مكسور » ... كان في حياته يساعد الأرامل والمطلقات

(١) روز اليوسف ، عدد ٢٣٣٠ ، ١٩٧٣/٢/٥ ، ص ٤٨ .

والعانسات والمحرومات من الإنجاب .... وكل من تصادفها مشكلة في حياتها الزوجية تلجأ اليه ...أو يزورها هو ويستمع اليها (1)

ويتردد بين أهالي حوش قدم في حي الغورية أن سيدي يحيى تشفع لله لأكثر من واحدة

كانت محرومة من نعمة الإنجاب ... فانجبت أكثر من مرة ... وأصبح لها عدد من الصبيان والبنات ... وكان يجلب العرسان العانسات .... (٢)

وكما هو متوقع فإن لهذا الضريح شيخ يقوم بخدمته ويقيم مولداً للولي سيدي يحيى كل يوم سبت . ويتشفع بدوره للسيدات عند سيدي يحيى الذي يتوقع أن يتشفع بدوره عند الله . وفي الطريق الى الجامع الذي يقع فيه الضريح :

تصادف أشكالاً وألواناً من السيدات العجائز يتربعن على قارعة الطريق .. قارئات الكف .. وضاربات الودع .. واستطلاع البخت بورقة الكوتشينة .. والزار وفك أشكال السحر وطلاسم الجان والعفاريت .. (٣)

إن استمرار لجوء الجماهير الى الاستنجاد بالأضرحة والأولياء وتصديقها للسحر ومفعولاته رغم التقدم الذي طرأ على الحياة الانسانية عموماً والذي أصاب الحياة العربية منه نصيب ملحوظ وإن كان ضئيلاً يقودنا الى الاستنتاج بأن التعليم وحده بالمفهوم المجرد ليس كافياً لتغيير سلوكيات المجتمع وتطوير مفاهيمه عن الحياة وتعميق ارتباطاته بالنظريات العلمية العصرية . لذلك فإن العمل على تغيير الواقع المادي للانسان هو واحد من الشروط الأساسية لتغيير مفاهيمه وتغيير أسلوبه في مواجهة الحياة . وفيما يخص الأمثلة التي أشرنا اليها أعلاه نجد أن دور التقاليد الاجتماعية ما زال بارزاً من حيث فرض

---

(١) روز اليوسف ، عدد ٢٣٣٠ ، ١٩٧٣/٢/٥ ، ص ٤٩ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

المزلة على المرأة وإبقائها تابعاً للرجل اقتصادياً وقانونياً . هـــذه التبعية التي تفرض استمرار حـــالة الطغيان من قِبل الرجل على المرأة ، وعجز المرأة عن مواجهة هذا الطغيان سواء عجزاً مادياً أو فكرياً أو قانونياً ، يدفعها الى ما هو خارج عن القانون وخارج عن المادة وخارج عن الفكر العقلاني، ونعني الخرافة ، سواء كانت هذه الخرافة على شكل طلسم ، أو تميمة أو ضريح .

إن المرأة التي ذهبت الى قبر سيدي الشعراني بعد أن تزوج عليها زوجها بأخرى قد دفعها الى ذلك التشريعات القانونية، وفي هذه الحالة قانون الأحوال الشخصية ، من حيث أن للرجل الحق والخيار في أن يتزوج عليها واحدة وثانية وثالثة وهي – أي زوجته الأولى – صاحبة المشكلة لا تملك قانوناً تمنعه فيه من هذا الحق الذي أعطاه إياه المشرّع . كذلك فإن عجزها الاقتصادي وعدم قدرتها على أن تكون عضواً في المجتمع بالمفهوم الاقتصادي، جعلها تابعة لزوجها وعالة عليه وتخشى أن لا تجد ما يسد نفقاتها إن هي تركته . وبالتالي فهي غير قادرة على طلب الطلاق لأنها وإن كان لهـــا الحق في ذلك قانوناً (رغم الإشكالات الكثيرة والمعقدة لمثل هذا الطلب إن قدمته) إلا أنها غير قادرة فعلاً على مواجهة الحياة بمفردها لعجزها الاقتصادي . ولذا فهي مجبرة على البقاء رغم تغير الظروف بالنسبة لهـا وسقوطها من منزلتها كسيدة البيت الأولى . كذلك فهي عاجزة عن الثورة والتمرد على الرجل لأنـــه يستطيع طلاقها في أي وقت يشاء ولا تستطيع أن تمنعه من هـــذا الحق القانوني الذي منحه إياه المشرّع أيضاً . وهكذا فإنه يبدو لهـا وأن لا وسيلة للخروج من هذا المأزق المصيري . غير أن رصيدها من الخرافة أثنـاء الطفولة وجهلها ، والمعلومات الخرافية التي تتأثر بهـــا من البيئة الاجتماعية ، وما تسمعه عن كرامات الأولياء أو تأثير السحر ، يدفعها الى اللجوء الى سيدي الشعراني أو سيدي يحيى أو غيرهم من الأسياد . وحتى أمام ضريح سيدي الشعراني ، تجد نفسها محرجة في الحل أو الطلب الذي تتقدم بـه اليه . فهي لا تستطيع أن تطلب منه إلا أن ينزل بعلِتّها (ضرتها) كل المصائب والنوازل حتى يتحول الرجل عنها وتستعيده هي ، فتعود الى مكانتها الأولى .

أما النسوة اللاتي يذهبن الى الضريح طلباً للإنجاب وأحياناً ينجبن بواسطة خدام الضريح كما ذكرنا سابقاً ، فـإن المفاهيم الاجتماعية التي يعتنقها الرجل والتي تشكل تهديداً دائماً للمرأة ، تدفعها الى القبول بالخرافة في سبيل ضمان مستقبلها الاقتصادي والمعاشي . وعليه فان الترقي في المستوى التعليمي أفقياً وعمودياً لا بد وأن يرافقه ترق في التشريعات وتطوير لها وترق في العلاقات الانتاجية من حيث القضاء على التبعية الاقتصادية لشرائح من المجتمع على شرائح أخرى ، وترق في المفـاهيم الاجتماعية والفكرية ، وترق في طبيعة العلاقات الاجتماعية. بمعنى أن التعليم الذي يُراد منه تخليص المتعلم من مركبات الجهل والخرافة ، وإبدالها بمفاهيم علمية عقلانية لا بـد وأن ترافقه عمليات داخل المجتمع نفسه لتخليص المجتمع من الرواسب الخرافيـة أو العلاقات التي تدفع الى الخرافة أو تكرسها أو التشريعات المتجمدة .

إن الأمثلة التي أوردناها يجب أن لا تؤخذ على أنهـا تمثل حالات فردية متفرقة هنـا وهناك ، بل يستطيع المدقق أن يتعرف على معالم ودلائل تشير أو تؤكد أن هذه الأمثلة تعبر عن حالة مرضية عامة تأخذ بخناق المجتمع العربي عموماً وشرائحه الدنيا على وجه الخصوص . ويجب كذلك أن لا ينظر اليها، على أن أثرها لا يتعدى الأفراد الذين ينخرطون فيها ، إذ أن بنـاء الدولة الحديثة ، وكما أشرنا سابقاً ، يعطي بالضرورة أهمية للدور الذي يقوم بـه الإنسان في جسم الدولة والتي يتأثر بنيانها تأثراً بالغـاً بالعقلية الاجتماعية ، بحيث يحيل وجود أفراد كثيرين يتمتعون بعقلية خرافية جهاز الدولة الى نظام يعمل في كثير من الأحيان بمفاهيم خرافية. أي أن الدولة بأمرها: بأجهزتها، بمواطنيها ، بل وبقياداتها قد تتحول الى كتلة بشرية تطلب المعونة من القبور والصالحين ، وتنتظر الأولياء والقديسين ليفتحوا لهـا أبواب الفرَج ويرفعوا عنها الغمة وقت الضيق .

وفي نفس الوقت فـإن الفئة الحاكمة تكون قادرة على استغلال العقلية الخرافية للمواطنين لصالحها ، بأن تروّج لهم مـا تشاء هي من أفكار أو أحداث تصبغ عليها الصبغة الدينية أو ما يشبهها خدمة لمصالحها أو صرفاً

للجماهير عن التعرف على حقائق لا تريد لها الفئة الحاكمة معرفتها .

ولعل قصة ظهور مريم العذراء في كنيسة الزيتون في أيار سنة ١٩٦٨ ، يعطينا مثالاً حياً وحديثاً على استعدادية العقل العربي لتقبّل الخرافة وتصديقه لمعجزات الأولياء والقديسين .

ولقد تبنت وسائل الإعلام الرسمية وشبه الرسمية في مصر آنذاك ترويج قصة الظهور ، فنقلت الأهرام بياناً للبابا كيرلوس السادس يعلن فيه حقيقة ظهور العذراء . ونشرت الجريدة ، والتي تعد من أهم الجرائد العربية ، على صفحتها الأولى، صورة تقول انها صورة العذراء أو طيفها. أما وسائل الإعلام في مصر فقد جندت قواها لتذيع محلياً وعالمياً تفاصيل المؤتمر الصحفي للبابا، والصوَر الملتقطة :

العذراء تظهر بكاملها على سحاب ناصع البيـــاض أو بشكل نور يسبقه انطلاق أشكال روحانية كالحمام (١).

واجتاحت البلاد حمى دينية، وجدت في الذهن العربي تربة خصبة للنمو. وجنّد العديدون أنفسهم للبحث عن البراهين العلمية . وكان العلم لا بد أن يستجيب لهذا الهوس ويزود أصحابه بالبراهين القاطعة متى شاءوا . وكان هناك « أساتذة جامعيون » وعلماء ومفكرون ورجال دين نشطوا لكتابة المقالات « العلمية » لإثبـــات ذلك الحَدَثْ وتعليل ظهور مريم العذراء . ولسنا نخالهم بعيدين عن ذلك . فهم يدوسون العـــلم بأقدامهمْ حتى يثبتوا للجماهير أن السلطة رأت أو وافقت على رؤية مريم في سماء الزيتون. والجماهير العربيـــة وراء أجهزة الإعلام والمعجزة التي ستعيد القدس وتطهر سيناء . ويزيّف كل شيء لتصبح للخرافة والهوس الديني الذي يغذيه الشعور باليأس وخيبة الأمل نتيجة الهزيمة في حزيران ١٩٦٧ ،

مغاز سياسية واجتماعية وثقافية وسياحية بعيدة المدى بالنسبة للشعب العربي في مصر وبالنسبة لاستعادة الأرض المحتلة بعد الخامس

---

(١) الأهرام ٥/٥/١٩٦٨ .

من حزيران[1].

من الوجوه المأساوية لهذه الحادثة وما شابهها، أنها كشفت بوضوح أن العقل العربي لا يشكل العلم بالنسبة له أكثر من قشرة خارجية رقيقة يمكن أن تتساقط اذا تعرض هذا العقل للاهتزاز. وأن العلم ما زال في ممارسة الكثيرين لا يعدو أن يكون قميصاً أو معطفاً يلبسه حين يقرأ كتاباً أو يدخل مختبراً أو يلقي محاضرة. ويخلعه في سائر الأوقات. العلم كما مثلته قصة ظهور العذراء ما زال في نظر العديد من المتعلمين خادماً مطيعاً: تأمر السلطة أو المفكر أو الصحافة بأن يحضر برهاناً قاطعاً لأي شيء مهما كان خرافياً. وما على العلم إلا أن يمتثل صاغراً. ويقدم البرهان القاطع، والدليل المانع بالشكل والحجم والكيفية التي تريدها السلطة، ويضيف: نحن في الخدمة.

والجماهير تقبل ما يقال لها باسم العلم لأنها الى حد كبير لا تعرف ما هو العلم. وإذا عرفته تعرفه على شكل معلومات وعبارات محفوظة. لا تعرفه على أنه شك وتجربة واختبار، ومعلومات وتجرد، وبحث وأدلة، وخبرة وممارسة، وحرية وانطلاق، وخلق وثقة بعقل الانسان.

لو أن أسطورة ظهور مريم العذراء تعود الى ما قبل الف عام مثلاً لاكتفى الناس بتصديق الأسطورة على أساس ميتافيزيقي بحت وإيمان ديني بدائي ولانتهى الأمر عند ذلك. ولحاول الانسان العربي في العصر الحديث اذا كان ممن يقبلون مثل هذه الأساطير أن يصدق بها بالاستناد الى الرواية التاريخية ويعترف أنه لا يستطيع أن يبحث الأمر بشكل علمي لأكثر من سبب. أما أن تكون هذه الأسطورة قد وُلدت في الثلث الأخير من القرن العشرين، وأن تعمد أجهزة الإعلام الرسمية ومن يسير في ركابها من «المفكرين» و «العلماء العرب» الى تسفيه العقل والعلم وابتذالهما من أجل استخراج جواز سفر مزيف للخرافة يحمل توقيعاً وخاتماً مزيفين للعلم، فهذا ما يجسم المأساة.

---

(١) د. صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٠، ص ١٥٢.

ومن أجل ذلك نبش المزيفون مقبرة الخرافة من جديد وأخرجوا منها هياكل بالية مثل تحضير الأرواح والتقاط الصوَر الروحانية للأموات وتجسيد الأرواح عن طريق الوسطاء . وهُم محافظة على العصرية ألبسوا كل هيكل ، الروب الجامعي والقلنسوة التقليدية لجامعة اكسفورد وكمبردج وغيرهما .

إن ظهور عدد من الأقلام التي يحمل أصحابها ألقاباً علمية عالية ويشغلون مناصب قيادية هـامة (سواء كانت مناصب سياسية أو ثقافية أو إعلامية) واندفاع هذه الأقلام لإلباس الخرافة ثوباً علمياً مزيلاً مستغلين عواطف الجماهير وعجزها وخيبة أملها ، يكمن وراءه عوامل أساسية ثلاثة :

● إن هذه الأقلام تمثل قطاعاً من العقول العربية التي ما زالت خرافية في جوهرها رغم المظاهر الخارجية والألقاب العلمية التي توحي بأنها غير ذلك.

● إن هذه الأقلام تمثل قطاعاً من المتعلمين الذين ما زالوا على استعداد لبيع العلم كأي سلعة أخرى مقابل مكاسب مادية أو أدبية يمكن الحصول عليها في السوق العربي وتتيحها مثل هذه المناسبات .

● إن سيطرة الأجهزة الحاكمة وسطوتها ، مـا زالت قادرة على كبت وإخماد كل تنفس علمي ، وقهر كل تململ عقلاني حين يكون الأمر متعلقاً بالجماهير وله مساس بالجهاز الحاكم .

يعلق الدكتور صادق جلال العظم[1] على استخدام السلطة أجهزة الإعلام الرسمية للترويج لحكاية ظهور العذراء وما يعني ذلك من « إلغـاء عقل » الإنسان العربي بقوله :

أما العنصر الوحيد الذي افتقدته هذه « الدراسة » العلمية (ويعني بها التفسيرات العلمية المزورة التي تقدم بها عدد من الكتّاب) بالإضافة الى تحضير الأرواح ، فهو حفلة الزار المشهورة ، وعندئذ كانت تكمل صورة الإجازة التي أخذها العقل العربي[2].

---

(١) راجع البحث القيم للدكتور صادق جلال العظم حول معجزة ظهور العذراء وتصفية آثار العدوان في كتابه نقد الفكر الديني ، ص ١٥٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٢ .

وفي اعتقادنا أن النجـــاح الذي حققته أجهزة الإعلام في مصر آنذاك بترويج هذه الأسطورة على المستوى الجماهيري ، يعود بالدرجة الأولى ، الى قابلية الذهن العربي لتقبل الخرافة والتصديق بهـا ، خاصة في ساعات يأسه وفشله . ويكون هـــذا التصديق أسرع انتشاراً حين تكون الخرافة من « مُبَـارَكَـة » أو مُباركةِ السلطة الحاكمة .

ولم يتوقف دور العذراء عند الظهور في سماء الزيتون عام١٩٦٨ ، بل إن فتاة سودانية ادعت أن العذراء قد أجرت لها عملية جراحية . وتروي الفتاة قصتها فتقول :

تكرمت أم المخلص البتول العذراء مريم بإنهـاء كل آلامي ... إذ أجرت لي هي بذاتها عملية على ثلاث ليال .... كانت الليلة الأولى ليلة الجمعة ١٢ مايو سنة ١٩٧٢ ... استيقظت على أثر إحساس بألم شديد في أنفي ، فوجدت بالمكان إضاءة خاصة واختفت وعاد المكان ظلامه ... وفي الظلام شعرت بتحسن في فتحة الأنف اليمنى وخف الألم بعض الشيء. وفي الليلة التالية تكرر ما حدث في الفتحة اليسرى. وفي الليلة الثالثة استيقظت على صوت آلات ومشارط وقـــد امتلأ المكان بالنور .. وظهرت السيدة العذراء وحولهـا أشياء لم أتبينها . وأخذت تقوم بإجراء العملية ... وبعد العملية مباشرة مضت السيدة العذراء واختفى النور. وفي الصباح نزلت من أنفي دماء كثيرة .... ثم شفيت تماماً [١] .

وفي الوقت الذي يفسر طبيب القصة المذكورة أعلاه بأن المريضة كانت مصابة بالحساسية وأن التحسن الذي طرأ عليها كان نتيجة تغيّر في حالتها النفسية بسبب تدينها ، وأن ما سمعته لا يعدو أن يكون خيالاً ولكنه ترك أثراً على حالتها المرَضية ، نجد أن رجل الدين ، راعي الكنيسة بعطبره في السودان يفسر المسألة على أنها معجزة ، وأن الله يستجيب لمن يصلـّون :

---

(١) روز اليوسف ، عدد ٢٣١٠ ، ١٩٧٢/٩/١٨ ، ص ٣٢ .

ويؤكد أيضاً أن عهد المعجزات لم يزل ... وقد شاهدنا العديد من المعجزات للسيدة العذراء [1].

ويؤكد الدكتور زكي نجيب محمود، كما مر معنا سابقاً ، ملاحظاتنا ، وهي أنه يسمع من رجال العلم من الخرافات الساذجة ما لا يختلف عن ما كان يصدق به أسلافنا السذج [2].

وفي الواقع فإن العديد من المتعلمين العرب مصابون عقلياً بالشيزوفرونيا أو انفصام الشخصية، فيما يتعلق بالعلم. ويمثل الفرد وكذلك العديد من أجهزة الدولة ومؤسساتها ، يمثلون بكل عناد وإصرار قصة الدكتور جيكل ومستر هايد . علميون في النهار ، وخرافيون في الليل ؛ علميون حين يتناولون العلم بصورته المجردة ، وخرافيون في التطبيق ؛ علميون في الكلمات ، وخرافيون في الممارسة ؛ علميون في النظريات وخرافيون في الأعمال والتحليل .

إن « الشيزوفرونيا » العربية تجاه العلم تتضح في العديد من الأمثلة والممارسات اليومية ، سواء على المستويات الفردية البسيطة ، أو المستويات الجماعية .

لقد كان من الآثار السريعة الظهور وربما السريعة الزوال أيضاً لحرب حزيران سنة ١٩٦٧ أن استفاق العرب على أهمية العلم والتكنولوجيا في التحكم بالأحداث في تاريخ الإنسان المعاصر . واستفاقوا أيضاً على أن اسرائيل كانت وما تزال تخطط على أسس علمية وتقيم قوتها العسكرية بالإضافة الى قواعد أخرى على قاعدة قوية من العلماء والخبراء والإخصائيين . وتنبهوا أيضاً الى أن من أسباب هزيمة ١٩٦٧ كان عدم علمية العقلية والأجهزة العربية . وكُتبت حول هذا الموضوع العديد من الكتب والمؤلفات بكل اتجاه وكل لون . بحيث أصبحت عبارة « العلم والتكنولوجيا » لازمة في كل مقال أو بحث أو حديث أو خطبة، حتى ولو كان جوهره خرافياً . وعلى سبيل المثال

(١) روز اليوسف ، عدد ٢٣١٠ ، ١٩٧٢/٩/١٨ ، ص ٣٣ .
(٢) د. زكي نجيب محمود ، تجديد الفكر العربي ، ص ٥٩ .

أكد الرئيس عبد الناصر أهمية العلم والتكنولوجيا في العديد من خطبه، فقال أثناء زيارته للمواقع العصرية المصرية :

إن الحرب أصبحت اليوم حرب علميـة قبل أن تكون أي شيء آخر . ولا يمكن أن نحقق هذا التفوق إلا على أساس استيعاب كامل للعلم والتكنولوجيا. وأنتم كقيادات تحتاجون الى العلم والتكنولوجيا.... ولقد صممت على أن يأتي الخبراء السوفييتيون لكي نعرف منهم أسرار أساليب استخدام الأسلحة التي حصلنا عليها من الاتحاد السوفييتي . إن أعداءنا يتدربون منـذ سنوات تدريباً تكنولوجياً ... ويطبقون ما يتعلمونه . فإذا لم نكن على مستوى ممتـاز من التدريب والمعرفة بالعلم والتكنولوجيا فإننا لن نتمكن من تطبيق ما في الكتاب. وإذاً يجب أن نستوعب المعلومات والمعرفة [١].

أما الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية للجمهورية العربية المتحدة آنذاك فقد أكد على دور العلم في كثير من خطبه ، ومن أمثلة ذلك قوله :

ومن الخبرات التي اكتسبناها من هذه المعركة، الاهتمام برفع كفاءة ومقدرة وفعّالية الجندي المقاتل ... وأصبح ضرورياً أن يكون الجندي المقاتل الصالح فرداً من مستوى ثقـافي معين .. ومن ضمن النتائج التي أخذناها في المعركة السابقة عدم قدرة الجندي الأمّي على تفهم أسلوب المعركة .. فلمـاذا نتقي الأمّي وهو غير مطلوب لالتزامات المعدات الحديثة؟ ومن هنا جاءت أسبقية الالتحاق بالقوات المسلحة كي تقتصر على المتعلمين والمثقفين، وهذا وفّر لنا أشياء كثيرة. فإذا كان لدينا الكفاية من الرجال فلماذا لا نختار الأحسن ؟ والأحسن هنا يعني المقارنة على أساس الناحية العلمية والناحية الثقافية ، إذ أن المطلوب سيتجاوب تجاوباً فرديـاً مع تعقيدات الأسلحة الحديثة .

---

(١) النهار ، ١٣ آذار سنة ١٩٦٨ ، نقـلاً عن صادق جلال العظم ، النقد الذاتي بعد الهزيمة ، ص ٩٨ .

وكل تحرك في القوات المسلحة سواء في التـــدريب أو التخطيط أو مفهوم العمليات كله مبني على أسس علمية [1].

إن هذا الاهتمام الظاهر بالعلم ينطق به الدكتور هيكل، ذلك أن أخباراً تذاع في حزيران من عام ١٩٧١ تكشف بأن للفريق محمد فوزي وجهاً آخر، وليبدو أمام ضباطه وجنوده وأمام الجماهير العربية، وأمام العـالم، بصورة «مستر هايد» الذي يلجأ الى تحضير الأرواح والاستعانة بالوسطاء الروحانيين من أجل أن يصل الى قرارات عسكرية يفترض أن تعتمد كليـاً ومطلقاً على تحليل علمي للموقف العسكري ولطبيعة القوى المتصارعة. فهـــو - أي الفريق فوزي - يسأل الوسيط الروحاني والذي يشغل منصب أستاذ في الجامعة [2]:

- هل لي أن أسأل سؤالين صغيرين ؟؟

الوسيط: نعم.

الفريق فوزي: توقيت بدء المعركة الموجود في ذهني، هل هو مناسب أم لا ؟

الوسيط: إنه مناسب جداً بالمفهوم الذي ألهمنا اليه ونعتقد أنه سيكون بداية ناجحـــة لضربة سريعة تمهد للتحرير دون مزيد أو ضرورة للإسترسال في القتـال. ومن ثم فإن التوقيت من حيث هو توقيت ناجـح، ومن حيث استمراره نرجو الله أن لا يكون طويل الأمد، واستعدوا بالقوات الجوية والبحرية معاً في هذا المجال.

الفريق فوزي: شكراً. معركة العزم التي أزمعت اليهـا الآن تجيء قبل معركة التحرير أم بعدها ؟

الوسيط: بعدها .... بعدها ... ويُمد لها من قبلها [3].

---

(١) الأنوار، ١١ نيسان سنة ١٩٦٨، نقلاً عن المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٢) لاحظ أن استاذاً جامعياً أيضاً كان يقوم بدور الوسيط لتحضير الأرواح لأعضـاء السفارة المصرية في جاكارتا، أندونيسيا حسب ما أفاد أنيس منصور في كتابه حول العالم في ٢٠٠ يوم.

(٣) الأهرام، ١٩٧١/٦/٤، محمد حسنين هيكل، «تحضير الأرواح».

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن ، هل كان الرئيس عبدالناصر على معرفة بنوعية وعقلية معاونيه ، الذين نجد ثلاثة منهم وهم: الفريق أول محمد فوزي، وزير الحربية؛ والسيد شعراوي جمعة، وزير الداخلية؛ والسيد سامي شرف، سكرتير الرئيس عبد الناصر ، ينخرطون في عمليات تحضير الأرواح لاتخاذ قرارات تتعلق بمصير الأمة بكاملها ؟ وهل يعقل أن يكون انخراط هؤلاء بتحضير الأرواح قد ظهر فجأة دون تمهيد أو دون تاريخ شخصي ، ميال للخرافة بشكل أو بآخر ؟ وبالتالي فإن تأكيد الرئيس ووزير حربيته على « العلم » في الخطب الرسمية يصبح واجهة مظهرية تخفي عقليات غير علمية تؤمن بالخرافة أو لا تعارضها على الأقل .

وهناك أمثلة عديدة توضح ذلك الانفصام فيما يتعلق بالعلم فمنها أنه :

في اجتماع لعدد من الأساتذة الجامعيين في كلية الهندسة في احدى الدول العربية تطرق الحديث الى موضوع « تحضير الأرواح » فروى أحد الأساتذة أن هناك منحدراً بالقرب من القلعة في القاهرة يقع بين جبلين، ويمتاز بظاهرة غريبة ، وهي : أنه اذا ما قاد إنسان سيارته نزولاً مع المنحدر ثم أوقفها في وسط المنحدر ، وكان المحرك منفصلاً عن التروس ، فإن السيارة تأخذ بالرجوع الى الخلف بحيث تتسلق المنحدر بظهرها وهو عكس ما يتوقع الإنسان في مثل هذه الحالة . إذ يفترض أن تتحرك السيارة الى الأمام بفعل وزنها على المنحدر . ولما سئل ذلك الاستاذ الحاصل على شهادة دكتوراه في الهندسة عن تفسيره لهذه الظاهرة ، تردد قليلاً ثم قال: لا أدري... تماماً... إنما ... يقال ... يقال ... بأن هناك ولياً ... من أولياء الله الصالحين ... يسحب السيارة الى الخلف! وعندما استفسر أحد الحاضرين عن أن مثل هذه الظاهرة تخالف قانون الجاذبية وأنه لا بد وأن يكون من تفسير فيزيائي لها ، على افتراض أنها صحيحة فعلاً ... كان جهد الأستاذ هذا قد توجه الى إقناع الحاضرين بأن أياً من القوانين الفيزيائية لا يمكن أن ينطبق على مثل تلك الظاهرة ، وإنما ، ربما يكون ما يتناقله الناس صحيحاً .

وحين وجه أحد الحاضرين سؤالاً بدا خبيثاً الى الأستاذ وهو :

– ماذا يريد ذلك الولي الصالح أن يثبت للعالم حين يجرّ السيارة خلفاً صعوداً مع المنحدر ؟ فإن صاحب القصة لم يجد لذلك السؤال جواباً .

ومثال آخر :

إن مدرّساً لعلم الأحياء في مدرسة ثانوية كان منهمكاً في شرح مبادىء نظرية التطور لِدَارْوِن ، وكان التلاميذ يتابعون الشرح باهتمام واضح ويطرحون الأسئلة والاستفسارات على المدرّس ، فيجيب عليها مستنداً الى البراهين والأدلة العلمية المختلفة التي توصل اليها العلماء بهذا الصدد . وعندما قارب الموضوع على الانتهاء ، وقبل انصراف التلاميذ ، قال المدرّس والذي يحمل شهادة الماجستير في موضوعه ، قال بكل برود وثقة ووضوح :

أنا شخصياً لا أؤمن بنظرية التطور ... إنها كلام فارغ .. لأنها ضد الدين ... آدم هو أبو البشر ، وحواء أمهم ... « خلقناه في أحسن تقويم » .

وخرج التلاميذ وقد تبخّر جزء كبير من البراهين العلمية التي أتى بها المدرّس ، وأبطلها بعدم إيمانه ، وتفريغه إياها . ومع هذا فقد كان على الطلاب أن يتقدموا للامتحان وأن يجيبوا على الأسئلة المتعلقة بنظرية التطور حسب ما يقول العلم ؛ فالعلم على الورق فقط .

وحدث أن التقى أحد المؤلفين بطالب سوداني يحضر للدكتوراه في جامعة لندن (وذلك بعد سنوات من الحادثة المذكورة أعلاه) ، وتشعب الحديث بين الحاضرين الى نظرية التطور . وكان الزميل السوداني ينظَر اليه «كمرجع» في هذا الموضوع . وسأله المؤلف مصادفة :

– هل تؤمن بنظرية التطور أساساً ؟

– كلا .

– ولكنك تعد رسالة للدكتوراه في الموضوع .

– نعم ، ولكني لا أؤمن بها . (النظرية)

– وعندما يمتحنك أستاذك ، هل تجيبه بما تؤمن ؟

– كلا.. تكون إجابتي حسب ما هو موجود في الكتب وحسب النتائج التي توصلت اليها .

– لماذا تجري بحثاً إذاً في موضوع لا تعتقد بصحته ؟ ولا تنوي دحضه في نفس الوقت ؟

– هذه مسألة دراسة وأبحاث ومؤهلات . أمـــا الإيمان بالشيء فمسألة أخرى ! وبعد التخرج أؤمن كما أريد !

٤ — الموالـــد

ويتفرع عن الإيمان بالأولياء عادات الاحتفال بموالدهم فيما يسمى «بالمولد». وغالباً مـــا ينسب المولد الى اسم صاحبه كمولد السيد البدوي ومولد سيدي القناوي ومولد الحسين ومولد أبو مسلم .. الخ. وبالنسبة للقرية فـإن المولد يشكـّل مناسبة هامة للاحتفال، ينتظرها الفلاح باعتبارها من المناسبات القليلة التي يتغير فيها نمط الحياة اليومية. إنــه حدث احتفالي بارز. ويقوم الفلاحون عادة في مثل هذا اليوم بزيارة قبر الولي أو الرجل الصالح في منطقتهم أو المناطق الأخرى المجاورة، وذلك لاستجلاب البركات والمشاركة بالاحتفالات الدينية التي تقام عادة في مثل هذه المناسبات.

ويلاحظ أن العديد من القرى العربية لها احتفالاتها بالموالد، ويقل هـذا الاحتفال بالنسبة للمدن الكبرى باستثناء بعض الأولياء ذوي المكانات الرفيعة في مصر والعراق.

ففي مصر مثلاً نجد أن فكرة الاحتفال بالمولد، قـــد نمت بنمو الطرق الصوفية وانتشرت في مدة قصيرة في العالم الإسلامي كله. ولقد كان موقف رجال الدين المسلمين متأرجحاً بالنسبة لتوافق فكرة المولد مـع الدين. فمن حيث المولد النبوي يرى رجال الدين أن الاحتفال به لا بد وأن يشجّع لأنه يعمّق قضية الإيمان. ومن ناحية أخرى فإن الاحتفال نفسه هو بدعة ظاهرة. وهو محدث. وهو بذلك ضد العقيدة الإسلامية الأصيـــلة وضد السنّة. فابن تيمية (المتوفى ١٣٢٨ م) يدين في فتوى له، الاحتفال بمناسبات كتلك التي يحتفل بها في احدى ليالي ربيع الأول تحت زعم أنها ليلة مولد الرسول. وهو في نفس الوقت يحاول أن يجد توازناً صحيحاً بين تجاهل مثل هذا التعبد

الوثني والتبجيل اللائق . فهو ينبه المسلم الى مـــا عليه قوله وفعله وما عليه تجنبه مذكراً الناس أن الرسول لم يشأ أن يصبح قبره « وثناً يعبد بعدي »[1] أما السيوطي (المتوفى ١٥٠٥ م) فقـد كتب بتفصيل حول هذا الموضوع وأفصح عن الفكرة السائدة في زمنه ، وكما استمرت في العصور التـالية ، حين توصل الى أن مثل هذا الاحتفال « بدعة » ، ولكنه بدعة حسنة [2] .

والموالد ، ونعني بها الاحتفال بموالد الصالحين والقديسين والأوليـاء ، موجودة في معظم الأديان ، ويعتقد أنها انتقلت الى المسلمين كمحاكاة لاحتفال المسيحيين بموالد القديسين [3] . ونستطيع أن ندرك اهتمام الفلاح بمثل هـذه الأعياد اذا علمنا أن أعياده الشخصية قليلة وليس بإمكانه الاحتفال بها في كثير من الحالات، بينما لا تشكل الأعياد السياسية أو القومية بالنسبة له حدثاً يرتبط به عاطفياً أو ذهنياً .

فبالإضافة الى تلاوة القرآن في الموالد والاستماع الى سيرة النبي سواء شعراً أو نثراً أو كليهما ، تقـام حلقات الذكر المعروفة والتي تشكل جزءاً مكملاً للاحتفال ، وهي في نفس الوقت إحدى الطقوس الأساسية لدى الصوفيين .

ويرى الصوفيون أن الذكر

مفتاح باب الله وبرزخ الغيوب وجالب الخيرات وأنيس المستوحش وهو منشور الولاية والدافع الى التعرف بالله وليس أقرب الى الله من

---

(١) ابن تيمية، كتاب مجموعة الفتاوى ، القاهرة ١٣٢٦-٢٩ هـ / ١٩٠٨-١١ م ، الجزء الأول، ص ٣١٢ . وكان قبر الرسول في المدينة في الجزيرة العربية قد أصبح في القرن الثاني عشر للميلاد أي بعد خمسة قرون من وفاة الرسول أهم مركز يؤمه الحجاج حين زيارتهم للمدينة . راجع ابن جبير ، رحلات ، ص ٢٠٢ .

(٢) السيوطي ، مخطوطة حسن المقصد في عمل المولد ، برلين .

(٣) يعتقد أن أول احتفال بالمولد قام به مظفر الدين كوكبوري زوج شقيقة صلاح الدين في مدينة إربل الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة الموصل في العراق . وفي هذا الاحتفال يبدو واضحاً تأثير الصوفية والمسيحية واتجاهات يمثلها الشيعة والتي كان لها جميعاً أكبر الأثر في تطوير عادة تبجيل وتقديس النبي والأولياء . ويعطي ابن خلكان وصفاً حياً دقيقاً لذلك المولد الذي أقامه كوكبوري. ابن خلكان، وفيات الأعيان ، جزء ٤ ، ص ١١٢-١١٩ .

أسمائه وصفاته فلا ينبغي تركه ولو مع الغفلة عن تصور مـا في هذا الذكر من معان جلية .

... وأن أفضل الذكر : لا إله إلا الله . ويستحسن زيـادة محمد رسول الله ولو مرة وهذا للسالكين، و : الله . للعارفين . وهو. للشاهدين ، وهنـاك أسماء أخرى (لا يتاح إلا لأهلها الذين تنسموا نسيم المقامات والأحوال) .

وقـد أجمع أهل طريق الله من سالكين وواصلين على أن من لا ورود له من الذكر فـلا وارد له من التجليات ، فمن أراد ورود المواهب الإلهية الى قلبـه ومن أراد التقوى على عدوه من نفس أو شيطان فعليه بذكر الله ، ومن رام إرضاء الله فعليه بذكر الله ، ومن رام رضاء الله عنه فعليه بذكر الله ، ومن استشرف لمعرفة الله فعليه بذكر الله [1].

وقيل عـن الرسول أنه حين سأله علي بن أبي طالب عن « أقرب الطرق الى الله وأسهلها على عباده وأفضلها عنده ، أنه قال : يا علي — عليك بدوام ذكر الله سراً وجهراً وقل لا إله إلا الله قلباً وقالباً » فقال علي : كل الناس يذكرون الله يا رسول الله وإنمـا أريد أن تخصني بشيء . فقال ﷺ : « مه يا علي إنّ أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله » ثم قال : « الحمد لله .. اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد » [2].

ورغم أن الفكرة الظاهرة وراء الاحتفال بالمولد هي فكرة دينية ، يتهم البعض الفاطميين بأنهم ابتدعوها لإلهـاء الناس عن الواقع السياسي وأساليب الحكم التي كانوا يستبدون بها [3] ، إلا أن يوم المولد يشكل يوم نشاط تجاري

---

(١) الحسيني ، جمهرة الأولياء ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦١ .

(٣) يمكن إرجـاع الاحتفال بالمولد الى الفترة الوسطى والمتأخرة من تاريخ الفاطميين . راجع المقريزي ، كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، مطبعـة بولاق ، جزء ١ ، ص ٤٣٣ .

على مستوى القرية أو مجموعة من القرى ، حيث تعرض البضائع التي يهتم بها الفلاح ، وتعقد فيها الصفقات التجارية ، ويستفيد منها كثير من أصحاب الملاهي والباعة والمصنعين للمواد الرخيصة الملونة الجذابة . ومع هذا فإن الفلاح يعاني اقتصادياً أحياناً من مثل هذا الحدث حيث يبالغ في الإنفاق:

بما لا يتفق مع ميزانية الأسرة، لنجد مثلاً الفلاح البسيط لا يبخل بقليل أو كثير في سبيل الاحتفال بهذه الذكرى، بل قد يستدين[1].

كذلك فإن نشاطات غير مرغوبة تروج في مثل هذه الاحتفالات وخاصة حين تكون كبيرة . فتنتشر

السرقة والنشل والألعاب التي تعتمد على المقامرة وابتزاز الأموال من السذج ... أو انتهاز الفرصة للأخذ بالثأر ، مما يتنافى مع أغراض المولد [2] .

ومن ناحية اجتماعية فالمولد يشكل يوم نشاط اجتماعي تقام فيه المهرجانات وتعرض فيه الألعاب المختلفة ، ويتسابق فيه الشعراء والزجالون ويشارك فيه الحواة والمشعوذون والقصاصون ، وتشترك فيه فرق موسيقية محلية أو على نطاق المنطقة. ويتحلل فيه أبناء القرى أو المدن من كثير من القيود الاجتماعية اليومية ويمارسون أنواعاً مختلفة من اللهو والتسلية [3].

إن مثل هذه الاحتفالات السنوية لا تشكل خطراً بحد ذاتها ، بل هي إحدى المناسبات التي تدخل البهجة والتغيير على حياة المواطن الرتيبة ؛ ويقام مثيل لها في كثير من أنحاء العالم في الاحتفال بالقديسين [4] . غير أن

---

(١) الجمهورية ، ١٩٦٥/٨/١٩ ، ص ٦ ، القاهرة .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) يذكر أحمد أمين في كتابه قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص٣٨٤ ، أنه في حفلة « الدوسة » وهي من أشهر حفلات المولد كان ازدحام الناس شديداً مما يؤدي الى أن « يهيص بعض الشبان في هذا الازدحام ، وكثيراً ما تحدث أفاعيل ومراسلات بين راكبات العربات وراكبيها بما يحمل الليل فتنة » ثم يقول أن الخديوي توفيق « أبطل عادة « الدوسة » ، لما ينشأ عنها من أضرار » . راجع ما جاء بتفصيل تحت كلمة « الموالد » . ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .

مـــا يهمنا في هذا البحث هو أنـه من خلال الطقوس والكلمات التي تردد ، والقصص التي تروى بهذه المناسبة والتي تتعلق دائماً بصاحب المقام وأفعاله وكراماته وخوارقه تتعمق أو على أقل تقدير يحافظ على جزء كبير مـــن الخرافات التي تملأ حياة الريف والمدينة الى حد ما ، وينفض القوم وقد تزودوا بذخيرة من الأساطير والحكايات تشغل بالهم وتمـلأ عليهم خيالهم لفترات طويلة .

كما أن النشاط الذي يمارسه المشعوذون ، من كتابة الحجب وقراءة الحظ، وأعمـال السحر المختلفة تؤكد دور الخرافة في ذهن المواطن البسيط والذي تخلو حياته من الاحتفالات الحقيقية . ويساعد جو المولد المهرجاني وكثرة ترديد اسم الله والنبي وصحابته وصاحب المقام على تصديق الفلاح لكثير من الخزعبلات التي يتضمنها المهرجان .

يصف يوسف السباعي بدقـــة وبأسلوبه الساخر وتعليقاته التهكمية ، في روايته السقامات مشهداً حياً لأحد الموالد في القاهرة وما يتخلله من احتفالات دينية وتجارية بقوله :

وأحس الرجلان (السقا شوشه وشحاته «افندي») باشتـــداد الزحام وازدياد الضجيج وارتفاع الطبول والدفوف والمزامير . كانت مظاهر المولد بادية في الحي كله .. فقـد انتشرت الأعلام ، وعُلّق البطيخ الزجاجي الملون ، ولكن المظـاهر كانت تزداد تركيزاً كلما ازداد المكان قرباً من ضريح المحتفى بمولده .

واضطر « شوشه وشحاته » الى التنحي عـــن الطريق والتزام الرصيف عندما بدت بشائر أحد المواكب،وقد تمالت وسطه الأعلام الملونة ، المزركشة بالآيات والكتابات المختلفة مثل : « الله أكبر » و «لا إله إلا الله» وأسفل هذه الآيات الإلهية كان عبيد الله يتراقصون ويترنحون ويتواثبون ويتصايحون ويدقون الدفوف، حتى بدا كأن الله لا يمكن الوصول اليه إلا بتخت أو بزفّه .. ومرّ موكب عبيد الله

المسين بذكر الله الراقصين تحت أعلام الله[1].

أما عن النشاط التجاري في مثل هذه المواسم فإن :

.. حانوت « الحاج عمار » تاجر المانيفاتورة يباشر عمليته السنوية في تفريق شقق الفول النابت والعيش التي كان ينذرها الحاج في كل مولد، وكان الناس يتقاتلون حول الحانوت في سبيل الوصول الى الشقق المليئة بالفول وكان أحدهم يصيح بالآخر :

– إمسك دي، أنا خدت لغاية دلوقت خمس شقق، الحاجات دي عايزه دراع ، لو قعدت هنا عمرك ما انت طايل حاجه ، خش عافر زي الباقي .

واستطاع الصاحبان (شوشه وشحاته) تجاوز موكب الفول والعيش ولكنهما لم يسيرا بضع خطوات حتى اصطدما بموكب الشيخة « زبيدة »[2] .

ويبين السباعي بوضوح نشاط الشيوخ وخدام الأضرحة، فالشيخة«زبيدة» هذه كانت على شكل رسم لرأس امرأة على منضدة، وقف رجل أشعث الشعر بجواره ، وقد كتب فوق الرسم لافتة « الشيخة زبيدة .. المعجزة البشرية » واندفع الرجل يصيح بأعلى صوته :

– قرّب هنا .. شوف الست العجيبة .. الشيخة زبيدة بقرش أبيض . الراس اللي بتتكلم من غير جسم . يا بلاش .

وبجواره وقف رجل آخر يقرع الطبلة وثالث ينفخ في مزمار .

ومرّ الرجلان بالشيخة زبيدة،ثم اتجها يميناً وتجاوزا رحبة متسعة أقيمت عليها«المراجيح» بكافة أنواعها... مرجيحة الوزة ، والمروحة، والمركب ، وقد أخذت تزن وتطن كأنها عش الزنابير .

وبعد مسيرة بضع دقائق وصلا الى حانوت «الشيخ عبيد العطار» وكان الحانوت يجاور الضريح أي في قلب معمعة المولد .

---

(١) يوسف السباعي ، السقامات ، مؤسسة الخانجي بمصر ، ص ٢٢٨–٢٢٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٩–٢٣٠ .

كان «الشيخ عبيد» قد رص الأرائك حول مدخل الحانوت وعلق الأعلام والزينات ، وفي ركن منعزل فرش بعض الحصر على الأرض استعداداً لحلقة الذكر[1].

وباستثناء السعودية والتي لها مواقف محدودة من الموالد تتمثل باعتبارها بدعة ممنوعة نجد أن الدول العربية الأخرى تعترف بالموالد بصورة أو بأخرى، تشارك فيها المؤسسات الرسمية أحياناً أو تتجاهلها في أحيان أخرى .

ويتأثر موقف رجال الدين في هذه المسألة بموقف الحكومة فنلاحظ أحياناً استنكار رجال الدين لما يجري في الموالد من « بدع » و « ضلالات » و « انتهاكات للشرع» . وسكوتهم في مرات أخرى رغم أن السلوك الجماعي والاجتماعي لا يتغير عادة من عام الى عام وغالباً ما تكون الاحتفالات هي ذاتها بكل ما فيها دينياً وثقافياً واجتماعياً .

ففي ١٩٣٦/١/٣١ وجه وزير الأوقاف المصري خطاباً الى شيخ الجامع الأزهر يدعوه الى محاربة البدع وتخليص الدين مما لحق به من ضلالات واختلاطها على العامة بحيث لم يعد بالإمكان معرفة الحدود بين ما هو دين وما هو ليس من الدين . فتجاوب شيخ الأزهر إذاك مع رأي وزير الأوقاف وأجاب بأن

الموالد التي يقيمها أرباب الطرق لبعض الأولياء في مساجد المسلمين لم تكن على عهد رسول الله بل هي من بدع الفاطميين الذين شوهوا جمال الدين وصورته أمام الناس بصورة لا تتفق وما ينبغي له من عظمة وجلال ، وهي انتهاك لحرمة المشاهد كالذي نجده عند إقامة الموالد من تقديرها بالأطعمة والأشربة ودخول الأطفال فيها حفاة أو بنعال ملوثة ، وقد يختلط في تلك الموالد الرجال والنساء فتعظم الفتنة .

وأشد من هذا أن يتحول المسجد الى ملهى يتبارى فيه المغنّون

---

(١) يوسف السباعي ، السقامات ، مؤسسة الخانجي بمصر ، ص ٢٣٠-٢٣١ .

ومطربون. فإذا كانت المغنية امرأة كما شوهد في مساجد القاهرة كان الفساد أكبر والفتنة أعظم . لأن المسجد في وقت المولد يدخله جميع الناس، فضلاً عن حلقات الذكر التي تقوم على آلات الطرب والأناشيد الغرامية التي تنفخ في الشبان روح الفسق . كما تقوم على تحريف أسماء الله وصفاته والتمايل في الذكر الى حد الرقص والخلاعة . والواجب تطهير المساجد من هذه البدع والمنكرات حتى تكون خالصة لما أعدها الله له من عبادته على الوجه الذي يحبه ويرضاه[1] .

* * *

ويعطينا يوسف السباعي صورة حية مفصلة للمراحل المتلفة التي يمر - أو يقوم بها الناس المتناثرين على « الأرائك والحصر » الى حين البدء بالذكر . فمن وضوء الى صلاة فريضة المغرب ثم الاستماع الى فقيه وهو يتلو القرآن ثم صلاة العشاء، بعدها يتناول الحاضرون الطعام من « وعاء كبير من الثريد تعلوه قطع كبيرة من اللحم المسلوق، قد وضع على الأرض وسط الحلقة »[2] . وبعد الانتهاء من الأكل ترفع القصعة ويبدأ الاستعداد للذكر :

واصطف القوم جلوساً في حلقة دائرة، وبدأ شيخ منهم في الإنشاد والجمع يردون عليه، .... حتى بدأ الكل يرددون بطريقة ملحنة ... « يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف » كأنهم كورس يردد أغنية، .... وفجأة نهض الشيخ، فنهض القوم معه، ثم بدأ يردد في صوت خفيض أخذ يرتفع شيئاً فشيئاً « الله حي .. الله حي » وكان الترديد مصحوباً بترنح للأمام وللخلف .. وأحياناً لليمين ولليسار ......

وهكذا ظل شحاته وشوشه يترنحان ويضجان مناديان «الله حي» .. ولم يحاول «شحاته» أن يفكر في المسألة كثيراً ولا أن يتناول صياحه

---

(١) أنور الجندي، الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ص ٦٠٥ - ٦٠٦ .

(٢) يوسف السباعي، السقامات، ص ٢٣٦ .

وترنحه بالبحث والتمحيص .. ولكن عندما طال الأمر – وكلّت حنجرته ، وخذلته ساقاه ، بدأ يفكر في قوله « الله حي » ، وأخذ يسائل نفسه ماذا يريد هو وصحبه من الله .. ولمَ يصحبون اسمه بوصفه حي .. وهو أبسط ما يمكن أن يوصف به مخلوق .. فهم يشركونه في الوصف مع أحقر المخلوقات الحية ، التي تملأ رحاب الأرض .. وماذا يفيد إصرارهم على وصف الله – الذي لا يمكن أن يكون غير حي – بأنه حي .. واستمرارهم على الصياح بمثل هذا الصراخ ؟..

. . . .

وأخيراً ... جداً ... بدأ الترنح يخف ، والصياح يهبط .. حتى صمت القوم تماماً وهبطوا الى الأرض [١] .

وهكذا نلاحظ أن الجاذبية في تلك الطقوس في أنهـا تذكي العواطف الدينية ، نتيجة التكرار لاسم الله وما يرافق ذلك من عبارات وحركات . ويتولد عن التمايل والدوران نوع من « الدوخان » ينتج عنها حالة من تخدير للحواس ونسيان للذات – غيبوبة – يستمتع بها المشتركون في الحلقة .

ومع أنـه من الصعب تحديد مدى انتشار حلقات الذكر بشكل دقيق إلا أن شيوعها في البلاد العربية باستثناء المناطق الصحراوية بما في ذلك شبه الجزيرة العربية أمر لا يصعب التحقق منه وخاصة في الأحيـاء القديمة من العواصم العربية حيث تنتشر الزوايا والرباطات .

ويلاحظ م. بيرجر الذي أقام في مصر لفترة غير قصيرة لتجميع المعلومات الخاصة بأبحاثه عن الإسلام في مصر يلاحظ أنه في

الآونة الأخيرة أبدى العديد من المتعلمين اهتمامات خاصة بنواح دينية متعددة . فهناك أساتذة الجامعات والقضاة وكبار الموظفين وضباط في الجيش ، أخذوا يتلاقون بشكل تلقائي وبدون إعلان أو

---

(١) يوسف السباعي ، المقامات ، ص ٢٣٦ – ٢٣٩ .

ضجيج في المساجد والبيوت الخاصة لقراءة القرآن ومناقشة المسائل الصوفية ، وحتى للقيام والمشاركة بحلقات الذكر (الصوفية) ويبدو أن هذه المجموعات قد ازدادت بشكل ملحوظ خلال العقد الماضي[١].

ويتحدث بيرجر عن لقائه بالعديد من المثقفين المصريين الذين مارسوا أو عادوا لممارسة الصوفية رغم أن بعضهم أمضى سنوات في الغرب سواء كطلاب أو كموظفين رسميين للحكومة المصرية [٢] .

وقد فضح يوسف السباعي وحسين هيكل في رواية زينب ما في هذه الحلقات من جهل واستغفال للإنسان المـــادي . ففي مجموعته القصصية **يا امة ضحكت** يقدم لنا السباعي صورته الساخرة :

وكنا قـد وصلنا في تلك اللحظة الى جامع الماوردي ، أو على الأصح ، زاوية الماوردي ، فخلع الرجل نعليه ، وحذوت حذوه .

ثم دلفنا الى داخل الجامع ، وكان المكان حول الجامع قد غصّ بعربات الباعة المتجولين ، وتناثرت المراجيح هنـا وهناك ، ودقت الطبول والزمور وعلقت الزينات .

وانحشرت وصاحبي بين صفوف المصلين الذين ضاقت بهم الزاوية ، وأخذنا نركع ونسجد ونسبّح ونتمتم .

وانتهينا من الصلاة ، ومضت فترة غير وجيزة كان الجميع يستعد خلالها للذكر ، وأخيراً وقفنا واصطففنا في حلقة ، ورأيت واحداً من الجمع تبدو عليه مظاهر الرياسة قد بدأ يغمض عينيه ، ويجمد وجهه ، ويهز جسده ذات اليمين وذات اليسار ، ثم يصيح منشداً بصوت أخذ يعلو رويداً رويداً حتى صار صراخاً .

واستطعت أن أتبين من أقواله المدغمة أنـه ينشد بعض أناشيد الذكر ، وصمت الرجل ، ثم رأيت القوم قـــد أغمضوا عيونهم ،

---

(١) M. Berger, Islam in Egypt Today, Cambridge, 1970, p. 74 .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٧ .

وبدأوا يترنحون ذات اليمين وذات اليسار، منشدين في صوت مبحوح:

- الله حي .. الله حي ..

وأغمضت أنا الآخر عيني وأخذت أقلدهم، وكنت أفتح عيني من آن لآخر لأرمقهم وقد اشتدت بهم الحماسة وتهدجت أصواتهم ونظرت الى صاحبي فوجدته لا يقل عنهم حماسة، وقد جعّد وجهه .. وأغمض عينيه، وانهمك انهماكاً تاماً في الذكر، وأحسست بالاحترام الذي تركه حديث الرجل وفلسفته يتطاير ويتبدد، وأنا أراه على تلك الحال من الترنح والصياح[1].

ويلعب شيوخ الطرق الصوفية دوراً هاماً في الموالد حيث يستقطبون الفلاحين والشرائح الدنيا خاصة من سكان المدن إليهم، عن طريق حلقاتهم والتأثير النفسي الذي يوقعه مريدوهم بنفوس المحتفلين وما يكون لذلك من صدى يبعث على الهيبة في نفوس المواطنين البسطاء. ويستعرض شيوخ الطرق كثيراً من فنونهم وطقوسهم في هذه المناسبات.

ومع أنه ليست لدينا أدلة تاريخية فيما اذا كانت أهداف سياسية من نوع ما تستتر وراء مثل هذه الحلقات إلا أن الاحتمال قائم من حيث أن الإحتفال بالإضافة الى مظهره الديني مجال لكل نشاط ممكن كما بينا أعلاه.

ولا يستغرب أن يستمر البسطاء من الجماهير في اعتقاداتهم بالأولياء والأضرحة والكرامات اذا ما علمنا بأن أصحاب الطرق ينتشرون في كثير من البلاد العربية وأن لهم المريدون والتلاميذ. وهم يبهرون الفلاح بزهدهم من ناحية ولو بالظاهر وبما يدّعونه من كرامات من ناحية أخرى ويتميز العديد منهم بشخصيات مؤثرة. والواقع أن المشاعر الدينية لدى الجماهير متأثرة الى حد كبير بالممارسات والطقوس الشعبية لأهل التصوف[2].

---

(١) يوسف السباعي، يا أمة ضحكت، مؤسسة الخانجي بمصر، ١٩٤٨، ص ٢٢-٢٤.

(٢) يؤكد ما ذهبنا اليه ملاحظة محمد جبريل بأن التطور الذي أصاب القرية أدى فقط لأن يكون: «اعتقاد الريفيين في الأولياء، ومشايخ الطرق أقرب الى الاعتدال، بعد أن كانت نظرة الناس اليهم ترقى الى مستوى العبادة». محمد جبريل، مصر في قصص كتابها المعاصرين، ص ٣٤٦-٣٤٧.

وواضح أن شيوخ الطرق يمارسون تأثيراً فعالاً على الفلاحين أو الشرائح الدنيا في المدينة ، بحيث يتحكمون الى حد ما بالقرارات التي يجد الفلاح نفسه عاجزاً عن اتخاذها بنفسه . وكثيراً ما تكون هـذه القرارات التي يصدرها الشيوخ تتعلق بمستقبل الفلاح الذي يتقبلهـا اعتقاداً منه بقدرة شيخ الطريقة على رؤية المستقبل وخاصة حين يقدم الشيخ لرأيه بعبارة تدل على أن الله يريد للفلاح ذلك .

ولقد تعرّض كل من محمد حسين هيكل في روايته زينب ، وطه حسين في شجرة البؤس ، بشيء من التفصيل ، لتأثير شيوخ الطرق على أهالي القرى في أوائل هذا القرن . فنجد مثلاً أن خالداً في شجرة البؤس يتزوج من نفيسة البنت « الدميمة جداً » ، لا لشيء إلا لأن شيخ الطريقة أوعز الى والد خالد بتزويجه من تلك الفتاة ، رغم معارضة الأم – أم خـالد – للفكرة معارضة شديدة وتحذيرها لزوجها بأن الفتاة ستجلب الخراب والشقاء للبيت وستكون شجرة البؤس التي يغرسها الأب في بيته . ولكن أبا خالد رغم حبه لزوجته ولولده بطبيعه الحـــال لم يخالف شيخ الطريقة . وزوّج خالداً من نفيسة . وينطبق مثل هذا الأمر على عدد كبير من أهل البلدة التي كان يقيم فيها ذلك الشيخ . ويعيش الشيخ ومريدوه على ما يصلهم من عطاءات ومِنَح من الناس على اختلاف إمكاناتهم المالية . وتكون زيارة الشيخ لبيت من بيوت المدينة أو لواحد من أبنائها شرفاً كبيراً يمنحه للبيت أو المضيف[1] .

أنجز الشيخ وعده ، فزار القاهرة وأقام فيها أسبوعاً ، وأكرم عبد الرحمن فنزل عليــه ضيفاً ، وفرّق أصحابه في المدينة تخفيفاً على مضيفه ، فقد كانوا أكثر من أن تسعهم دار واحدة ، ولكنه استبقى معه خمسة أو ستة من أصفيائه الذين كان يحرص دائماً على أن يلزموه[2] .

وتقام حلقة الذكر في دار عبد الرحمن ويعني ذلك إقامة :

---

(١) طه حسين، شجرة البؤس ، ص ١٤ ، ١٩٠، ٢٠-٢١ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٧ .

الولائم في دار عبد الرحمن مساء كل يوم يشهدهـــا العشرات من الرجال، والعشرات الكثيرة ، منهم من هبط الى القاهرة مع الشيخ ، ومنهم من كان يقبل لزيارة الشيخ من القــاهرة أو من المدن والقرى المجاورة لها . وقد نهض عبد الرحمن بهذا الحق كأحسن ما ينهض به الرجل الكريم ؛ فكان اذا أصبح غدا خدمه الذين استأجرهم لهـذا الغرض على الشيخ وأصحابه بالطعام ، ثم يخرج مـع الشيخ وأصفيائه فيزورون الموتى في قبورهم والأحيـاء في دورهم ، ويصلون الظهر في مسجـــد من مساجد أهل البيت ، ثم يعودون الى دار عبد الرحمن ينتظرهم الغداء ... فأمـا العشاء وصلاة الليل وحلقات الذكر فكان هذا كله قد أكرم به عبد الرحمن. والشيء الذي لا يشك فيه هو أن أتباع الشيخ – وما كان أكثرهم – لم يتحملوا نفقة مـــا أقاموا في القاهرة ، بل لم يتحملوا نفقة منذ تركوا المدينة حتى عادوا اليهـا . **فما كان الشيخ ليقبل أن يرزأ أحد من أصحابه في ماله قليلاً أو كثيراً وهو يرافقه**[1].

ورغم نجاح طه حسين في تصوير دور شيخ الطريقة في التأثير على حيـاة وقرارات المواطنين البسطاء ، إلا أنه لم ينجح تمامـاً في تبيان موقفه هو من هذا الدور الذي يقومون بـه . ذلك أن عدداً من الصفات التي يضفيها على شيخ الطريقة مثل « وجهاً مشرقاً كأنه القمر »[2] ، أو « ابتسامة ما رأيت قط أعذب منهـــا ، لقد كانت شفتاه كأنما تنفرجان عن نور »[3] ، لا يبين القـارىء العادي مدى خطورة تأثير هؤلاء الشيوخ ومريديهم على الفلاح من حيث اتكاله التام عليهم ، وبالتالي عدم محاولته تشغيل عقله لمواجهة المصاعب أو المشاكل ، وانتظار الجواب جاهزاً من شيخ الطريقة . هذا الجواب الذي غالباً ما يعتمد على مصلحة الشيخ الشخصية ونظرته هو للأمور ، والتي تتحكم

---

(١) طه حسين، شجرة البؤس ، ص ٦٧ – ٦٨ (التشديد من عندنا وليس في الأصل) .
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٩ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

فيها محاولته الدائبة للإبقاء على الفلاحين في حـــالة خضوع له وللسلطة التي يهادنها هؤلاء الشيوخ[1].

أما محمد حسين هيكل فقد وضّح موقفه كل الوضوح حين علّق على الشيخ مسعود « أحد أشراف المديرية ومن مشايخ الطرق المعدودين فيها ». فهو يبين كيف لو أن لهذا الشيخ « نفساً بين جنبيه ، أو ضميراً يحس ، لكاله الخجل أن يرى نفسه وهو الداعي الى الله ونعيم الآخرة والى الزهد في هذه الدنيـا الفـانية جالساً في مقعد وثير وعلى طعام شهي » في حين يجلس العمال « على حصير ناشف يأكلون الرديء مما يقدم له ». وليزداد خجلاً أن يعلم أنه عاطل لا عمل له إلا هــذا الطواف في البلاد لا لغرض إلا أن يأكل ويشرب وينطق بكلمات لا قيمة لها ... [2]

ثم يذكر أن هذا الشيخ إنما اتخذ هذه « طريقة احتيال يعيش من ورائها »

وهل الشيخ مسعود إلا ذلك الرجل الذي صرف بين جدران الأزهر عشر سنين لم يعرف فيها شيئاً . فلما يئس من النجاح ووجد أباه قد قصّر عن أن يمده بمعونة ترك العلم لمن يفقه العلـم وخرج هائماً على وجهه فلبس ما يشبه المسوح وأرخى شعره واستوحش ، ولكن هذه الحرفة لم تجده شيئاً فنظف نفسه بعض الشيء ولبس فوق رأسه عقالاً وراح بعــد ذلك مدعياً العمومة يعطي عهوداً للمساكين الذين يعتقدون أن « من لا عم له عمه الشيطان » [3] .

ومن الرؤا الحديثة والواعية لسيطرة شيوخ الطرق على مجتمع القرية نشير الى رواية أيام الانسان السبعة لعبد الحكيم قاسم . فهـــو يركّز على رصد حياة القرية الرتيبة السطحية من خلال نظرته ووعيه لدور « الحـاج كريم » والد « عبد العزيز » . فهو يرى والده مع مريديه في جلستهم حيث يجدون العزاء عن هموم الدنيا

---

(١) طه حسين ، شجرة البؤس ، ص ٧٤ — ٧٧ .
(٢) محمد حسين هيكل ، زينب ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

وهموم اليوم حين تطرح في جلسة المساء تقودهم في درب واحد نحو الزمن القديم والصور الضبابية ، عن الأيام الطيبات الثرية بالخير ، وعن الرجال الذين قالوا أحكم الكلمات ، وأكلوا أحسن الطعام ، وملكوا قوة إلهية تمنح البرء للمرضى ، تملأ الضروع باللبن ، والمخازن بالحبوب ... عالم ضبابي مسحور ...»[1]

وفي نظر الطفل عبد العزيز فإن والده هو محور التوازن في القرية يمثل الكرم والقوة والرأفة وكل الصفات المبهرة . فهو حين يصل القرية يمسح رؤوس المرضى من الأطفال ، ويتفل في وجوههم ، وكاتب التعاويذ عاكف على كتابة الرقى والأحجبة للنساء العواقر . القرية هذه تعيش ضمن قيم غيبية أسطورية مرتبطة بالماضي ، تكاد تكون سكونية ومن سكونيتها ينبع توازنها .

وحين يعي عبد العزيز ، ويأخذ عقله بالتفتح على حقائق الحياة المادية من خلال تجربته الحياتية والعلمية من خلال تعليمه ، يكتشف حقيقة قريته وحقيقة والده : اكتشف أن الشيخ الكبير دجال وكاذب ، وأن أتباعه يدخنون الحشيش في حضرته ، وهو لا يعترض وأن المولد ليس له قيمة إلا أنه يتيح لأبيه فرصة الالتقاء بمباهج المدينة . فعبد العزيز :

لم يبق شيء في عالمه ثابت ، معاول المعرفة الرهيبة تدمر تصوراته واحداً إثر واحد ... خلقت في داخله جسارة ومرارة .. أصبح يدمن وخزها الأليم ..»[2]

ونلاحظ فيما رواه طه حسين أن عدداً من ذوي المكانات الاجتماعية المرموقة يتقدمون الى الشيخ وينحنون أمامه ويجلسون في الأماكن التي يعينها لهم ، وينتظرون بصمت حتى يبادرهم هو بالحديث . ولا يستبعد أن يكون بعض ذوي المراكز من هؤلاء يكنون محبة أو احتراماً من نوع ما

---

(١) عبد الحكيم قاسم ، أيام الانسان السبعة ، دار الكاتب العربي ، سنة ١٩٦٩ القاهرة ، ص ١٢-١٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٣ .

الشيخ[1]. إلا أن تقربهم منه ورضى الشيخ عنهم يعزز من مكانتهم الاجتماعيه والاقتصادية في نظر المواطنين البسطاء ويستفيدون من نفوذ الشيخ لتسهيل أمورهم حين يتعاملون مع الفلاحين. وكما بيّنا سابقاً فإن السلطة كثيراً ما تلجأ الى هؤلاء الشيوخ لاكتساب عطفهم واستمالهم كأداة للسيطرة على الجماهير.

وحتى بعد مرور أكثر من نصف قرن على مجريات حوادث رواية شجرة البؤس نجد أن رجال الدين ما زالوا يستخدمون المؤثرات الدينية عند الضرورة لكسب معارك غير دينية على الاطلاق. فعلى سبيل المثال يذكر رياض المالكي في كتابه **ذكريات على درب الكفاح والهزيمة** أنه حين تقدم للانتخابات النيابية في سوريا عام ١٩٥٧، وكان منافسه الدكتور مصطفى السباعي (استاذ جامعي، والمرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين)، أضفى الدكتور السباعي وأنصاره:

على المعركة الانتخابية طابع الجهاد المقدس، ووصفوها بأنها معركة بين الكفر والإيمان، وبين ستالين ومحمد، متخذين من وقوف قوى اليسار الى جانبي (جانب رياض المالكي) وتأييد الشيوعيين لي ذريعة للتشكيك في عقيدتي وصدقي وإيماني[2].

وحين سئل الدكتور السباعي عن توقعاته في تلك المعركة الانتخابية فإنه:

توقع الفوز لمن التزم جانب العقيدة والايمان[3].

وعندما قام رياض المالكي بمقابلة رئيس رابطة العلماء الشيخ أبو الخير الميداني واستوضح منه عن حقيقة البيان الذي أصدرته رابطة العلماء بتأييد الدكتور السباعي وأبدى المالكي تخوفه من إعطاء المعركة الانتخابية السياسية طابع

---

(١) طه حسين، شجرة البؤس، ص ٦٩.

(٢) رياض المالكي، ذكريات على درب الكفاح والهزيمة، دار دمشق، دمشق، سنة ١٩٧٣، ص ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

صراع ديني ، ومن محاولة أنصار منافسه استغلال النزعة الدينية في الأوساط الشعبية ، طمأنه الشيخ الميداني بقوله : « يا بني ، لا تخف ، إن الله معك ، وإنك لناجح بإذن الله » . وكما يقدر المالكي فقد أدى حديث الشيخ الميداني

بحضور بعض أنصاره ومريديه الكثيرين الى تحول نظرتهم نحوي (المالكي) وانعطافهم أثناء سير المعركة الانتخابية نحو تأييدي ودعمي [1] .

---

(١) رياض المالكي ، ذكريات على درب الكفاح والهزيمة ، دار دمشق ، دمشق ، سنة ١٩٧٢ ، ص ٢٠٨ .

٥ – الأدعية والابتهالات

وحين نتحدث عن الأولياء والصالحين وكراماتهم وشفاعاتهم لا بد وأن نتطرق الى موضوع الأدعية والابتهالات والتي هي جزء مكمل للإيمان بالأولياء. ورغم أن الدعاء أصلاً يفترض أن يتوجه به الى الله مباشرة وبدون ضرورة لأن يكون ذلك الدعاء بوساطة أحد وفي مقام الولي، إلا أن موضوع الأدعية قد تطور عبر القرون الماضية ليصبح شيئاً معقداً ومخصصاً يحتوي على كثير من الرموز ويتفنن المؤلفون بتأليفه وزخرفته وإضافة الغريب اليه كأي صناعة قائمة بذاتها. وهذه الأدعية يفترض أنها تقضي الحاجات وتحقق المراد اذا قيلت بالكيفية والكمية التي ينص عليها [1].

وقد ورد في كتاب أم القرى للكواكبي أن هناك

> ناساً يجتمعون لأجل العبادة بذكر الله ، ذكراً مشوباً بإنشاد المدائح والمغالاة لشعراء المتأخرين ... وبإنشاد مقامات شيوخية تغالوا فيها بالاستعانة بشيوخهم والاستمداد منهم بصيَغ لو سمع مشركو قريش لكفروهم ، لأن أبلغ صيغة تلبية كانت لمشركي قريش قولهم : (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك غير شريك واحد ، تملكه وما ملك) ، وهذا أخف شركاً من المقامات الشيوخية التي يهدرون بها إنشاداً بأصوات عالية مجتمعة :

---

(١) مثل « الصلاة على النبي خمسمائة مرة » لقضاء الحاجات مثلاً . راجع أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ص ٢٨ . وكذلك دعاء يقال يوم الجمعة « سبعين مرة » « اللهم أغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عن سواك » راجع كنوز الأسرار ، ص ١٣٩ .

عبد القـــادر يا كيلاني   يا ذا الفضــل والإحســانِ
صرت في خطب شديد   من إحســانك لا تتســاني

وقولهم :

اللهم يا رفــــاعي إني   أنا المحسوب أنا المنسوب
رفـــاعي لا تضيعني   أنا المحسوب أنا المنسوب[1]

ويستطيع الإنسان أن يرى المئات من الكتب والكتيبات التي تحتوي على هذه الأدعية تملأ المكتبات وتعاد طباعتها بين حين وآخر. وحسب المد اليميني السلفي أو انحساره تتأرجح غزارة مثل هذه الكتب في الأسواق .

وتطورت صناعة الأدعية لتشمل مختلف الأغراض ولتصلح لقضاء الحاجات المتنوعة والمتجددة للجماهير فمنها أدعية الشفاء من المرض وأخرى لتفريج الغم ، وثالثة لإزالة الكرب ، ورابعة لتوسيع الرزق ، وخامسة لتوكيد المحبة ، وسادسة للخلافات الزوجية ، الى آخر ما يوجد من الأغراض . بحيث يمكنك أن تجد لكل مشكلة وصفة خاصة بهـا تتضمن بالإضافة الى الدعاء أداء عدد من الركعات أو صوم عدد من الأيام وذلك ضماناً للنتيجة .

كذلك فقد تخصص الأولياء بأدعية خاصة بهم ، تنسب اليهم وتميزهم عن غيرهم، يتلوها أتباعهم ومريدوهم باستمرار. ويعتقد أن تلاوتها عند أضرحتهم يقضي الحاجة ويحقق المراد .

من الناحية التاريخية ، عرف المسلمون الأوائل الأدعية . وكانت في مجملها قصيرة ومختصرة لا تشتمل على تعقيـــد لا بالغرض ولا بالوصف ولا باللفظ ، وتوجّه مباشرة الى الله ، والذي هو مسؤول عن الاستجابة ، « وقـال ربكم ادعوني أستجب لكم » [2] ، أو كما ورد في البخاري ، كتاب الدعوات ، أن النبي كان يدعو عند الكرب فيقول :

---

(١) الكواكبي ، أم القرى ، ص ٩٠ .
(٢) سورة المؤمن (٤٠) ، الآية ٦٠ .

لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم [١] .

إلا أن تطور الحياة العربية خلال العهود الإسلامية المختلفة ، وما صاحب ذلك من تغييرات اجتماعية وثقافية وفكرية ، وتأثر الفكر الإسلامي بالفكر الفارسي والهندي من ناحية الشرق واليهودي والمسيحي في الغرب ، ونشوء حركة التصوف مع بداية القرن الثاني الهجري وما صاحب تلك الحركة على مر العصور من تطور أدب خاص بها ، كل ذلك ضمن الإطار التاريخي المادي للمنطقة بما فيه من فوضى سياسية وقهر وتسلط اجتماعي واقتصادي ، وتقهقر وانحطاط في مستوى الإبداع والخلق عند الجماهير ، كل ذلك طوّر من الأدعية والابتهالات ليجعلها تعبيراً عن الحياة الاجتماعية والنفسية المعقدة ، وتعبيراً عن هروب الانسان من واقعه ، والتجائه الى الاستعانة بالأدعية لعجزه عن المبادرة والصراع بمفهوم تقدمي . والأدعية من ناحية أخرى يمكن أخذها كمرآة تعكس أعماق المجتمع من حيث شعور أفراده بالإنسحاق والضياع ، وبحثهم عن معجزة للخلاص ، وإن كان الحزن الذي أشاعه الأدب الصوفي في الأدعية يعكس حالة من اليأس الاجتماعي ، وخيبة الأمل في الواقع الحياتي .

فمن دعاء لذي النون المصري قوله :

اللهم اجعل العيون منا فوارات بالعبرات ، والصدور منا محشوة بالعبر والحرقات ، واجعل قلوبنا غواصة في موج قرع أبواب السموات تائهة من خوفك في البوادي والفلوات . افتح لأبصارك باباً الى معرفتك ، ولمعرفتنا أفهاماً الى النظر في نور حكمتك .... [٢]

ولمعروف الكرخي :

حسبي الله لديني ، حسبي الله لدنياي ، حسبي الله الكريم لما أهمني ، حسبي الله الحكيم القوي لمن بغى عليّ ، حسبي الله الشديد

---

(١) البخاري ، كتاب الدعوات ، الجزء ٢٢ ، ص ١٤٩ .

(٢) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء ٤ ، ص ١٧٤ .

لمن كادني بسوء ، حسبي الله الرحيم عند الموت ....[1]

والجنيد :

اللهم إني أسألك يا خير السامعين ، وبجودك وبجدك يا أكرم الأكرمين ، وبكرمك وفضلك يا أسمع السامعين ، أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع ، اشتدت اليك فاقته ، وعظمت فيما عندك رغبته ....[2]

وكمثال على التعقيد والتكلف في الأدعية إليك جزءاً من الحزب الصغير للإمام الرفاعي (مولود في القرن السادس الهجري) :

.... اللهم إني أسألك بعظيم قديم كريم مكنون مخزون أسمائك. وبأنواع أجناس رقوم نقوش أنوارك . وبعزيز إعزاز عزتك وبحول طول حول شديد قوتك . وبقدرة مقدار اقتدار قدرتك وبتأييد تحميد تمجيد عظمتك. وبسمو نمو علو رفعتك . وبقيوم ديموم دوام أبديتك. وبرضوان غفران أمان مغفرتك. وبرفيع بديع منيع سلطانك . وبصلات سعات بساط رحمتك . وبلوامع بوارق صواعق عجيج وهيج بهيج نور ذاتك . وببهر جهر قهر ميمون ارتباط وحدانيتك . وبهدير تيار أمواج بحرك المحيط بملكوتك . وباتساع انفساح ميادين برازخ كرسيك . وبهيكليات علويات روحانيات أملاك عرشك .... اللهم ذهلت العقول وانحصرت الأفهام وحارت الأوهام وبعدت الخواطر وقصرت الظنون عن إدراك كنه كيفية ما ظهر من مبادىء عجائب أنواع قدرتك دون البلوغ الى تلألؤ لمعات بروق شروق أسمائك. اللهم محرك الحركات ومبدي النهايات الغايات ومشقق صم الصلاديد والصخور الراسيات المنبع منها ماء معيناً للمخلوقات.... العالم بما اختلج في مرور نطق إشارات خفيات لغات النمل السارحات...[3]

---

(١) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، الجزء ٤ ، ص ١٧٤-١٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٣) صلاح عزام، أقطاب التصوف الثلاثة، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٨، ص٣٧ - ٣٨.

لا شك أن مثل هذه الأدعية لم تكن محفوظة ومتداولة على نطاق واسع لدى الجماهير ، خاصة اذا لاحظنا بأن الأمّية والجهل وانعدام وسائل التعليم لم تكن لتتيح لمثل هذه القطع الأدبية والدينية المعقدة حظاً من الانتشار . بل قد يكون ميل مؤلفي هذه الأدعية الى التعقيد هي رغبة مقنعة لاعطائها (الأدعية) نوعاً من الخصوصية والتميز ، يكون لها أثرها المضاعف في بهر الجماهير واندهاشها وشعورها بالعجز عن اللحاق « بعلم » أولئك الأولياء . كذلك فان اللغة المعقدة (لاحظ كثرة الاشتقاقات من نفس الجذر وتتابع المضاف والمضاف اليه والتصوير البانورامي للقدرة الالهية) المستعملة في مثل هذه الأدعية . وتضمين العديد من الآيات وتكرار أسماء الله يترك كل هذا انطباعاً لدى الجماهير بأن هناك «أسراراً» لاهوتية لا يستطيع الوصول اليها إلا القليل ، وأن الوصول الى هذه الأسرار كفيل بتحقيق الآمال والوصول الى الغايات ، مما يعمق من شعور الجماهير بالعجز من ناحية وباعتقادهم بدور الوساطة الذي يقوم به الأولياء والصالحون من ناحية أخرى .

لسنا بصدد بحث الدعاء بحد ذاته من الناحية الدينية الصرفة وهل هو متفق بتفصيلاته مع فلسفة الدين وممارسات النبي وصحابته أم لا؛ وهل الدعاء بالخير لقضاء الحاجة جائز ومستجاب كالدعاء بالشر على الخصم لقضاء الحاجة أيضاً ، الى آخر تلك الاشكالات التي لم يصل علماء المسلمين الى اتفاق حاسم بشأنها . إلا أن ما يهمنا في هذا البحث ، هو دراسة الأثر السيكولوجي الذي يتركه الدعاء لدى المستدعي خاصة حين يلتقي العجز مع الجهل لديه .

إن الأدعية تشيع نفسياً نوعاً من الاطمئنان والهدوء وتوحي بأن جهة ما ستتولى أمر حل تلك المشكلة ، مما يشيع روحاً من التواكل استناداً الى حتمية إستجابة الدعاء . كذلك فان الأدعية وخاصة المطولة منها تمتص جزءاً كبيراً من التوتر الذهني والنفسي ومن القلق والحرص على شكل كبيرة وصغيرة . هذا التوتر الذهني والقلق والحرص الذي يشكل العوامل القوية في تنشيط الذهن وتشغيله ويدفع الانسان في شؤونه والمجتمع عموماً الى مزيد من العمل

والاتقان وخلق وإبداع الحلول باعتبار ذلك الضمانة الوحيدة للنجاح .

والأدعية بتأثيرها الذهني المهدىء ، ومفعولهـا النفسي المطمئن (وليس بماهيتها الدينية البحتة) تشيع نصيباً كبيراً من التراخي خاصـة في المجتمع التواكلي الذي اعتاد على انتظار المعجزات كوسيلة لحل مشاكله . لأن الذهن في هذه الحالة يعلق أمر النجاح على استجابة الدعاء ، وهو أمر خارج عنـه متعلق بالغير .

ولقد ترك هذا النهج على مر العصور أثراً عميقاً في نفسية الانسان العربي في حياته الخاصة ، وفي نفسية المجتمع وبالتالي سلوكياته بشكل عام .

إن المرأة بصفتها تاريخياً العضو الأضعف في الأسرة وبالتـالي في المجتمع نتيجة لانعدام أدوات الصراع لديها ، وبحكم الهيمنة الضخمة للرجل وللمجتمع بعلاقاته الانتاجية وتقاليده ، تجد في الأدعية واحـداً من الوسائل القليلة المتاحة لها في صراعها من أجل البقاء . فهي اذا غضبت أو أصابها ظلم حتى من أقرب الناس اليهـا ، تنهال عليه إما جهاراً وإما خفية بالدعوات طالبة الى الله أن ينتقم منـه ويعاقبه . ولا بأس أن يكسر رجله أو حتى يميته ، وهي تستعمل مثل هذه الأسلحة المضادة حتى مع طفلها، ولا يكاد طفل ينجو من عبارات مثل : الله ياخدك ! الله يقصف عمرك ! الله يموتك! يقطم رقبتك! وقاموس المرأة الاجتماعي بهـذا الصدد مليء بالدعوات القصيرة والمؤلمة والتي لو تحققت لترتب عليهـا أبشع النتائج . فمن جملة الأدعية على الضرة مثـلاً ما ذكرناه أعلاه :

النبي تجيب أجلها يا سيدي يا شعراني ... إلهي تكسحها ، أو تكسر لها دراع ...[1]

أو تلك التي رفعت وجههـا نحو السماء ... وصوتها ضارع وهي تدعو بحرقة وتقول :

– يا رب . إلهي أنت جاهي تحرق قلبها البعيدة على عينها وعافيتها ..

---

(١) جاذبية صدقي ، على باب الله ، ص ٢٥ .

وتحرق قلبها على مالها .. وتحرق قلبها على جوزها .. وتحرق قلبها على ولادها واحد واحد .. وتخرب بيتها ..»[1]

أما الرجل فله حظه أيضاً من الدعاء حين يجد نفسه غير قادر على مواجهة رجل آخر، خاصة لدى الطبقات الدنيا حيث تكثر على الألسنة عبارات مثل: إلهي يخرب بيته؛ إلهي تنزل فيه مصيبة ينعمي؛ الله لا يقيمه؛ الله يفضحه؛ الله يلعنه؛ الله لا يهنّيه؛ ويقابلها أدعية بالخير عند طلب المساعدة أو المعونة. وتعكس هذه الأدعية شعوراً بالعجز والضعة عند المستدعي مثل: الله يخليك؛ الله يسترك؛ الله يعمر بيتك؛ الله ما يفرجيك سوء؛ الله يجازي اللي كان السبب.

وعلى المستوى الاجتماعي، فقد أصبح الدعاء جزءاً من العقلية الاجتماعية، يستعمله المجتمع لمواجهة الكوارث أو الأحداث، صغيرها وكبيرها. فحين يتأخر نزول المطر يخرج الناس للدعاء قرب ضريح ولي مختص بهذه المسألة وينطلقون أدعية خاصة للاستسقاء، وحين يواجهون باحتلال أجنبي يخرجون أيضاً للدعاء بأن ينتقم الله من ذلك المحتل. كما كان يدعو المصريون:

يا رب يا متجلي تكسر العثملي

يا رب يا عزيز، داهيه تاخد الانجليز

أو: الله يكسر اسرائيل، الله يكسر الامريكان، الله ينصر المسلمين، الى غير ذلك.

والواقع أن هذا الإسراف في الدعاء في طلب الحاجات قد ساعد على انتشاره جماهيرياً خطباء المساجد في صلاة الجمعة منذ أكثر من عشرة قرون. فهم كانوا يفرطون في الدعاء الى الله أن ينصر الخليفة أو السلطان، وينفقون الجمل الطويلة في وصف ذلك النصر الذي يريدونه لسلطانهم والذي أصبح ألعوبة بيد قواده من الترك والمماليك، ثم يميلون على أعداء المسلمين فيفرطون أيضاً في الدعاء الى الله أن ينزل بهم (أي الأعداء) كل النوازل الممكنة مفصلين

---

(١) جاذبية صدقي، على باب الله، ص ٩.

ذلك تفصيلاً دقيقاً . وبعد كل جملة يضج الحاضرون بالقول : آمين . الأمر الذي يجعل آلاف المصلّين في السابق وحتى الآن يخرجون من المساجد يوم الجمعة وهم متفائلون مستبشرون مطمئنون بأن الله سوف ينصرهم على أعدائهم، وسوف يزلزل أقدامهم وييتم أطفالهم، ويرمّل نساءهم، ويجعل الدائرة عليهم، ويمزقهم شر ممزق ، ويجعل ديارهم خراباً ، وأرضهم يباباً ، ويحبس عنهم المطر ، ويسقط عن شجرهم الثمر، ويضرب عليهم الذل والمسكنة ، ويهلكهم كما أهلك عاداً وثمود ؛ ويجعل أموالهم وأولادهم ونساءهم غنيمة سائغة حلالاً زلالاً للمسلمين .

وهكذا فان الظروف التاريخية ، وطبيعة الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للمجتمع العربي بما فيه من تخلف وكبت، شكل النفسية الاستجدائية عند المواطن العربي كنتاج لتلك الظروف . هــــذه الاستجدائية التي نراها متمثلة في العلاقات الفردية والاجتماعية ابتداء من الطفل الذي يستجدي والده بقوله : « الله يخليك يا بابا اعطني قرشاً » ، وانتهاء بالخريج الجامعي الذي يقدم طلباً للعمل في دائرة حكومية .

ومما يلفت النظر أن الاهتمام بالأدعية وكتبها لا يقتصر على بسطاء الناس أو شيوخ الطرق ، بل يلقى أحياناً اهتمامــــاً وتشجيعاً من شخصيات تتولى مناصب قيادية هامة. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، كتاب: **كنوز الأسرار في الصلاة والسلام على النبي المختار** والذي عني بنشره الدكتور حسن عباس زكي ، وزير الاقتصاد والتجــــارة الخارجية السابق في مصر ، وجمعه الشيخ عبد الفتاح القاضي، شيخ الطريقة الشاذلية في القليوبية . ومن الجدير بالملاحظة في هذا الكتاب أن اسم حسن عباس زكي يسبق ويتصدر الغلاف الخارجي للكتاب، ربما بغرض الدعاية والترويج له، فقد جمع «بين الاقتصاد والتصوف»[1]. ونقرأ في الكتاب عبارات تعمق روح العجز والهروب من المسؤولية ،

---

(١) ترد هـــذه العبارة في الإهداء في كتاب جمهرة الأولياء وأعلام التصوف ، الحسيني ، الجزء ١ .

وتشيع فكرة ضعف الإنسان المزمن بشكل يميت كل اندفاع حقيقي للعمل . فتقرأ مثل :

يا رب إن ذنوبي ليس تنحصر
وهمتي عن فعال الخير تقتصر
يا رب شيب وعيب حل بي فجأ
في غفلة لم أكن للموت افتكر
يا رب إن ذنوبي سودت صحفي
فما تكن حيلتي فيها اذا نشروا[1]

وتقرأ تحت عنوان دعاء العرش :

.... بحق اسمك المكتوب على جناح جبريل عليك يا رب ، وبحق اسمك المكتوب على ميكائيل عليك يا رب ، وبحق اسمك المكتوب على جبهة اسرافيل عليك يا رب ، وبحق اسمك المكتوب على كف عزرائيل ، وبحق اسمك الذي سميت به منكراً ونكير عليك يا رب[2] .

وتحت عنوان حزب الشكوى للشاذلي تقرأ :

.... إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على المخلوقين ، أنت رب المستضعفين ...[3]

إن هذا الشعور بالضعف من رجل قوي أمام الذات الإلهية ، يختلف جوهراً وشكلاً وتفسيراً وتأثيراً عن شعور الرجل العادي حين يقرأ مثل هذه الأدعية . فنحن اذا سلمنا بحالة الوجد الصوفي (وإن كان لها في نظرنا تفسير سيكولوجي لا يرجعها الى اتصال بالعالم الميتافيزيقي) وحالة الخوف والخشية التي قد تتركز في ذهن المتصوف في لحظة من لحظات حياته ،

---

(١) د. حسن عباس زكي (عني بنشره) وجمعه الشيخ عبد الفتاح القاضي، كنوز الأسرار في الصلاة والسلام على النبي المختار ، القاهرة ، ص ١٤١ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٨٨ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١١٥ .

بحيث توهمه بالفناء بالذات الإلهية والضياع في عالم الملكوت ، إلا أن غير الصوفي وعلى وجه الدقة، الرجل العادي، لا ولن يستشعر مثل هذه الإيحاءات الصوفية ولا ولن يبقى في ذهنه ونفسيته إلا الشعور بالضعف والهوان وقلة الحيلة بالمفهوم المادي والذي يصطدم به في حياته اليومية . فإذا أضفنا الى ذلك ما تعانيه الجماهير عموماً من حالات العجز والجهل ، فإن استمرار المؤسسات والشخصيات الرسمية وشبه الرسمية بتبني مثل هذه المطبوعات والترويج لها يعني بالضرورة المحافظة على الوضع الذهني القائم للجماهير ، بكل ما في ذلك من خرافة وتواكلية وضياع .

٦ – آراء اسلامية في الأولياء

رغم انتشار الخرافات المتعلقة بالأولياء وكراماتهم ورغم سيطرة تأثيرها على عقلية الجماهير بشكل بارز ورغم أن عدداً كبيراً من الفقهاء ورجال الدين المسلمين بل وبعض مفكريهم البارزين والذين اتسموا بشيء من العقلانية في العديد من المواقف كانوا يؤمنون بخوارق الأولياء وكراماتهم مثل ابن خلدون الذي قال في معرض حديثه عن الفرق بين السحر والمعجزة :

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً في أحوال العالم وليس معدوداً من جنس السحر وإنما هو بالإمداد الإلهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الإلهي حفظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله ..[1]

إلا أننا لا بد وأن نذكر أن هناك بعض الاتجاهات الإسلامية سواء في الماضي أو الحاضر لا تعترف بالأولياء أو الكرامات وتنكر أن يكون ذلك من الدين أو له علاقة به وتعتبر ذلك نوعاً من البدع أو الضلال .

فلقد كان المعتزلة من أوائل الفرق التي أنكرت « الكرامات » والخوارق باستثناء أبي الحسن البصري وصاحبه محمود الخوارزمي[2] .

أما الإمام أبو الفرج ابن الجوزي فقد أفرد جزءاً كبيراً من كتابه تلبيس ابليس للرد على الصوفية وتعاليمهم. فهو عزا معظم أعمالهم الى إبليس

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٠٢ .

(٢) يوسف بن اسماعيل النبهاني ، جامع كرامات الأولياء ، مكتبة الحلبي بمصر ، سنة ١٩٦٢ ، الجزء ١ ، ص ١٥ .

وأن ما يظنونه إلهام من الله هو من تلبيس الشيطان، فهي الباب العاشر من كتابه تحت عنوان «تلبيس إبليس على الصوفية»، يقول:

وكان تلبيسه عليهم أنه صدّهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات. فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب ونسوا أنه خلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس .... وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع عليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات.... وآخرون ميزوه (التصوف) بالاختصاص بالمراقبة والسماع (الذكر) والوجد والرقص والتصفيق.... وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع، حتى جعلوا لأنفسهم سنناً[1].

ويقول ابن الجوزي عن كتاب القشيري المعروف بالرسالة:

فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والوقت والحال والوجد والوجود والجمع والتفرقة والصحو والسكر والذوق والشرب والمحو والإثبات والتجلي والمحاضرة والمكاشفة واللوائح والطوالع واللوامع والتكوين والتمكين والشريعة والحقيقة الى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه[2].

أما عن كتاب محمد بن طاهر المقدسي، صفوة التصوف، فقد قال ابن الجوزي:

ذكر فيه (يعني المقدسي) أشياء يستحي العاقل من ذكرها[3].

ثم تناول ابن الجوزي تعاليم الصوفية وأفرد لكل منها فصلاً بعنوان: تلبيس إبليس عليهم في كذا .. كذا .. فنجد تلبيسه عليهم بصدهم عن العلم،

---

(١) ابن الجوزي، تلبيس ابليس، ص ١٨٣–١٨٤.
(٢) نفس المصدر، ص ١٨٥، (التشديد من عندنا وليس في الأصل).
(٣) نفس المصدر، ص ١٨٥.

تلبيسه عليهم في الطهارة والصلاة ، تلبيسه عليهم في المساكن وبناء الأربطة ، تلبيسه عليهم في تقشفهم ، تلبيسه عليهم في السماع والرقص والوجد ، تلبيسه عليهم في ادعاء التوكل ، تلبيسه عليهم في ترك التداوي ، تلبيسه عليهم في الأسفار والسياحة .... الخ . ثم أورد حديثاً مطولاً يبين فيه أخطاءهم في أفعالهم فقال :

جاء عثمان بن مظعون الى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله غلبني حديث النفس فلم أحب أن أحدث شيئاً حتى أذكر لك ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « وما تحدثك نفسك يا عثمان ؟ » ، قال : تحدثني نفسي بأن أختصي ، فقال : « مهلاً يا عثمان فإن خصي أمتي الصيام » قال : يا رسول الله فإن نفسي تحدثني أن أترهب في الجبال ، قال : « مهلاً يا عثمان، فإن ترهب أمتي الجلوس في المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة » ، قال : يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن أسيح في الأرض ، قال : « مهلاً يا عثمان فإن سياحة أمتي الغزو في سبيل الله والحج والعُمرة » ، قال : يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن أخرج من مالي كله ، قال : « مهلاً يا عثمان فإن صدقتك يوماً بيوم وتكف نفسك وعيالك وترحم المسكين واليتيم وتطعمه أفضل من ذلك » ، قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن أطلّق خولة امرأتي ، قال: « مهلاً يا عثمان فإن هجرة أمتي من هجر ما حرّم الله عليه ، أو هاجرَ إليّ في حياتي ، أو زار قبري بعد موتي ، أو مات وله امرأة أو امرأتان أو ثلاث أو أربع » ، قال : يا رسول الله فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها ، قال : « مهلاً يا عثمان فإن الرجل المسلم اذا غشي أهله فإن لم يكن من وقعته تلك ولد فإن مات قبله كان له فرطاً وشفيعاً يوم القيامة، وإن كان بعده كان له نوراً يوم القيامة » ، قال : يا رسول الله فإن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم ، قال : « مهلاً يا عثمان فإني أحب اللحم وآكله اذا وجدته ولو سألت ربي أن يطعمني إياه كل يوم لأطعمني » ، قال : يا رسول الله فإن نفسي

تحدثني أن لا أمسّ طيباً ، قال : « مهلا يا عثمان فإن جبريل أمرني بالطيب غباً (يوماً بعد يوم) ويوم الجمعة لا متروك له يا عثمان لا ترغب عن سنتي ، فمن رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي »[1].

أما عن الكرامات ، فقد عزاها ابن الجوزي الى إبليس أيضاً في أنه يلبس على المتدينين بما يشبه الكرامات فقال :

... إن إبليس إنما يتمكن من الإنسان على قدر قلة العلم ، فكلما قلّ علم الإنسان كثر تمكن إبليس منه ، وكلما كثر العلم قلّ تمكنه منه . ومن العباد مَن يرى ضوءاً أو نوراً في السماء ، فإن كان في رمضان قال: رأيت ليلة القدر، وإن كان في غيره قال: قد فتحت لي أبواب السماء ! وقد يتفق له الشيء الذي يطلبه فيظن ذلك كرامة ، وربما كان اتفاقاً وربما كان اختباراً وربما كان من خدع إبليس . والعاقل لا يساكن (بمعنى يوافق على) شيئاً من هذا ولو كان كرامة [2].

ثم يقول :

وكم اغتر قوم بما يشبه الكرامات ... ولما علم العقلاء شدة تلبيس إبليس حذروا من أشياء ظاهرها الكرامة وخافوا أن تكون من تلبيسه .. وقد لبس إبليس على قوم من المتأخرين فوضعوا الحكايات في كرامات الأولياء ليشيدوا بزعمهم أمر القوم ، والحق لا يحتاج الى تشييد بباطل ، فكشف الله تعالى أمرهم بعلماء النقل[3] .

وأورد ابن الجوزي قصصاً كان يتداولها الناس في عصره على أنها من كرامات الأولياء ، ففندها ، وبيّن أنها باطلة ، ومن عمل الشيطان مستنداً

(١) ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، ص ٢٤٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٢٧ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ .

الى أحاديث أو روايات بإسناد عن التابعين . ورغم أن الإمـام ابن الجوزي كان معقولاً في العديد من إشاراته الى الصوفية والأولياء والكرامات، إلا أن منهجه ككل يزيد الأمر تعقيداً في عقلية الرجل المسلم من حيث أنـه يضعه بين فكي الكماشة : الاختبار من ناحية ، والخداع من ناحيـــة أخرى . أو بعبارة أخرى بين مكر الله وتلبيس إبليس . ولأن الإمام الجوزي ، كما أشرنا سابقاً في حديثنا عن الشيطان ، لم يدع شيئاً من تصرف الإنسـان إلا وقـــد افترض بأن إبليس قـــد يلبسه عليه فهو لا يقدم لنا طريقة عقلانية لمعرفة الحقيقة . ولسنا نشك بأن ابن الجوزي لم يكن مؤهلاً لتقديم مثل هـــذه الطريقة ، خاصة وأنه يعتمد مبدأ النقل أساساً لآرائه .

وكذلك فإن موقف ابن تيمية – في القرن السابع الهجري – كان له أثر كبير في تقوية اتجـــاه مضاد – وإن كان محدوداً – للبدع . فرغم سجنه وتعذيبه ، هاجم الفقهاء والمتصوفة ، ودعا الى عدم زيارة القبور والأضرحة، بل وإلى هدمها . وألـّف في ذلك رسائل كثيرة . غير أن ابن تيمية لم يتخذ موقفه هذا على أساس عقلاني ، بقدر مـا اتخذه على أساس ديني مستنداً الى بعض ما جاء في الكتاب والسنـّة . وهذا الاستناد بطبيعته ، رغم قوته من الناحية الإسلامية ، لا يكفي لحسم الموقف ، نظراً لأن الفئـات الأخرى ، الفقهاء والمتصوفة ، لديهـا رصيد ضخم أيضاً من الكتاب والسنـّة يدعم من موقفها ويعزز من ممارستها .

هذا الوضع ونعني بـــه ، استناد الآراء الإسلامية المختلفة الى طائفة من الآيات والأحاديث النبوية وتفسيرها لصالح الفكرة المدافع عنها ، أمر عـام في التاريخ الإسلامي كان من شأنه ولا يزال كذلك ، إضعاف ثقـة الإنسان بعقله وقدرته على الحكم والاستنباط، وفي نفس الوقت استعداده لقبول سلسلة من المتناقضات والآراء المتضاربة والأحكام المختلفة لا لشيء إلا لأنها مستندة حسب ما يرويه فرسانها الى الكتاب والسنـّة . وهو، أي الانسـان ، لا يجرؤ على إعلان رفضه لوجهة النظر مهما كانت غير مقنعة ما دام لها سند ما يورده رجال الدين ، وإلا اتهم بالزندقة والكفر والإلحاد .

إن هـذا الوضع التاريخي كان له تأثير بالغ على العقلية العربية من حيث منهجيتها في قبول المعلومات ومعالجتها ثم استنتاج النتائج .

إن المنهجية العلمية تقضي أن المعلومات التي ثبتت صحتها ، تحل محل غيرها لتلغيها ، بحيث لا يعود الانسان الى استعمالها باعتبار أنها غير صالحة للاستعمال وأنها تتناقض مع ما ثبتت صحته . وعليه يكون بناء المعلومات بناء متجدداً ومتقدماً نحو الثبوت والحقيقة . أما تأثير تاريخ المنطقة على منهجية العقل العربي، فقد جعلته لا يستطيع الحكم أو قبول بطلان مجموعة من المعلومات ، ولا يستطيع الاعتماد عليها كلية . وهذا يجعل بناء معلوماته يحتوي على الكثير من المتناقضات ويجعل استنتاجاته غير منطقية من حيث الرقي والعصرية ، ومن حيث العلمية والتقدمية . وفي نفس الوقت تتيح له فرصة دائمة للتراجع والنكوص والانتهازية باعتبار أن لديـه من الأسانيد ما يكفي لتبرير كل ما يقوم به من افعال .

فإذا انتقلنا الى القرن الثامن عشر الميلادي ، نجد أن محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي ، قد تأثر بابن تيمية ، وخاصة في موقف الأخير من القبور والأولياء ، استناداً الى « الإسلام الصحيح » . لقـد رأى محمد بن عبد الوهاب :

... الأوليـاء يحج اليهم ، وتقدم لهم النذور ، ويعتقد أنهم قادرون على النفع والضر . وهذه الأضرحة لا عداد لها ، تقام في جميع أقطاره ، يشد الناس اليها رحالهم ويتمسحون بها ، ويتذللون لها ، ويطلبون منها جلب الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ؛ ففي كل بلدة ولي أو أولياء ، وفي كل بلدة ضريح أو أضرحة ، تشرك مع الله تعـالى في تصريف الأمور ، ودفع الأذى وجلب الخير . كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا الغاشمين يتقرب اليه بذوي الجـاه عنده ، وأهل الزلفى لديه ، ويرجون في إفساد القوانين، وإبطال العدل..... لم يكتف المسلمون بذلك ، بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد ؛ فهؤلاء أهل بلدة « منفوحه » باليمامة يعتقدون في نخلة هناك أن لهـا

قدرة عجيبة ، من قصدها من العوانس تزوجت لعامها . وهذا الغار في « الدرعيه » يحج اليـــه الناس للتبرك . وفي كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هــذا ؛ ففي مصر شجرة الحنفي ؛ ونعل الكلشني ، وبوابة المتولي ، وفي كل قطر حجر وشجر . فكيف يخلص التوحيد مع هذه العقائد؟ إنها تصد الناس عن الله الواحد، وتشرك معه غيره، وتسيء الى النفوس، وتجعلها ذليلة وضيعة مخرفة ، وتجردها من فكرة التوحيد ، وتفقدها التسامي[1] .

رغم أن أحمدأمين كان في الأسطر السابقة يحاول تقمص محمدبن‌عبدالوهاب ليرى ما كان يراه محمد بن عبد الوهاب في عصره إلا أن أحمد أمين قد عبّر أيضاً عما يراه هو نفسه في عصره . وهذه الرؤية بطبيعة الحال وإن كانت أكثر عصرية من رؤية محمد بن عبد الوهاب إلا أنها تبين لنا إن مؤسس الحركة الوهابية لم يكن راضياً عن مظاهر التدين الإسلامي كما أفرزها التاريخ الإسلامي بكل تعقيداته ومواريثه الفكرية الإسلاميـــة وغير الإسلامية . وكان ابن عبدالوهاب ينطلق من فكر متأثر بالحياة البدوية البسيطة بخلوها من مظاهر التدين وفي نفس الوقت مظاهر الانسحاق الاجتماعي والاقتصـادي الحضري والمركزة في المدن ، ولذا دعـــا الى التخلص والقضاء على كل تلك البدع ، رافضاً التوجه الى

... المشايخ والأولياء والأضرحة، ولا بواسطة توسل ولا شفاعة. وزيارة القبور فللعظة والاعتبـار ، لا للتوسل والاستشفاع ، .... فالذبح للقبور والنذور لها والاستغاثة بها ،والسجود عندها ، شرك لا يرضاه الله ... ومثل ذلك تجصيص القبور ، وبنـــاء الأضرحة وتشييد الأبنية عليها ، وكسوتها بالحرير المذهب ، ومـــا الى ذلك ....[2]

---

(١) أحمد أمين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص ١١ - ١٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣ .

لقد تأثر بالحركة الوهابية عدد من علماء المسلمين ، خارج الجزيرة العربية كالسيد أحمد في الهند مثلاً ، والإمام السنوسي، الذي أسس الطريقة السنوسية في المغرب ، والإمام الشوكاني ، صاحب نيل الأوطار في اليمن ، والشيخ محمد عبده في مصر . ومع هذا فإن تأثير هؤلاء كان طفيفاً . ذلك أن دورهم لم يتعد تبيان فساد الإيمان بالأولياء والأضرحة من وجهة النظر الإسلامية الصحيحة كما يرونها . ولم يكن من الممكن أن تثمر نتائج مثل هذه الدعوات الإصلاحية لسهولة محاربتها من جانب رجال دين آخرين بالاستناد أيضاً الى « الإسلام الصحيح ». ولأن – وهذا هو المهم – الايمان بالخرافات هو جزء من ونتيجة للواقع المادي الذي تحياه الجماهير وهو نتاج للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتخلفة عبر العصور . ومن هنا ، فان تغيير البنية الذهنية للانسان ، لا يمكن – على المستوى الجماهيري – أن يتم بدون تغيير البنية الاقتصادية والاجتماعية على مستوى الجماهير مدعوماً ومستنداً الى أفكار علمية ومتطورة قادرة على التخلص نهائياً من الخرافة فكراً وممارسة وقادرة على تفسير الواقع ومعالجته وتطويره .

ومن الملفت للنظر أنه باستثناء السعودية والتي تعتنق المذهب الوهابي واتخذت موقفها من الأولياء والأضرحة على أساس تعاليم هذا المذهب ليس إلا، فإن واحدة من الدول العربية أو الإسلامية لم تضع في منهاجها محاربة الخرافة بين جماهير الشعب والتصدي لمظاهر هذه الخرافة والقضاء على أسبابها . ولا تزال معظم المدن والقرى « عامرة » بالأضرحة والأولياء والوسطاء وممارسي الشعوذة . وما زال لهؤلاء دورهم وتأثيرهم في تعميق الخرافة في عقول الجماهير . وتقف المؤسسات الرسمية للدولة عادة موقفاً سلبياً من الممارسات الخرافية في أغلب الأحيان باستثناء حالات قليلة تنشط فيها بعض الصحف ولفترة محدودة وقصيرة جداً للكتابة عن الخرافات . ثم يسكت كل شيء وفجأة ، مما يوحي أحياناً بأن هذا السكوت المفاجىء كان وراءه سلطة سياسية عليا من وراء الستار . بل إن العديد من المؤسسات الحكومية تساهم بشكل غير مباشر وأحياناً بشكل مباشر في تكريس مكانة الأولياء عن

طريق دعمها للموالد » والإشراف عليها » بحجة تنظيمها دون أن تضع خطة التخلص منهـــا تدريجياً أو لتحويلها من مهرجان للخرافات والشعوذة الى مهرجانات اجتماعية واقتصــادية أكثر تقدمية . بل إن المؤسسات الحكومية تقف في كثير من الأحيان موقف العجز أمام ضريح ولي من الأولياء تماماً كما يقف الإنســان العادي البسيط .

ضريح ولي يقع في وسط شارع ، ويبقى الضريح وعليه الأعلام الخضراء في وسط الشارع وعلى السيارات أن تميل عنه . لماذا ؟ لأن أحداً لا يريد أن يزعج الولي في مقامه . حتى محاولة « نقل رفات » لإزالة الضريح من مكانه – ولهذه العملية يمكن الحصول بسهولة على فتوى من « شيخ الطريقة » أو من مفتي الجمهورية– تعجز المؤسسات عن ممارستها . ويبقى الضريح في الشارع رمزاً للخوف من الأولياء والعجز عن المساس بكراماتهم .

إن جزءاً من المؤسسات الحكومية وأحياناً المؤسسات التجارية الأهلية قد نزلت شريكاً في عملية الترويج للأضرحة والأولياء وغيرها من الخرافات. ونقصد هنا المؤسسات الإعلامية .

لقد اتجــه العقل العربي الى استعمال أحدث وسائل العصر والتقنية والتي يحصل عليها الإنسان العربي عن طريق الشراء من الخارج وليس عن طريق إبداعها وتصنيعها، اتجه الى استعمالها لعرض وترويج الأفكار الخرافية وخاصة في مجالات التلفزة والإذاعة والصحافة .

يشير هادي العلوي الى هذا « النشاط الديني » المتزايد في أجهزة الدعاية والثقافة في الوطن العربي ، فيذكر أن

قد تبوأت السينما والتلفزيون المصريان مركزاً قيادياً في هـــذه المهمة ... فمنذ أوائل الستينات ، والجهات المعنية في مصر تنتج المزيـــد من الأفلام والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية ذات المحتوى الديني ، إضافة الى ما كانت تنتجه في السابق من الأغاني الدينية والأدعية والتواشيح ، وتغذي بهـــا أجهزة الإعلام ودور السينما
١

العربية ...[1]

والمتتبع للبرامج التلفزيونية أو الإذاعية ، يلاحظ كثرة ما يذاع فيها من أحاديث تتضمن الترويج للأولياء وإضفاء صفة القدسية والصلاح عليهم ، وأن الدعاء في أضرحتهم مقبول .

ويؤكد هادي العلوي ذلك الاهتمام المتطرف الذي تظهره الإذاعات العربية بالمناسبات الدينية فيقول :

وفي رمضان من كل عام تتحول هذه المحطات الى تكايا للذكر والعبادة ... وتنفرد بعض الإذاعات العربية والإسلامية بتقليعة غريبة ، إذ اعتادت على إعلان الحداد في شهر محرم بدعوى تجديد ذكرى الحسين بن علي . وفي إذاعات أخرى يزاد على حداد محرم ثلاثة أو خمسة أيام من شهر رمضان هي أيام جرح الإمام علي ووفاته[2] .

ويبين أن البرامج الإذاعية والتلفزيونية تقتصر في تلك الأيام على « النواح واللطم »[3].

وفي الوقت الذي كان فيه الإنسان العربي يسمع قصصاً متناثرة عن الأولياء وكراماتهم ، نقلاً عن بعض الكتب ومشايخ الطرق ، فإن أجهزة الإعلام بممثليها وممثلاتها ومخرجيها ومؤلفيها ، أخذت تستخدم كل المؤثرات الصوتية والضوئية والحيل السينمائية التي ابتدعتها الدول المتقدمة لتنقل الى المواطن العربي ما تشاء أن تنقله عن ذلك الولي . وهكذا أصبح هذا المواطن في وضع يسمح له أن يسمع صوت الولي الذي يريده المخرج أو المؤلف وأن يرى صورته ، حتى ولو كان هذا الولي قد مات منذ مئات السنين ، عن طريق تقديم مسلسلات إذاعية أو متلفزة عن حياة أولئك الأولياء .

---

(١) هادي العلوي ، «أشياء من فصول المسرح الديني في الوطن العربي» ، مجلة مواقف ، العدد ٢١ ، ص ٥٨ ، سنة ١٩٧٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

نذكر هنا مثالاً واحداً لمسلسلة تلفزيونية هي مسلسلة «المرمي أبو العباس» التي أذيعت على ١٧ حلقة في مصر وليبيا والمغرب وغيرها من البلاد العربية. تبدأ الحلقة بالذكر التقليدي على دقات الطبول وتمايل الذاكرين وأعلام الصوفية وشاراتهم، وخلفية لمدينتي مكة والمدينة. وتنتهي الحلقة بنفس المشهد. أما مادتها فتحتوي على كل شيء يمكن أن نقرأه في كتاب من الكتب الصفراء المعروفة أو نسمعه من درويش. والمرمي أبو العباس «يشع وجهه نوراً»، وتجحظ عيناه، وترتجف شفتاه، ويروح في غيبوبة ليصحو منها على دقات الطبول. يأتيه الهاتف ليخبره بما لا يعلمه الناس. يتسلم الخلافة من القطب ليحمل الرسالة.

أما محمـــد البدوي وهو ولي آخر يلقبه أتباعه «بفحل الرجال» يخرج الأسرى من معسكر الصليبيين وذلك عن طريق كرامة من كراماته والمجموعة تردد: الله .. الله .. يا بدوي .. جاب الأسرى .. الله .. الله يا بدوي.

ولكي تكون المسلسلة أكثر إقناعاً وتأثيراً على عقول الجماهير فإن المؤلف لم يدع فرصة إلا ووضع على لسان أحد أبطالها آية من القرآن أو حديثاً نبوياً، أو قولاً مأثوراً لأحد الصحابة أو التابعين، بحيث يبدو الاعتراض على الحوار مستحيلاً.

ليس الغرض هنا الاسترسال في وصف هذه المسلسلة ومثيلاتها، إنما نريد التأكيد على خطورة هذه البرامج والتي ربما تمرّ دون أن يلاحظها عدد من المهتمين بشئون الثقافة والتعليم. ذلك أن أغلب الدراسات تعتمد على الكلمة المكتوبة أكثر من اعتمادها على الكلمة المسموعة، ناهيك عن المشهد الممثل. فلو فرضنا أن مسلسلة «المرمي أبو العباس» قد طبعت ونشرت على شكل كتاب، فإن أقصى عدد لقرائها لن يتعدى بضعة آلاف[1]. وغالباً ما يكون

(١) من المعروف أن أكثر الكتب العربية رواجاً تقع مبيعاتها بحدود البضعة آلاف من أمثال كتابات طه حسين. أمـــا الكتب التي تحتاج الى مجهود ذهني أو ذات طابع تخصصي فإنها أحياناً لا تتعدى المئات. (بعد الاستفسار من عدة دور للنشر ومكتبات كبرى).

قراؤها من ذوي النزعات الصوفية أو الدينية عموماً ، والتي هي قادرة على شراء الكتاب ومهما اقتناؤه . أما أجهزة الإعلام التي تسيطر عليها الدول فقد فرضت هذه السلسلة بكل ما فيها من مناظر وأصوات ودردشة، فرضتها على الملايين من المواطنين بمن فيهم الأطفال والأميين – وهم الغالبية العظمى – ومن لا يميل الى هذه الاتجاهات. ولقد جاء هذا الفرض نتيجة لانعدام وسائل التسلية الأخرى لدى الجماهير وخاصة التسلية البيتية . وبالتالي فإن تأثير هذه البرامج في تغذية الاتجاه الخرافي في العقلية العربية ، يزيد أضعافاً مضاعفة عن الكتب والمقالات المنشورة . ومادتها بالنسبة للطفل والجاهل جاهزة للتصديق وجاهزة لأن تختزن في الذهن لتبنى عليها خرافات جديدة . والرقابة على المطبوعات أو على التمثيليات لا تتدخل أبداً لحذف ما له علاقة بتعميق الجهل والخرافة. والرقابة من ناحية ترى في مثل هذه المواد موضوعاً غير ممتع للرقباء لكي يفحصوا نصوصه ويعلقوا على مشاهده . وفي نفس الوقت يخاف الرقيب (إن لم يكن متدروشاً) أن يتهم بالكفر والزندقة والإلحاد اذا اعترض على تمثيلية معظم حوارها من الآيات والأحاديث . فإذا لاحظنا أن الشعب العربي بطبيعته غير قروء ، وأن اتجاهات القراء منه ، محددة بميولهم الأدبية بشكل أساسي ، نجد أن استخدام وسائل الإعلام الرسمية لترويج هذه البرامج وعرضها ، يعني بالضرورة توجيه عقول المواطنين وتعليق خيالاتهم بأوهام تولدها هذه البرامج التي يشاهدها الملايين .

يعلق هادي العلوي على أن هذه الظاهرة

تتجاوز اليوم مجرد الرغبة في احترام عقائد الجمهور .

بل هي شاهدٌ على

مدى الانحطاط الفكري الذي انحدر اليه هؤلاء من خلال تلك الممارسات اليومية (١) .

وكما ذكرنا سابقاً ، فان مؤلفي هذه « الروائع » قد تنبهوا الى تسلم

---

(١) هادي العلوي ، مجلة مواقف ، العدد ٢١ ، ص ٥٧ ، سنة ١٩٧٢ .

واحترام المواطن العادي للآيات والأحاديث النبوية ، وتنبهوا لما تدره هذه المسلسلات من أرباح، فأخذوا يدسون الآيات والأحاديث المتنوعة الصحيحة والموضوعة بضرورة وغير ضرورة. وذلك للتأثير على المستمع أو المشاهد وفي نفس الوقت لاخفاء إفلاسهم الفكري والفني. يضاف الى ذلك أن توجيه النقد لأعمالهم سوف يحيلونه بمعونة المستفيدين معهم الى توجيه نقـد للدين ذاته، مما يكسبهم حصانة ضد النقد ويسهل عليهم في نفس الوقت تأليف أو « فبركة » مثل هذه البضاعة .

أمـا جريدة الأهرام القاهرية والتي تعتبر الجريدة الأولى في الوطن العربي من حيث وزنها السياسي وتوزيعها ، فقد اعتادت أن تفرد في رمضان بابـاً للكتابة عن أولياء الله الصالحين ، تسرد فيه مثلاً الدكتورة سعاد ماهر تاريخ أولئك « الأبرار » ، مضيفة على كتابتهـا الجو الديني (غير العلمي) الذي يستلزمه مثل هذا العمل .

إن هذا لا ينفي أن عدداً من الكتّاب قد تعرّض لهذه القضية بالانتقاد على اعتبار أنهـا من الخرافات . والنقد وإن كان لا يقوم معظمه على أساس ربط الظاهرة بالواقع الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع كان يندرج تحت واحد من اتجاهين : الأول ، كان يرى في ظاهرة الأولياء والأضرحة خرافة تجب محاربتها لما فيها من بدعة وضلالة وتشويه للدين . نذكر من هؤلاء في العصر الحديث الشيخ محمد عبده في مصر وعبد الرحمن الكواكبي في سوريا ، وكان الكواكبي من أشد من انتقد تدليس رجال الدين وغلاة المتصوفين المتظاهرين بالعفة والدين :

جاءوا الأمة بوراثة أسرار ادعوها ، وعلوم لدنيات ابتدعوها ، وتسنم مقامات اخترعوها ، ووضع أحكام لفقوها ، وترتيب قربات زخرفوها ...(١)

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي ، أم القرى ، طبعة حلب ١٩٥٩ « التي لا تختلف عـن الطبعة الأولى التي أصدرها المؤلف لأول مرة » ، ص ٤٠ .

ثم يستطرد بأن هؤلاء المدلسين نجحوا فيما يقصدون ولا سيما

بدعوى منة منهم الكرامة على الله والتصرف بالمقادير، وباستمالتهم العامة بالزهد الكاذب والورع الباطل والتقشف الشيطاني، وبتزيينهم لهم رسوماً تميل اليها النفوس الضعيفة الخاملة، سموها آداب السلوك، ما أنزل الله بها من سلطان... ظاهرها أدب وباطنها تشريع وشرك؛ ويجذبهم البله الجاهلين... وجلبوا الناس بالترهيب والترغيب، ترغيباً بالاستفادة من الدخول في الرابطات والعصبيات المنعقدة بين أشياعهم، وترهيباً بتهديدهم معاكسيهم أو مسيئي الظن بهم أو بإضرارهم في أنفسهم وأولادهم وأموالهم ...[1]

وأن هؤلاء المدلسين

جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للبطالين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات المرهبة، وبه حولوا كثيراً من الجوامع مجامع للطباليين، الذين ترتج من دوي طبولهم قلوب المتوهمين وتكفهر أعصابهم، فيلتبسهم نوع من الخبل يظنونه حالة من الخشوع؛ وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم ...[2]

أما فيما يتعلق بالقبور والأضرحة فقد شبّه « السواد الأعظم » من أهل القبلة، في غير جزيرة العرب، بحالة « المشركين » من كل الوجوه، فهم قد

استبدلوا الأصنام بالقبور، فبنوا عليها المساجد والمشاهد، وأسرجوا لها، وأرخوا عليها الستور، يطوفون حولها مقبلين مستلمين أركانها، ويهتفون بأسماء سكانها في الشدائد، ويذبحون عندها القرابين... وينذرون لها النذور، ويشدّون للحج اليها الرحال، ويعلقون بسكانها الآمال، يستنزلون الرحمة بذكرهم وعند

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، طبعة حلب ١٩٥٩ « التي لا تختلف عن الطبعة الأولى التي أصدرها المؤلف لأول مرة »، ص ٤٢، ٤٣.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٤.

قبورهم، ويرجونهم بإلحاح وخضوع ومراقبة وخشوع أن يتوسطوا لهم في قضاء الحاجات وقبول الدعوات ...»[1]

كذلك عبّر أحمد أمين عن موقفه تجاه ظاهرة الأولياء والأضرحة في مناسبات عديدة . ففي تعريفه للدراويش يقول :

يطلق هذا الاسم على الصوفية وهم كثيرون في مصر ويحترمون كثيراً... وأشهر طوائف الدراويش هي... الرفاعية.. والسعدية.. والقادرية.. والأحمدية.. والشعراوية.. والبيومية.. والبراهمية.. الخ. ... وقد نشروا في البلاد الخرافات والأوهام . وكلما كان الرجل مجنوناً أو قليل عقل اعتقدت فيه الولاية[2] .

أما عن الأضرحة فيذكر على سبيل المثال حكاية جامع الشيخ صالح . والشيخ صالح كان قاطع طريق . فلما اكتشف أمره احتمى بامرأة مغنية مشهورة فادعت أنه مجنون . وبعد فترة شاع بين الناس أن له كرامات ، وأخباراً بالمغيبات ، فقصده الكثيرون . وصارت لخدمته ثروة كبيرة . واستمرت حالته هكذا الى أن مات . فبنى له الخديو اسماعيل الجامع ، ودفن به[3] .

ويعلق أحمد أمين على هذا الأمر فيقول :

وهو جامع عظيم لم يبن لغيره من الأفاضل ذوي المعارف والعلوم، الذين انتفع الكثيرون بعلومهم ومعارفهم. ولكن هذه عادة قديمة... وطالما نبّه عليها كثير من المؤلفين في كتبهم... وكثير من الأضرحة من هذا القبيل[4] .

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي ، أم القرى ، طبعة حلب ١٩٥٩ « التي لا تختلف عن الطبعة الأولى التي أصدرها المؤلف لأول مرة » ، ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ص ١٩٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠—٢٧١ .

والاتجاه الثاني ينظر الى هذه الظاهرة باعتبارها تنم عن الجهل والتخلف ، وأن أصحابها يمارسون نوعاً من الدجل والشعوذة . غير أن معظم كتاب هذا الاتجاه يعكسون نظرة الطبقة البرجوازية المتنورة التي لا يروقها منظر المتسولين والمتصعلكين والمتكسبين باعتبارهم تشويهاً للمجتمع ، وإفساداً له ، وباعتبارهم يحطون من المستوى الجمالي للمنظور . وهم يتذبذبون في كثير من الأحيان بين العجز عن التحليل واستقصاء العلاقات بين القوى التي تحكم البنية الاجتماعية ، أو الخوف من ولوج هذا الطريق ، إما طلباً للأمن والسلامة تجاه السلطة والمجتمع وإما خوفاً من اكتشاف ما لا يتفق مع المسلّمات الدينية التي تطمئن اليها الطبقة البرجوازية اطمئناناً بعيداً وخفيفاً ، يتذبذبون بين العجز عن التحليل وبين الانسياق وراء الإيمان، دون أن يكون لموقفهم تأثير جذري على تفسير الظاهرات باعتبارها نتاجاً طبيعياً للتراث الفكري والتاريخي ونتاجاً للعلاقات الاقتصادية السائدة .

يعبّر يوسف السباعي عن هذا الاتجاه حين يقدم لنا صورة عن أولياء الله في أحد الأحياء الشعبية في مصر . فيستغرب أن يكون عدد المتدروشين هم من الفقراء فيقول :

هذه حال دنيانا يجب أن نمعن الفكر فيها، وظاهرة عجيبة تحتاج الى بحث وتمحيص وتحتاج الى أن تعالج بجرأة، ضعف التقوى وتخلخل الإيمان ، كلما سَمَى الإنسان في الحياة واكتمل . هل هو نقص في مسببات الإيمان ، أم هو التواء في تفكير الإنسان ؟ أنا نفسي أؤمن بقلبي أكثر مما أؤمن بعقلي، فكلما أمعن بي الفكر، رأيت نفسي أكاد أضلّ ، واذا تركت نفسي لإحساس قلبي ازداد بي الإيمان وازددت إحساساً بالله [1].

إن هذا الموقف المتذبذب ، يمثل تردد الإنسان العربي وخاصة الطبقة البرجوازية في استعمال عقله الى أقصى حد . ذلك أن الانسان العربي ما زال

---

(١) يوسف السباعي ، يا أمة ضحكت ، ص ٣٣ .

خائفاً من تسليم أمره الى العقل ، ويزداد خوفه كلما فاجأه عقله باستنتاجات تهز جزءاً كبيراً من معتقداته الخرافية . إذ ذاك يشعر أن كيانه العقلي يكاد يتزعزع ، مترتباً على ذلك تزعزع كيانه النفسي، فيهرع الى ماكنة التفكير لديه ليبطلها عن العمل ، ويستريح وينام مطمئن البال في هدوء تلك الخيمة الأبدية التي يسميها قلبه . قلب الإنسان العربي الذي يتسع لكل شيء ، ويقبل كل شيء ، ويقف حاجزاً يمنع ضوضاء وضجيج ماكنات التفكير، سواء كانت هذه الماكنة محلية أو أجنبية ، ونعني بها عقول الآخرين . كان هناك عقد طويل الأمد بين المتعلم العربي وبين ما يسميه « قلبه » . فهو قد تعهد لقلبه بأن لا يسمح للعقل أن يكون هـــو الحكم والفيصل . وتعهد للمجتمع بأن يستعمل عقله فقط في الحدود التي لا تغضب عليه القبيلة ، وفي الحدود التي لا ينبثق عن هذا العقل مــا يتعارض فكرياً مع ذلك الذهن الاجتماعي الذي تكوّن عبر القرون من متكلسات التاريخ من مواريث وعادات وتقاليد .

ومهما يكن من أمر فإن النفور الجمالي الذي يشعر به السباعي وأمثاله من الكتّاب يضعهم في موقف متقدم عن العديـد من الكتّاب الذين يؤمنون بالخرافة ويروجون لهـا . ويكفيهم جرأة الموقف الساخر الذي يتخذونه من هذه المظاهر الخرافية كما فعل يوسف السباعي في مجموعته القصصية يا أمة ضحكت. فهو يعرض نماذج لأولياء الله « الثابتين منهم والمتحركين » في حارة الميضة في القاهرة . فالحارة رغم أنها « لا تعدو المائة متر طولاً والعشرة عرضاً، وليس فيها إلا جامع وبضعة حوانيت،ومع ذلك فهي عامرة بالسكان غنية بالأهل»، لأن أهل الميضة يجدون في أرصفة ، وقارعة حـــارة الميضة خير مأوى لهم يضمن لهم مكاناً في الجنة. وقد كانت هناك «بضع مصاطب تقوم على أطنابها، وترتفع عن الأرض بضعة أقدام » اتخذت :

دوراً لأوليـاء الله الثابتين ، ولست أعني (السباعي) بالثابتين ، الثـــابتين على دينهم – ولكني أعني الثابتين في أماكنهم ، أو في مصاطبهم ، فهي محل عملهم ونومهم ، وأكلهم وشربهم ، وقد دعاني الى تسميتهم بالثابتين أن أميزهم عن سواهم من أهل الحارة من أولياء الله

المتحركين، الذين يجوبون الأرض ويضربون في أطنابها نهاراً، ثم تأويهم الحارة ليلاً ، بعد أن يعودوا اليها محملين بخيرات الله .

كان أول أهل الحارة استيقاظاً هي الشيخ محمد ، ولا تظنوا أن قولي هي نوع من السهو أو الخطأ ، فإني أقصد بـ « هي » هي فعلاً ، فقد كانت امرأة ، أما اسمها الشيخ محمد ، فما ذنبي واسمها هكذا ، وما من فرد من أهل الحارة إلا ويناديها كذلك ؟[1]

يسرد السباعي كيف أن « الشيخ محمد » جلست على المصطبة ... ثم

مدت يدها تتحسس الحمصة الموضوعة في ركبتها الغليظة ، والتي وضعها لها الشيخ عتريس بعد أن شق ركبتها بشرط ودفن فيها الحمصة، منبئاً إياها أنها ستسحب جميع الأمراض التي في جسدها[2].

وكيف أنها وجدت مكان الحمصة « متقيحاً ملتهباً » ولكنها طمأنت نفسها متمتمة :

« يضع سره في أصغر حمصة »[3] .

ويستطرد الكاتب في وصفه الحي لأولياء حارة الميضة :

ثم بدأ أهل الحارة يستيقظون تباعاً ، فنهض الشيخ أحمد (رجل هذه المرة) ، وكان يرقد أسفل المصطبة ، ثم تحسس سيفه الذي كان دائماً يضعه تحت رأسه . فلما اطمأن عليه دس قدميه في مداسه ، وألقى تحية مقتضبة على كوم اللحم المغطى بالدثار ، فأخذ سيفه بيمينه ، واتجه الى باب المصطبة .

والشيخ أحمد من أهل الجهاد لا يغادره سيفه الخشبي ، ولا أوسمته التي يرصها فوق صدر قفطانه الرث ، وكم له من جولات وصولات ؛ في « حواري البغاله » وبين « عشش الماوردي » ؛ يعدو والغلمان

---

(١) يوسف السباعي ، يا أمة ضحكت ، ص ٣١ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

وراءه يحاوبونه على صيحاته بصوت واحد : « الله حي » . وهو في عـــدوه يقف من آن لآخر فيلوح بسيفه ذات اليمين وذات اليسار فينطرح الصبية أرضاً ، فيعود الرجل الى سيره تعلو وجهه علامات الانشراح وهو يتمتم : « نصر من الله وفتح قريب » .

ويقال إن الرجل كان في سابق عهده من طلبة الأزهر المتحمسين ومن قواد الثورة ، وأنه قـد أصابته لوثة فأضحى يجاهد بالطريقة التي تحلو له ؛ ماذا يضيره في ذلك وطريقته في الجهاد لا تكاد تختلف كثيراً عن سواه في هذا البلد ؟! وهو في نطاق مداركه يعتقد أنـه يجاهد ، وهم في نطـــاق مداركهم يعتقدون أنهم يجاهدون ، والبلد لا تكاد تستفيد منه إلا بقدر ما تستفيد منهم .

ويعود الشيخ أحمد في نهاية يومه ، قرير العين ناعم البال ؛ ليلقي بجسده الواهن من فرط الكر ، والفر ، أسفل مصطبـــة صاحبته الشيخ محمد ، وليناولها بعض ما أحسن بـه عليه أهل البر من أرغفة وقروش [1] .

أمـــا بقية أهل الحارة من أولياء الله الذين « وهبوا من البَلَـه والعته والعجز ، ما يهيىء لهم كل مسببات الولاية » فقد :

جلسوا القرفصاء أمـــام الحنفيات ، وتصاعدت في الجو أصوات المضمضة والتمخط ، نشازاً متنافرة ، ثم بدأوا يتسربون الى داخل المسجد [2] .

ويتساءل السباعي مستغرباً :

أكلما سمي به (الإنسان) الله ورفعه ، تسامى على الله وترافع ؟!
أكلما ذكره الله ، نسي هو الله ؟!!

---

(١) يوسف السباعي ، يا أمة ضحكت ، ص ٣٢-٣٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٣ .

نظرة منا الى أولئك المصطفين في المسجد يركعون ويسجدون ويذكرون الله !! وإحصاء منا لمراكزهم في الحياة ولما وهبه الله لهم، يصيبنا بدهشة وعجب ؛ جلهم من الفقراء والمساكين ؛ جلهم من نسميهم الطبقة الدنيا ، حتى هـذا الأفندي الموظف في وزارة الأوقاف الذي أطلق لحيته، لا يعدو أن يكون بين زملائه الموظفين مجنوناً أو معتوهاً[1].

. . . .

وخلاصة القول إن الإعتقاد بالأولياء والصالحين وكراماتهم وخوارقهم ما زال يلاقي رواجاً واسعاً في البلاد العربية، خاصة لدى القطاعات الجماهيرية الفقيرة والتي تكون النسبة المئوية الكبرى من الشعب العربي . وتلعب هذه المظاهر الخرافية دورها الكبير في إحياء الروح الاتكالية وتعطيل ميكانيكية التفكير والبحث ، والانسياق وراء أوهام تسلخ الانسان عن واقعه . وما زالت المؤسسات الرسمية والشخصيات الدينية تلعب دوراً في المحافظة على هـذه المظاهر الخرافية بل وتعميقها لصالح الطبقة الحاكمة عند الضرورة .

ورغم ادّعاء رجال الدين بأن مثل هـذه الخرافات هي بدَع دخيلة ، إلا أن مواقفهم الفعلية منها لا تتسم بالمحاربة والاستنكار وإنما بنوع من السكوت الذي يخفي رضى مقنعاً . كذلك فإن قليلاً من الكتّاب قد تعرضوا بالنقد والتحليل لمثل هذه الظاهرة، محاولين ربطها بالواقع الاجتماعي بكل معطياته وحيثياته ، وإن كان البعض قد استنكر مظهر الاستجداء بالقبور والمقامات .

إن التقاليد الاجتماعية والعادات بما فيها من كبت وقهر وتسلط طبقي من جهة ، وتسلط الرجل على المرأة من جهة أخرى ، وحالة الانغلاق والتزمت الاجتماعي ، تجعل من الأولياء والأضرحة أداة للتلاعب ، يقوم بها

---

(١) يوسف السباعي ، يا أمة ضحكت ، ص ٣٣ .

الفرد حين تدفعه الحاجة ، وحين يعجز عن تحقيق غـاية معينة بالوسائل التي يرضى عنها المجتمع .

إن هذا المظهر من مظاهر الخرافة جزء من البنيان الفكري من جهـــة والاقتصادي الاجتماعي من جهة أخرى ، وإزالته مرتبطـــة بتغيير الواقع الاجتماعي برمته .

الفصل الثالث

السحر والشعوذة

١ - تمهيد

إن ممارسة السحر والشعوذة والاعتقاد بها خاصة لدى الشرائح الدنيا من المجتمع شيء مألوف في معظم بقاع العالم. وكلما كان مستوى التقدم الحضاري منخفضاً كلما زاد انتشار السحر والشعوذة وغيرها من الخرافات أفقياً وعامودياً في البنية الاجتماعية. والسحر قديم قدم الحضارة الإنسانية ذاتها من حيث أنه كان وما زال بشكل متضاءل في أيامنا هذه تقنية (تكتيك) ساذجة وخرافية لتفسير الظواهر، وتحقيق الرغبات، وحل المشاكل التي يواجهها الإنسان. وفي معظم بقاع العالم ارتبط السحر كأحد مظاهر الخرافة والجهل، ارتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً وتداخلت الشعوذة بالطقوس الدينية لدرجة يصعب التفريق بينها لدى المجتمعات البدائية.

غير أن تطور الحياة البشرية، وما رافق ذلك من تطور في معتقداتها الدينية، وظهور أديان أكثر تطوراً ورقياً من حيث بناؤها العام والتصاقها بواقع الإنسان - وإن لم يكن الأمر كذلك من حيث أنها ما تزال تقوم أساساً على فكرة القوى الغيبية المجهولة مثل الأديان السماوية - هذا التطور لم يقض على السحر بجوهره البدائي، بل أدى الى تطوره من حيث الشكل ليتوافق مع الأديان الجديدة ويكتسب قوته منها. ومع أن السحر كان بطبيعة الحال معروفاً في الشرق قبل ظهور الإسلام وأن عرب الجزيرة كانت لديهم ممارسات من السحر والشعوذة يقوم بها بعض الكهان والعرافين وغيرهم [(١)]، إلا أن

(١) يؤكد ذلك وصف قريش النبي بالساحر ورميه بالسحر، راجع السيرة النبوية لابن هشام، مطبعة الحلبي بمصر، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥، القسم الأول، ص ٢٧٠، ٢٨٩.

طبيعة الحياة البدوية سواء من حيث التجمعات السكانية أو من حيث البُنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لم تجعل للسحر أهميــة كبرى لتسيطر على عقلية الجماهير البدوية ، كما نجد مثلاً في المناطق الحضرية .

كذلك فإن السحر كان معروفاً في مناطق سوريا والعراق وإيران ومصر ومرتبطاً بالديانات والثقافات المحلية السائدة هناك في ذلك الوقت ومتحدّراً منذ أحقاب بعيدة ليمتزج شكلاً وممارسة بالطابع الحضاري السائد . وجـاء الإسلام واعترف بالسحر اعترافاً صريحاً من حيث أنــه ممارسة أو موضوع تترتب عليه نتائج خيرة أو شريرة . وَبهـذا أخذ السحر مكانة شرعية لا يستطيع المسلم أن ينفيها لأنها وردت نصاً في الآيات القرآنية [1]. كذلك فقـد رُوي العديد من الأحاديث النبوية عن السحر ، ولعل أكثرها شيوعاً الحديث : « تعلّموا السحر ولا تعملوا به » .

إن السحر لم يكن له في العصر الإسلامي الأول (عصر النبي والخلفـاء الراشدين ، ٣٩ سنة) شأن يذكر في الأفكار الدينية الإسلامية ولا في نفوس المسلمين . فمن ناحية أولى لم يمارسه النبي وأصحابه ممارسة إيجابية ، إذ أن ممارسته من الناحية النظرية لا تتفق مع مـا جاء في القرآن عن النبي . ومن ناحية ثانية تطبيقية فإن العصر الإسلامي الأول تميز باندفاع عرب الجزيرة الى الأقطار المتحضرة الشام والعراق وفارس ومصر ، يقتحمونها ويؤسسون فيها دولتهم . وكانت انتصاراتهم كافية لإعطائهم العديد من المكاسب والامتيازات المادية (الغنائم من أسرى وسبي وأرضين وأموال ، والقيادة وسيادة العنصر العربي) . وكذلك مكاسب أدبيـة تجعل حاجتهم للبحث عن وسائل أخرى كالسحر أمراً غير وارد . ومن ناحية ثالثة فإن الديناميكية التي ولدتهـا الفتوحات والتوسع والانتفاضات والتمردات الداخلية ، وكذلك النزاعات القبلية لم تكن لتوفر الجو الملائم التي يتطلبه السحر على نطاق جماهيري وهو حالة من الركود الذهني التي تسيطر على المجتمع من خـلال استسلامه وفقدان

---

(١) منها : سورة الفلق ، آية ٤ ؛ سورة البقرة ، آية ١٠٢ .

ديناميكيته المميزة تحت وطأة الفقر والجهل وقهر السلطة الحاكمة مما يجعله يرتد الى ذاتـه وخيالاته وخرافاته ليبحث عن حلول لمشاكله الاجتماعية والفردية . ومن ناحية رابعـة فإن المجتمع الإسلامي بأفكاره وحضارته وخصائصه الفردية والجماعية وبالتالي عقليته لم تتبلور إلا في العصر العباسي . ولذا لا نستطيع التحدث عن السحر والشعوذة في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت ، ونعني بـه العصر الإسلامي الأول ، خاصة وأن حركة انتقال دينية بين الجماهير كانت تأخذ طريقها في ما هو الآن المنطقة العربية . يضاف اليها حركة الاختلاط العرقي بين أمصـار البلاد المفتوحة ، واستجلاب العديد من الأسرى والسبايا الى قلب المنطقة العربية من مناطق نائيـة مختلفة ابتداء من الأحباش والزنوج وانتهاء بالصقالبة وما يعني ذلك من تدفق عادات ومعتقدات وطقوس ومفاهيم غيبية تحمل طابع هذا التنوع .

إن هذا لا ينفي أن سكان البلاد الأصليين في فارس والعراق والشام ومصر وبحكم سبقهم الحضاري تاريخياً ورقياً، وتواجد ديانات ومعتقدات قديمة لديهم، وحالة الاستمرار السكاني، كانوا يمارسون أنواعاً من السحر والشعوذة وبدرجات متفاوتة منذ قرون سبقت تبلور المجتمع العربي الإسلامي في هـذه المناطق (باستثناء فارس والتي حافظت على طابعها باعتبارها واحـداً من مراكز الإشعاع الحضاري القديم) . وكانت مفاهيمهم عن السحر وممارساتهم لا ترتبط بالأفكار الدينية الإسلامية بل بالأفكار الدينيـة التي كانت سائدة في تلك الأقاليم .

إن نفس الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي سادت المنطقة العربية خلال الألف عـام الماضية والتي ولـدت وعمقت الاعتقاد بالخرافات كالأوليـاء وكراماتهم والجن والشياطين وغيرهم ، وحولت المجتمع العربي والإسلامي تدريجياً الى مجتمع مستسلم جبري متواكل ، هي بذاتها التي جعلت للسحر والشعوذة قوة في نفوس الجماهير المضطهَدة ، وفي نفوس غيرها – وبدرجة أقل – من الشرائح الاجتماعية الأعلى . وتلونت ممارسات السحر والشعوذة باللون الفكري الذي ساد المنطقـة ، واتجهت لتعبّر عـن تطلعات

وأحلام الجماهير من ناحية، كالبحث عن الثروة، والتغلب على المشاكل اليومية الصغيرة كالمحبة والكراهية مثلاً من ناحية أخرى .

ولقد كان من العوامل المساعدة للسحر والمشعوذين ومن على شاكلتهم من عرافين ومتكهنين وجود بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية (كما مر معنا) والتي تشير الى السحر ولو بإشارات غامضة ، استغلها هؤلاء لتأكيد صناعتهم ، وإقناع الجماهير بها . وفي الحالات التي لم يجد المفسرون معنى أو تفسيراً ذكره الصحابة عن النبي كانوا يجدون من المفسرين المعاصرين، من يندفع الى اختلاق تفسيرات مستقاة من القصص والأفكار اليهودية أو المسيحية أو الهندية أو الفارسية أو من خيال وتصوّر غيبي خرافي من بنات أفكار المفسرين أنفسهم. كذلك فإن بعض القصص التي وردت في القرآن تشير الى أن هنالك سحرة قادرون على القيام بسحرهم بالرغم من أن الله قد أبطل سحرهم . ففي قصة موسى في سورة طه نعلم أن فرعون يتهم موسى بالسحر ليخرج فرعون وقومه من أرضه، فيتوعده بسحر مثله. فجمع فرعون سحرته ليواجه موسى وهارون ، ويتحدى السحرة موسى بأن يلقي عصاه أو يبدأوا هم بذلك منتظرين أن تتحول العصي الى أفاع . وحين يلقون عصيهم يخيل الى موسى من سحرهم أن العصي قد تحولت الى أفاعي . ولكن الله ينقذ موسى من خيفته إذ أن عصاه حين يلقيها تتحول الى أفعى تبتلع كل ما صنعوه .

والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى[1] .

وعن دور الشياطين في مسألة السحر يذكر القرآن أن الشياطين يعلّمون الناس السحر وأن الناس يتعلّمون من السحر ما يفرّق بين المرء وزوجه . وفي نفس الوقت نجد إشارة الى أن السحر يضر الناس ولا ينفعهم .

... ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا

(١) سورة طه ، آية ٦٩ .

إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلّمون منهما ما يفرّقون بـه بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ...[1]

ويؤكد ابن خلدون وجود السحر بقوله :

واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن[2] .

ويرى كذلك أن الناس جميعهم معرضون لأن يُسحَروا ويتأثروا بالسحر بما في ذلك النبي :

وسحر رسول الله ﷺ حتى كان يخيل إليه أنـه يفعل الشيء ولا يفعله . وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان ...[3]

كذلك فإن اعتراف الإسلام بالجن والشياطين وإقرار القرآن بأنـه يمكن تسخيرهم لأداء أعمال معينة ، أعطى السحر قوة كبيرة في نفوس الجماهير . فعلى سبيل المثال ، نجد في قصة سليمان كما وردت في القرآن أن عفريتاً من الجن عرض على سليمان أن يحضر له عرش بلقيس قبل أن يقوم من مقامه[4] . فإذا تذكرنا أن عرش بلقيس يُفترض أنـه كان في اليمن وأن سليمان كان في القدس ، فإن الإتيان بالعرش عبر هذه المسافة الشاسعة وفي مثل هذا الوقت القصير ، يؤكد للسامع أن قدرة العفاريت اذا أمكن تسخيرها ستكون فوق كل تصوُّر . بل إن أحد وزراء سليمان وهو « آصف بن برخيا » – كما جـاء في تفسير الجلالين – بَزّ عفريتَ الجن بأن عرض على سليمان أن يحضر العرش خلال طرفة عين[5] . وأن السر وراء هذه المقدرة الخارقة هو أن آصف بن برخيا

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٠٢ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٩٨ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) سورة النمل ، آية ٣٩ .

(٥) سورة النمل ، آية ٤٠ .

قد عرف «اسم الله الأعظم» الذي يمكن عن طريقه -أي عن طريق الاسم- تحقيق أي عمل مهما كان جسيماً وفي لمح البصر[1] ، وبغض النظر عن الاعتبارات الأخرى :

قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .... (سورة النمل : ٣٩ ، ٤٠) .

واستفاد المشتغلون بالسحر أيضاً من كلمات مثل: ألم[2]، ألر[3]، طسم[4]، كهيعص[5]، ق..[6] الخ ، والتي وردت في مطالع السوَر القرآنية . إذ دعم غموضُ معانيها الاعتقادَ بالسحر، على اعتبار أن مثل هذه الكلمات وغيرها ، وكذلك أسماء الله، تشكل المفاتيح التي يمكن بواسطتها إخضاع الجن لتحقيق الرغبات والوصول الى الغرض المطلوب . ولقد كانت الحركة الصوفية هي أكثر الناس استفادة من فكرة اسم الله الأعظم الذي لا يعرفه إلا القطب الغوث، والذي عن طريق هذا الاسم ، يقوم القطب بالعديد من الخوارق والكرامات وينقله الى خليفته قبيل وفاته .

إن المتتبع لاهتمام المسلمين بالكلمات الغامضة وإسناد قوى خارقة للحروف والأرقام، يستطيع أن يلاحظ بسهولة انتقال هذه المفاهيم اليهم من الحضارات القديمة وعلى الأخص الهندية والعبرية . غير أن اعتقاد المسلمين بأن القرآن هو كلمة الله بالمعنى الحرفي أضفى على القوة الخارقة للكلمة والحرف معنى دينياً ،

(١) جاء في تفسير الجلالين أن آصف بن برخيا طلب من سليمان أن ينظر الى السماء « فنظر اليها ثم رد بطرفه فوجده (أي العرش) موضوعاً بين يديه ، ففي نظره الى السماء دعا آصف بالاسم الأعظم أن يأتي الله به فحصل بأن جرى تحت الأرض حتى نبع تحت كرسي سليمان » . ص ٥٠٣ .

(٢) في أول السوَر التالية : البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة .

(٣) في أول السوَر التالية : يونس ، هود ، يوسف ، ابراهيم ، الحجر .

(٤) في أول السوَر التالية : الشعراء ، القصص .

(٥) في أول سورة مريم .

(٦) في أول سورة ق .

وقوة إلهية، أكثر مما كان لدى الأمم الأخرى . ولا يزال الاعتقاد هذا سائداً لدى الكثير من الأوساط الدينية . والتي تؤثر بدورها على الأوساط الجماهيرية وخاصة في الشرائح الدنيا في المدينة والريف .

ويدافع محمد شاهين حمزة صاحب كتاب السيدة نفيسة عن هـذا المفهوم بحماس وثقة مطلقة فيقول :

لقد ثبت بطريق قاطع وجود تلك الخواص (يعني أن الحروف والكلمات والأرقام خواصاً وأسراراً) . نادى بهـذا من قبل كثير من أعلام الفكر الإسلامي أمثـال ابن خلدون في كتابه شفاء السائل بتهـذيب المسائل والبوني والغزالي وابن سينـا ، وابن عربي وغيرهم[1] .

وبعد أن يعمم هذه المسألة على أمم قديمة وحديثة (دون أن يذكرها) ويؤكد أن الأسرار :

موجودة في كل حرف وكل كلمة وكل رقم بأية لغة من اللغات[2].

يورد محمد شاهين حمزة أمثلة مما قاله ابن سينا :

إن الحروف الأبجدية كلها تتضمن أغراضاً خاصة [3].

وقول الغزالي :

هناك أمور تسمى خواص لا يدور تصرُّف العقل حواليها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها [4].

وقال البوني :

لا تظنن أسرار الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلي ، وإنما هو بطريق المجاهدة والتوفيق الإلهي[5] .

---

(١) محمد شاهين حمزة ، السيدة نفيسة ، ص ١٦٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٦١ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٦٢ .
(٥) نفس المصدر ، ص ١٦١ .

وقول ابن خلدون في شفاء السائل لتهذيب المسائل :

إن التصرف في عالم الطبيعة بالحروف والأسماء المركبة منها وتأثر الأكوان بذلك أمر لا ينكر لشهرته وتواتره [1].

وبعد ذلك يقدم نظرية جديدة على العلم في قوة الأعداد والحروف فيقول:

إن الأعداد والحروف حين ترسم أو تحيط تصبح مادة مشعة ذات أسرار وخواص جُرّبت فظهرت آثارها فعلاً [2].

وهكذا نجد أن قناعة الجماهير بهذه الأفكار تفتح الأبواب على مصراعيها للمشعوذين والدجالين وكاتبي الرقي والحجب (سواء أراد المفسرون أم لم يريدوا) على اعتبار أنهم يكتبون حروفاً أو كلمات لها أسرار قادرة على تغيير أحوال الأكوان « وصاحب الحاجة » جزء منها بطبيعة الحال .

إن البحث وراء أسرار الحروف والكلمات لم يقتصر على أمثال ابن خلدون والبوني والغزالي وابن سينا وغيرهم في القرون السابقة . ولم تستطع علوم القرن العشرين حسبما يبدو أن تضع حداً للبحث عن هـــذه الأسرار الغامضة . ولم يقتصر الأمر على التصورات الوجدانية التي ضمنها محمـــد شاهين حمزة في كتابه عن السيدة النفيسة ، بل تعدى الأمر ذلك ليشمل بعض العلمـــاء (Scientists) من المسلمين في السبعينات من هذا القرن . فذهب بعضهم الى استخدام الوسائل التقنية التي أبدعها إنسان المجتمعات الصناعية ليستخرج بهذه الوسائل السر الذي لم يصل اليه سلفه . فلقد استخدم الدكتور رشاد خليفة الكيميائي (من مصر) ويعمل في الولايات المتحدة الأمريكية ، « الكمبيوتر » لكي يتعرف على معاني الحروف الغامضة التي تبدأ بهـا بعض السوَر القرآنية مثل: طسم، حم، ألم، كهيعص، ق... واحتاج الى ملايين العمليات الحسابية، واستغرق العمل منه حوالي ثلاث سنوات ليخرج بنتائج لم تقدم للعلم ولا حتى للدين شيئاً ذا قيمة . فلقد اكتشف هذا العالِم أن السورة التي تبتدىء

---

(١) محمد شاهين حمزة ، السيدة نفيسة ، ص ١٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٢ .

بـ « طسم » تقع في وسط القرآن تقريباً ، وأن هناك علاقة بين فاتحتي سورتي الشعراء والقصص ... وبين فاتحة سورة « النمل » وما يشبه ذلك من استنتاجات حاول أن يخرج منها بأن القرآن « متوازن » والإسلام يدعو الى الإتزان . وأكد الصحفي الذي نشر هذا التقرير في مجلة آخر ساعة وبعد حرب تشرين الأول (اكتوبر ١٩٧٣) أن العالم المصري العربي قد كتب كتاباً بهذا الشأن أودعه في مكتبة الكونجرس الأمريكي[١].

ويشير هذا الخبر عن الدكتور خليفة بوضوح الى أن العقلية الخرافية لا تختفي بمجرد الانتقال من بيئة متخلفة الى بيئة متقدمة(حضارياً)ولا تختفي بمجرد الحصول على شهادة جامعية عليا ، بل إنها جزء أساسي من التركيب الذهني والنفسي للفرد الذي نشأ في بيئة متخلفة في علاقاتها الاجتماعية والانتاجية وبالتالي خرافية في تصوراتها العقلية . ويشير هذا الخبر في نفس الوقت الى أن تغيير العقلية يحتاج الى مشاركة فعلية وإيجابية يمارسها الطفل في البيت وفي المدرسة وفيما بعد في المجتمع وفي المؤسسات الاجتماعية الأخرى مشاركة تتفق وعلاقات انتاجية متطورة تطوراً يتمشى مع المستوى العلمي (Scientific) والحضاري الذي يسعى أن يصل الفرد اليه. وكذلك يشير الى أن البحث وراء « حجر الفلاسفة » التي أنفق عليه كيميائيو العصور الوسيطة في الشرق الإسلامي الجهود المضنية ما زال قائماً في الذهن العربي ، وإن اتخذ صورة خارجية مختلفة رغم الفارق الحضاري على المستوى العالمي . إلا أن التقارب بين عقلية القرون الوسيطة وعقلية الفترة الحاضرة في كثير من بقاع الوطن العربي ترجع الى استمرار الواقع الاقتصادي والاجتماعي إلا من تطورات طفيفة في الجوهر .

كذلك فإن العقلية الخرافية حين تتاح لها الإمكانيات العلمية والتقنية تكون مرشحة باستمرار لاستعمالها في غير موضعها : إما لتعميق الخرافة كما تفعل أجهزة الإعلام التي تستخدم آخر المعدات الكهربائية الحديثة ،

---

(١) مجلة آخر ساعة ، القاهرة ، ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣ .

أو للبحث وراء قضايا ليس لها علاقة بالعلم الذي تعمل بموجبه هذه المعدات .

* * *

في الوقت الذي اختلف فيه الفقهاء حول عقوبة الساحر[1] نجد أن المفسرين قد اختلفوا في الآيات المتعلقة بالسحر من حيث أنها هل تعني فعلاً السحر، أي الإتيان بأعمال لا تنطبق عليها القوانين الطبيعية المعروفة، كتحول العصاة الى أفعى مثلاً. فذهب بعضهم الى الإقرار بذلك، بينما أنكره البعض. وأوّل البعض الآيات بحيث تعني كلمة السحر، التوهم أو التخيل بانقلاب الشيء المسحور الى ما يراد تحويله اليه. وفريق ثالث ابتعدوا عن الخوض في الموضوع واكتفوا بقولهم : الله أعلم .

غير أن الذي يهمنا في هذا البحث ليس ما قصده القرآن فعلاً بقصص السحرة وآيات السحر بقدر ما هو مفهوم الجماهير عن هذه القضية . وهذا المفهوم الجماهيري يعتمد، كما ذكرنا في مواضع عدة، على الأخذ بظاهر الكلمة وقبول التفسير المباشر، والمعنى الدارج للكلمة، والتي تعبر عن واقع الحياة التي تعيشها الجماهير . ولهذا تبتعد الجماهير عن التفسيرات المؤولة أو الفلسفية المعقدة والتي لا تتناسب مع بساطة الذهنية الجماهيرية ولا تتلاءم مع عفويتها، ولا تتيح لها فرصة تغذية خيالاتها وتطلعاتها الوهمية ، والتي كثيراً ما تكون بحاجة اليها للتنفيس عن واقع الكبت والقهر الاقتصادي والاجتماعي، أو رغبة

---

(١) قال الشعراني في كتاب حكم السحر والساحر : .. أجمع الأئمة على تحريم السحر وهو عزائم ورقى وعقد تؤثر في الأبدان والنفوس والقلوب فيمرض ويقتل... قال إمام الحرمين: ولا يظهر السحر إلا على يد فاسق كما لا تظهر الكرامة إلا على يد ولي وذلك مستفاد من إجماع الأمة . وقال مالك : السحر زندقة ... وقال النوري: إتيان الكاهن وتعلّم الكهانة والتنجيم والضرب بالرمل والشعير وتعليمها حرام بالنص الصريح ... ومن ذلك قول الأئمة الثلاثة أن الساحر يقتل ...

عبد الوهاب الشعراني ، كتاب الميزان ، مطبعة التقدم العلمية ، مصر سنة ١٣٢١ هـ ، باب الندر ، ص ١٤٤ .

في إشغال الذهن حين تفتقر الحياة الى ديناميكيتها إمـا بسبب الانعزال والتقهقر الحضاري ، وإما بسبب الخوف وعدم الطمأنينة على النفس والمال ، في ظل ظروف الاستعباد ، أو الدكتاتورية السياسية .

إن اعتقاد المسلم بالقدرة المطلقة لله ، واعتقاده بحدوث الأحداث وفقاً لمشيئة الله وحكمته المطلقتين ، وبغض النظر عن أي اعتبار قد يتصوره العقل البشري، وكذلك ثقة المسلم بأن الله الى جانبه دائماً، يقبل دعاءه حين يدعوه، وينصره اذا شاء، ويغنيه اذا أراد، ويعزه اذا شاء، ويبرئه من مرضه بإذنه، ويرزقه البنات والبنين اذا رغب ، ويسخر له ما لم يكن بحسبانه اذا أمر « أن أمر الله « كن فيكون » » ؛ وكذلك فـإن إيمان المسلم بأن الآيات القرآنية هي كلمات الله بالمعنى الحرفي ، والمكانة القدسية التي يتمتع بها النبي عند الله وفي نفس المسلم ، كل ذلك كان من العوامل النفسية التي جعلت المسلم يعتقد بصحة العديد من ممارسات السحر والشعوذة والتي يكثر فيها ذكر الله، والصلاة على نبيه والثناء عليه. فإن ذكر الله والصلاة على نبيه مرشحة حسب تصوره لأن تكون هي الأسرار التي تفتح باب المجهول ليستجيب الله الطلب ويحقق الرغبة ويطرد الجن والشياطين أو يسخرهم لخدمة الإنسان .

وهكذا ، وخلال مئـات السنين ، اكتسبت ممارسات السحر والشعوذة ، والتي هي مزيج لممارسات من هذا القبيل عمرها آلاف السنين، اكتسبت طابعاً إسلامياً . وحلّت الأسمـاء والمصطلحات الإسلامية والتي تحمل ملامح عبرية يهودية واضحة محل العديد من الأسماء والمصطلحات القديمة . على أن هنـالك ممارسات ومعتقدات ولّدها المجتمع الإسلامي ذاته من خلال ظروفه التاريخية وبالاستناد الى المفاهيم الدينية الإسلامية المحضة .

ويمكن تلخيص النظرة الإسلامية شبه الرسمية ونعني بهـا نظرة المفكرين المسلمين والفقهاء بالصورة العامة والمعتدلة التي أوردها ابن خلدون في مقدمته في الفصل الثاني والعشرين تحت عنوان في علوم السحر والطلسمات فقال :

إن هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب أو غيره ....

إلا أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء ... وقد نطق به القرآن وسُحر رسول الله ... وجعل سحره في مشط ومشاقة ....

ثم ميّز ابن خلدون بين السحر ، فقال بأنه يتوفر للنفوس الساحرة ، والتي هي :

المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين ، وهـذا الذي تسميه الفلاسفة السحر .

أما النوع الثاني فإنه يستعين صاحبه بـ

معين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول (السحر) .

أما النوع الثالث وهو مـا سماه ابن خلدون الشعوذة أو الشعبذة فهو لا وجود له وإنما هو :

تأثير في القوى المتخيلة ، يعمد صاحب هـذا التأثير الى القوى المتخيلة ، فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيهـا أنواعاً من الخيالات والمحاكاة ... فينظر الراؤون كأنها في الخارج (كأنها واقعة) وليس هناك شيء .

ثم يضيف ابن خلدون بأن السحر رياضة يتوجه صاحبها :

الى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التنظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة الى غير الله .... فلهذا كان السحر كفراً ... ولهـذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد ؟

وأكد الفكرة القائلة بأن قراءة القرآن تبطل عمل السحر حين ذكر بأن النبي كما روت عائشة كان :

لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت .

وفي رأينا أن اعتقاد المسلمين بأن قراءة القرآن ، وخاصة « المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد » تبطل السحر ، ساعد على ترويج أفكار السحرة

وكتّاب الطلاسم بأن الآيات القرآنية تساعد على إعمال السحر أو الطلاسم، لأن قدرة الإبطال توحي بالضرورة بقدرة الإعمال.

وهناك تمييز بين السحر والمعجزة، في أن:

المعجزة قوة إلهية تبعث على النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك، والساحر إنما يفعل ذلك من لدن نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال .... ونستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير والنفوس المتمحضة للخير والتحدي بها على دعوى النبوءة. والسحر إنما يوجد لصاحب الشر وفي أفعال الشر ...[1]

وهكذا يؤكد ابن خلدون دور الشياطين في مساعدة السحرة على أعمالهم مستمداً هذه الفكرة من الآيات القرآنية. غير أن هذه النظرة المعتدلة من جانب ابن خلدون لا تمثل تصور الجماهير عن السحر والشعوذة بقدر ما تصور رأي النخبة من مفكري العصر في القرن الرابع عشر ميلادي (٧٧٩ هـ). وعليه فإن الصورة الجماهيرية كانت وما زالت تحتوي الكثير من الخيالات والأوهام التي تجعل للسحر مكانة نفسية وأهمية عملية في الحياة اليومية للجماهير، أكثر بكثير مما تصوره لنا الخلاصة التي أوردناها عن ابن خلدون.

تقدم لنا قصص ألف ليلة وليلة وغيرها من السير الشعبية أمثال سيف بن ذي يزن، وحمزة البهلوان، والزير سالم صوراً عديدة ومتنوعة للاعتقادات الخرافية السائدة عبر العصور والتي بها من السحر والتنجيم والطلاسم واستخدام الجن الشيء الكثير. وهذه الاعتقادات حافظت على بقائها وتشكلت ممارسات الناس لها حسب الظروف المحلية في الأمصار المختلفة من العالم العربي وإن كانت هنالك عوامل مشتركة تجمعها، أهمها الانتشار

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، الفصل الثاني والعشرون، ص ٤٩٦-٥٠٣.

العريض لها في الشرائح الدنيا للمجتمع واعتماد المشعوذين على الدين واستخدامه مدخلاً ذهنياً ونفسياً للجماهير .

رغم مرور ما يزيد على خمسمائة عام على الملاحظات والتفسير الذي أورده ابن خلدون لظاهرة السحر ، ورغم أن العديد من علماء الاجتماع والديانات والانتروبولوجيا والفلاسفة قد كتبوا بعد ذلك الكثير عن ظاهرة السحر بحيث « تأكد » إرجاعها الى أصول دينيـــة وميثولوجية منبثقة عن الواقع الاجتماعي والحضاري للإنسان وخاصة في بداية تحضّره ، إلا أنـــه من غير النادر أن نجد عدداً من « المتعلمين » العرب يرجعون ظاهرة السحر الى فئة واحدة من الجنس البشري وكأن هذه الفئة تمثل ساحراً تاريخياً للإنسانية . فالدكتور علي حسين الخربطلي مثلاً في معرض حديثه عن اليهود وبعد أن يقدم

> بأن العقلية اليهودية تختلف في تفكيرها واتجاهاتها عن عقلية البشر جميعاً وأن هذا الاتجاه قد أحدث تأثيره في تاريخ العالم كله ...[1]

يطلع بنظرية جديدة وفريدة لا تتفق مع أبسط القواعـــد العلمية التي عرفها العـالم المتحضر منذ بدأ العلم يأخذ طريقه بدلاً من الخرافة في تفسير الأحداث والظواهر . يقول د. الخربطلي :

> إن السحر بجميع أسراره وأنواعه جـاء من العقلية اليهودية[2] والإيمان بالأشباح وتقمص الأرواح ومخاطبة الأرواح جـاء من هذه العقلية ، والعرافة والتدجيل والتكهن بالمستقبل والإيمـان بالمسيح المنتظر وقراءة الكف والنجوم والطوالع كل ذلك جـاء من العقلية اليهودية[3].

---

(١) الدكتور علي الخربطلي ، العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود ، معهد البحوث والدراسات العربيـــة التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٣٣ .

(٢) لاحظ الإطلاق والتعميم التعسفيين .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

إن الذي دفعنا الى إيراد ما كتبه الدكتور الخربطلي ليس القيمة العلمية لنظريته، بل هو التأكيد على أن مفهوم الشيطان الذي تلصق بـه كل صفات لا نريدها سواء كانت معقولة أو غير معقولة ، هذا المفهوم مـا زال قائماً في العقلية العربية ، وإن كان كما سبق وأن ذكرنا قـد اختفى (الشيطان) ظاهرياً ليأخذ مكانه اليهود أو الصهيونية . والناحية الثانية أن تفسير العقل العربي للظواهر الاجتماعية ما زال خرافياً في كثير من مجالاته ، يختلق الآراء والنظريات الساذجة المغرقة في السكونية والتجزيء ، لتكاسله عن البحث من جهة ، ولوقوعه أسيراً للإرادة الغيبية المجهولة من جهـة ثانية ، ولكيل الشتائم لمن لا يحب من جهة ثالثة ، ولو على حساب العلم والمعرفة ، ولخلق موقف استعلائي زائف لدى الإنسان العربي بإيهامه بأن كل ما هو شرير هو من إنتاج أعدائه .

أما المؤسف حقاً فهو أن تكون آراء الخربطلي هذه ، قـد قدّمت في محاضرات في معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية وبعد مضي سنتين على هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ، وبعد أن اعترف القاصي والداني ، والرئيس والمرؤوس في البلاد العربيـة بأن العقلية اليهودية في إسرائيل عقلية علمية قادرة على استيعاب تقنيات العصر الحديث وعلومه ، الأمر الذي يتعارض جذرياً مع ما حاول الدكتور الخربطلي أن يصل إليه ، وهو أن اليهود خرافيون في الفكر والعقلية .

ولسنا هنا بصدد حصر أنواع السحر والشعوذة وما يشابهها ، بل نهدف الى عرض نماذج للإعتقادات والممارسات التي يمكن إدراجها تحت تعريف عام للسحر والشعوذة ، ويقصد بـه اللجوء الى وسائل خرافية سواء من حيث الكنه أو الاستعمال أو المعالجة . والاستناد على قوى غيبية سواء كانت قوى خيّرة كالمدد الإلهي أو الملائكة ، أو قوى شريرة كالشياطين ، أو محايدة كالجن المجهول اتجاهها . وكذلك الاعتقـاد بتأثير قوى غيبية على الإنسان من حيث الصحة أو المرض أو المحبة أو الكره كالشياطين والكواكب

والعين الشريرة أو اللجوء الى وسائل مادية لمجابهة هذا التأثير المفترض للقوى الغيبية . وحسب هـــذا المفهوم تندرج كتابة الحجب والرقي والحسد وتحضير الأرواح واستحضار الجان والتبخير وتسخير الشياطين وخاتم سليمان والبحث عن الكنوز ، تندرج هـــذه كلها ومـا يماثلها تحت مفهوم السحر والشعوذة .

٢ - الحسد

إن الاعتقاد بالحسد والعين الشريرة يمكن اعتباره واحداً من أوسع الخرافات انتشاراً في البنية الاجتماعية بمختلف شرائحها عمقاً وعرضاً. وإن كان الاعتقاد به في الشرائح العليا في المجتمع أقل حدة منه في الشرائح السفلى، نظراً للضمانات الاقتصادية والاجتماعية والأدبية التي تتوفر عادة لأفراد هذه الشرائح بحكم مواقعها الطبقية، وبحكم الحظ الأوفر من الحرية السياسية والاجتماعية التي تتمتع بها وبتأثير التعليم الأرقى والانفتاح على مجتمعات العالم المتقدم.

والاعتقاد بالحسد قديم وواسع الانتشار بين الشعوب المختلفة. وتستخدم لإزالة مفعوله ورد شر «العين الحاسدة» وسائل مختلفة، وأحياناً معقدة، لضمان النتيجة. ولا نريد هنا أن نتوسع في أصل نشأة مفهوم الحسد بتأثيره الخرافي. أما البعد السيكولوجي للحسد عند الحاسد فهو، كما نتوقع، يعود الى الغيرة من عدم الامتلاك، أو عدم الوصول الى الغاية التي امتلكها أو التي وصل اليها الآخرون. وبالتالي فهي حالة من الشعور بالنقص المادي أو المعنوي مستندة الى نوع من العجز في ذات الحاسد لا يستطيع أن يتغلب عليه. فهو لا يرى وسيلة لتغطية نقصه ليصل الى درجة التساوي مع الآخرين أو التفوق عليهم إلا بأن يصيبهم ما يفقدهم عنصر التفوق؛ وهو إذ لا يستطيع ذلك مادياً أي لا يستطيع سلبهم من عناصر تفوقهم النسبي لا يجد حيلة إلا أن يتمنى لهم الشر والفقدان. وهو بذلك «يحسدهم».

أما بالنسبة للمحسود فلقد نشأت فكرة الخوف من الحسد من جهل الإنسان

في مطلع تحضّره ، وأساساً الى عدم قدرته على تفسير بعض الظواهر البسيطة والفجائية التي كان هو أو عشيرته أو ممتلكاته موضوعاً لها . ولعل المرض ، والموت ، وموت الماشية ، وجفاف الزرع وانهيار البيت ، كل ذلك لم يكن الإنسان بقادر على تعليله التعليل العلمي . وكان لا بد له من أن يبحث عن السبب . فكان يعزوه لأناس كانوا يعبّرون عن تمنيهم امتلاك ما لديه ، سواء صحة أو ولداً أو مالاً ، فهم بذلك « يحسدونه » . ثم تطور هذا المفهوم لدى المحسود بتطور الأنظمة السياسية المتحكمة وما رافق ذلك من انعدام الأمن لدى الإنسان العادي وكثرة السرقة والسلب والنهب والاغتصاب والقتل والسبي والاستغلال الاقتصادي على شكل ضرائب أو إتاوات أو مصادرة وانتشار الأمراض والأوبئة في المناطق الفقيرة،وتغيُّر السلطة الحاكمة وما الى ذلك ، مما جعل الإنسان يشعر بالخوف الدائم على ما عنده وما يملك ، متوقعاً أن يذهب من بين يديه ذلك الذي بالكاد قد حصل عليه . وهو بالفعل معرّض لأن يفقده لكثرة العوامل المضادة وارتفاع الاحتمال بأن يصيبه واحد منها . ولأن التنافس والصراع كما يشعره ويعيشه الإنسان العادي هو تنافس وصراع مع الناس الآخرين ، فمن المعقول والحالة هذه أن يربط بين ما يصيبه من شر وبين رغبات منافسيه الذين يريدون الانتصار أو التفوق عليه . فإذا أضفنا الى ذلك الأفكار الخرافية الغيبية عن العالم ، والتي يصدّق بها الإنسان البسيط ، وما تحمل تلك الأفكار من مفاهيم عن القوى الشريرة والشياطين وإمكان تقمصها الناس وغير ذلك مما راج على أيدي الكهان ورجال الدين المتعاقبين عبر العصور ؛ اذا أضفنا كل ذلك الى ما تقدم، نستطيع أن نتعرف على خطوط عريضة لما يطلق عليه الحسد .

وفي المنطقة العربية فقد جاء الإسلام ليؤكد وجود الحسد والحاسدين « ومن شر حاسد اذا حسد »[1] ويعترف به كحقيقة موجودة ، ويختص بها المؤمنون . وفي نفس الوقت تثبت على الحاسد صفة الشر . وبذلك

(١) سورة الفلق ، آية ٥ .

ويتوفر الظروف الموضوعية والتي تتحكم بحياة الإنسان ازداد الاعتقاد بالحسد وأصبح من أحد السمات البارزة للنفسية العربية حتى يومنا هذا .

ولقد نشأت الأسطورة بأن العين هي أساساً أداة الحسد ، وأنه ليس من الضروري أن يعبّر الحاسد عن حسده بالكلمات أو الإشارات ، وإنما يكفي أن ينظر بعينه فيصيب بها الشيء المحسود بالسوء أو الضرر ، ولذا أصبحت كلمة « أصابته عين » أو « إصابة عين » أو الدعاء الحريمي: « عين تصيبك » مرادفاً للحقد وما يرافقه من حلول الشر . وكان من تأثير هذا الأمر أن أصبح الناس ميالون لإخفاء ما يخافون عليه الحسد ، أو لإفساد جماله وكماله (ينشئون فيه عيباً) وذلك كي لا يجلب أنظار الناس ولا يتمناه الحسّاد .

وقـد روى ابن خلدون أنه شاهد بعض الناس اذا نظر الى خروف أو نعجة أماتها أو بعجها لتخرج أمعاءها وسمّاهم « بالبعّاجين »[1] . ومع أنه أورد هذه الحكاية تحت « باب السحر والطلسمات » إلا أننا نعتقد أنه كان يقصد بها العين التي تصيب المحسود .

ويعتقد المصريون أن الحسد يكون على أتمّه اذا نظر الحاسد وشفع نظرته بالشهيق . وكان من الشائع عند النساء أنه اذا نظر رجـل تلك النظرة أسرعت المرأة وقالت له : « وراك تعبان ، أو عقربة ، أو نار » فيلتفت وراءه لينظر اليه ، وبذلك يذهب سحر عينه[2] .

ولقد تركزت وسائل منع الحسد على إضافة ما يعتقد أنه سيجلب انتباه الحاسد فيركز نظره عليه بدلاً من أن يركزه على الشيء المحسود ذاته . ولهذا فهم يزعمون :

أن الحجاب يمنع العين ، ولهم في ذلك طرق منها : وضع قليل من الملح الجريش في كيس يعلق في عنق الأطفال، كذلك ناب الذئب،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٠٠ .

(٢) أحمد أمين ، قاموس العادات .... ، ص ١٦٧ .

أو ناب الضبع ، أو رأس هدهد عليه ريش ، توضع في قطعة من السختيان الأحمر ويخاط[1] .

تذكر و. س. بلاكمان أن :

خوف الفلاح المصري مثلاً من العين الشريرة (العين الحسودة) يشكل بالنسبة له حالة من الرعب الحقيقي يعيشها منذ الصغر، وحتى سن متأخرة في الكبر[2].

فهو كوليد يخاف عليه أهله من عين النــاس في القرية ، فيحجّبونه ويبخّرونه ويَحْجبونه . وهو اذا كبر قليلاً ينهونه عن كل موقف أو شخص يخيّل إليهم أنه قد يصيبه بعين سوء ، وهو يسمع مـا يتناقلونه من أحاديث عن الحسد والحاسدين ، فينتقل اليه خوف أهله عليــه لينشأ معه خوفه على نفسه لينقله بدوره الى أبنائه في المستقبل . وهو ما أن يصبح مالكاً لحيوان أو زرع أو قطعة أرض حتى يخاف عليها بنفس الطريقة التي نشأ عليهـا . ولا يمنعه ذلك من أن يضع حجاباً لجاموسته خوفاً من أن تصيبها عين حاسد فيخسر رأس ماله كله .

والحالة الرعب هذه أسبابها المادية البحتة التي يدركها الفلاح أو لا يدركها، ولكنه يشعر بها ولا يستطيع مواجهتها مادياً ، مما يدفعه الى القبول بتفسير خرافي لها . وبالتالي مواجهتها والتصدي لها أيضاً بوسائل خرافية .

إن فقر الفلاح ، وسوء التغـــذية ، وانتشار الأمراض ، وندرة المراكز الصحية، وارتفاع معدل الوفيات في المواليد، يجعله باستمرار عرضة للأمراض، هو وعائلته ومواشيه . وكثيراً ما يرجع المسألة الى إصابته بالعين لأنه يجهل حقيقة ما أصابه ، أو لا يجد لديه ما يساعده على الذهاب الى الطبيب والذي يتطلب نفقات أكثر بكثير مما تتطلب كتابة الحجاب أو تعليق الخرزة الزرقاء.

---

(١) أحمد إمين ، قاموس العادات .... ، ص ١٦٧ .

(٢) W.S.Blackman, The Fellahin of Upper Egypt, London, 1968, pp. 218 - 222 .

كذلك فإن خضوع الفلاح للاستغلال المتواصل منذ مئات من السنين وللأحكام التعسفية الجائرة من قِبَل مستغلّيه وعجزه عن مقاومة هذا الاستغلال يدفعه مرةً أخرى للجوء الى الحجب والخرافة لردّ جور الحكام وتعسفهم ، خاصة وأنه كثيراً ما يعجز عن الوصول الى تفسير واقعي لما يصيبه من مصائب . وما ينطبق على الفلاح في مصر ينطبق على الفلاحين في البلاد العربية الأخرى وبدرجات متفاوتة نسبياً . وما زال كتّاب الحجب وغيرهم من المشعوذين يجدون سوقاً رائجة وخاصة في الأحياء الشعبية ليبيعوا الشب والخرزة الزرقاء والرصاصة والدبابيس وغير ذلك من المستلزمات ... وما زالت عادة استعمال اللُّعَب أو العرائس على شكل إنسان يمثل الحاسد تخرق عينيهـا بدبوس ثم يلقى بهـا في النار لإزالة الحسد ، منتشرة في كثير من الأوساط في العالم العربي .

وفي الريف خصوصاً ، تحرص الأمهات على أن يتركن الأطفال بقذارتهم حتى لا يصاب الطفل بعين حاسدة. أو يطلق على الطفل اسم منفّر أو سخيف أو يدل على صفة لا يتمنونها لأنفسهم مثل : شحادة ، وشحّاد ، كإجراء وقائي ضد الحسد . وكذلك تطلعاً الى مباركة السماء ، تكثر الأسماء التي تحمل صفات الخير والبركة مثل : مبروكة ، مباركة ، بركات ، ومثل هذا الشعور لا يقتصر فقط على البسطاء من الفلاحين ، بل إن الحكومة المصرية بقضها وقضيضها ، كما يقول أهل الأدب، أطلقت أسماء: مبروكة، وأم الخير، على حقول البترول التي اكتشفت في السنوات الماضية . ويشير هذا الى أن الخوف من الحسد ، واستمطار البركات أمر متغلغل في صميم النفسية العربية ويصل الى أعلى المستويات في مؤسسات دولها .

ولا يقتصر الأمر على الفلاحين في الريف بل إن الخوف من العين الشريرة ما زال أيضاً منتشراً بين عدد كبير من سكان المدن وخاصة الشرائح الدنيا والمتوسطة من الهرم الاجتماعي . واعتقاد هؤلاء بالحسد وتأثير العين متعمق في نفوسهم بدرجة كبيرة ، حتى ولو لم يُظهروا خوفهم من العين الحاسدة بشكل صريح وبدائي ، ويحاولون درأه بالتمائم والأحجبة ، وناب الذيب

والشبة والخرزة الزرقـــاء كما في الريف . ويمثل الكف الذهبي والماشاء الله الذهبية والمصحف الصغير المذهّب درجات أعلى على السلم الطبقي لتعبّر عن هذا الاعتقاد الدفين .

وفي دراسته التفصيلية عن المجتمع الليبي يتناول الدكتور عبدالجليل الطاهر اعتقاد المجتمع في ليبيا خاصة وفي شمال افريقيا عموماً[1] بالخرافات (وإن كان يلتزم بموقف حيادي تجاهها بحيث لا يصفها بالخرافة) مثل البركة والأولياء والحسد ، يؤكد على خوف المجتمع من العين الشريرة واعتقـاده بأضرارها وشرورها الى الدرجة التي ترك هذا الاعتقاد طابعه على الحيـاة الاجتماعية . وفي هذا يقول :

والخلاصة فإن الاعتقاد بالآثار السيئة المشؤومة الـتي تتدفق من العيون الشريرة قـد تركت طابعاً واضحاً في تقاليد الناس وعاداتهم وطراز عماراتهم وفي كل مـا يستعملونه من أدوات وأواني وصحون فخار – كما أن العرب والبربر أثروا بدورهم في أوربا – فهم يتوسلون بمختلف الوسائل ليتوقوا الخطر القـادم من العيون الشريرة بالرسم والتصوير .... اعتقاداً بقدرة هذه الموضوعات السحرية الخارقة على طرد الأرواح الشريرة والأمراض والنحس والشؤم ...[2]

ورغم أن الاعتقاد بالعين الشريرة تعود أصوله الى آلاف السنين ، أي في المرحلة البدائية لحياة الإنسان ، كما سبق أن أشرنا ، إلا أن المحدّثين المسلمين قد عززوا من هـذا الاعتقاد سواء بروايتهم للأحاديث أو الأفعال التي يقال بأن النبي قام بها أو بتفسيرهم لها . فقد جـاء في البخاري عن زينب ابنة أبي سَلمَة عن أم سلمة ... أن :

النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سَفْعَةٌ فقـال :

---

(١) ينطبق هذا في رأينا من حيث جوهر مفهوم الخرافات على معظم المناطق العربية .

(٢) د. عبد الجليل الطاهر ، المجتمع الليبي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٩ ، ص ١٩٠–٢٠٩ .

استَرقوا لها فإن بها النظرة [1] .

وقد جاء في شرح الحديث السابق للكرماني أن :

كلمة السَفعَة الصفرة والشحوب في الوجه .

قال الخطابي : أصل السفع الأخذ بالناصية . يريد أن بها مساس الجن ... والنظرة يريد بها العين . وقال الخطابي : الإصابة بالعين حق وأن لها تأثيراً في النفوس والطباع إبطالاً لقول من يزعم من أصحاب الطبيعة أنه لا شيء إلا ما تدركه الحواس وما عداها فلا حقيقة له. قال: والرقية التي أمر بها رسول الله ﷺ هي ما يكون بقوارع القرآن وبما فيه ذكر الله تعالى على ألسن الأبرار من الخلق الطاهرة النفوس ، وهو الطب الروحاني وعليه كان معظم الأمر في الزمان المتقدم الصالح أهله ...[2]

وهكذا وفي تفسيرهم لحديث واحد أكد المفسرون إقرار النبي (حسب قولهم) للإصابة بمس الجن والعين الشريرة والرقي والطب الروحاني .

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا أن العين الشريرة في البلاد العربية قد امتد تأثيرها حسب اعتقاد الجماهير ليشمل الأدوات المصنّعة والمستوردة من الخارج. فكثيراً ما نشاهد السيارة «المرسيدس» الفارهة وقد كتب عليها «عين الحسود فيها عود » أو سلسلة من الخرز الأزرق مع كف وما شاء الله معلقة أمام عيني السائق ، أو خلفه . وكذلك سيارات النقل الضخمة أو الحافلات ، حيث ترسم عليها العيون وتكتب عليها العبارات المأثورة ضد الحسد مثل : « عين الحاسد تبلى بالعمى » ، « الحسود لا يسود » ، والآيات القرآنية التي لها علاقة بهذا المعنى .

إن المتتبع لتفاصيل السلوك الاجتماعي على مستوى الفرد ومستوى المؤسسات ، يجد الأمثلة العديدة التي توحي بهذا الخوف المستمر الكامن في

---

(١) البخاري ، الجزء ٢١ ، « باب الرقى بالقرآن والمعوذات » ص ٢٣ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

النفس العربية ، الخوف من الحسد واللجوء الى منعه بكل الوسائل . ومع أنه من الصعب أحياناً أن نقرر بثقة فيما اذا كان سلوك ما يرجع الى اعتقاد خرافي لدى الفرد أو أنه انسياق وراء موجة اجتماعية ، أو أنه نوع من التديّن غير المبرر إلا أننا لا نتعدى الحقيقة حين نرجع هـــذه السلوكيات الى مزيج من العناصر التي ذكرناها .

فعلى سبيل المثال تعاقدت حكومة جمهورية مصر على شراء خمسة طائرات مدنية من الاتحاد السوفياتي. وكان موعد تسلم هذه الطائرات هو بين أواخر عام ١٩٧٣ وأوائل عام ١٩٧٤ . وعند وصول الدفعة الأولى من الطائرات الى مصر نشرت الصحف والمجلات المصرية أنبـــاء الاحتفال بتسلم الطائرات وصوراً لوزير الطيران المدني المهندس طيّار أحمد نوح وهو يضع مصحفاً في قمرة القيادة للطائرة . وكان عنوان الصورة في مجـلة آخر ساعة القاهرية : « العلم والإيمان »[1] .

وبغض النظر (مؤقتاً) عمـا يوحيه هذا العنوان من واقع غير « علمي » – رغم أن المجلة لم تكن تهدف الى ذلك ، بل كانت تردد شعاراً رفعته الحكومة بإقامة دولة العلم والإيمان – وهو أننـــا نستورد العلم من الخارج ، ونصنع الإيمان في بلادنا[2]، بغض النظر عن هذا، إلا أن وزير الطيران المدني، في موقفه هذا ، لا يختلف كثيراً عن الإنسان العادي البسيط أو غير البسيط الذي يعلّق مصحفاً على سيارته أو أي شيء من ممتلكاته خوفـاً من الحسد وإبعاداً للشر والأعين الشريرة . ومع أنه من الصعب أن نؤكد فيما اذا كان الوزير فعلاً قد قام بوضع القرآن منعاً للحسد (إذ لم تنشر الصحف عنه ذلك من قبل) أو أن العمل كان مجرد مجاملة سياسية للموجة الدينية التي تمثلهـــا الحكومة، إلا إننا نعتقد أن لجوءه لهذا النوع من المجاملة يعكس إيماناً داخلياً

---

(١) آخر ساعة ، القاهرة ، ١٩٧٣/١٢/٢٦ ، ص ١٨ .

(٢) تعبيراً عن هذا الواقع نشرت مجلة روز اليوسف في أحد أعدادها في ابريل سنة ١٩٧٤ رسماً كاريكاتورياً لاثنين من الفلاحين البسطاء يجلسان تحت شجرة في الريف بملابسهما المتواضعة، ويقول أحدهما للآخر: لدينا الإيمان والحمد لله ولا ينقصنا سوى العلم والتكنولوجيا.

من نوع ما بمثل هذه الوسائل للمحافظة على سلامة الطائرة واستجلاباً للبركة . والأهم من هذا أن الجماهير ستفسر عمله على أنه متمماً للحسد والعين الشريرة ، وبالتالي يتعمق خوف هذه الجماهير ويزداد اعتقادها بمثل هذه الخرافات .

* * *

رغم الظروف المادية والتراثية عبر التاريخ العربي والتي شكلت مفهوم الحسد وعمّقته في النفسية العربية ، إلا أن لهذا المفهوم دوراً كبيراً في التأثير على العقلية العربية من حيث أن إعزاء الحدث الى الحسد يقدم تفسيراً خرافياً وسهلاً لا يحتاج الى البحث والاستقصاء عن الأسباب الحقيقية . فيكفي أن يقال بأن « عين أصابته » حتى يتوهم العقل العربي وكأنه عرف السبب. وهذا يجر العقلية العربية دائماً الىساحة السذاجة والخرافة والكُسل. ولا يندر أن نجد مثل هذا التفسير بين فئات المتعلمين من الشرائح المتوسطة في المجتمع .

لقد فشل الطبيب اسماعيل في قصة قنديل أم هاشم ليحيى حقي في عملية جراحية لابنة عمه فاطمة ، رغم أنه أجرى مثل تلك العملية بنجاح عدة مرات . وأوحى الينا الكاتب بأن ذلك الفشل كان سببه ذهاب « بركة » أم هاشم وعدم استعمال الطبيب المعالج لزيت قنديلها المبارك [١] . وفي نفس الوقت ، وعلى سبيل المقارنة ، فإن طبيباً مشهوراً في جراحة القلب ويشغل رتبة لواء في جيش عربي حين فشل في إحدى عملياته بعد أن أجرى عدداً من العمليات الناجحة ، لم يجد تفسيراً سوى أن أحداً قد حسده وقال قولته المشهورة أمام مساعديه من أطباء وممرضين : « لازم حدّ ضربنا رِمْش » . فكلا التفسيرين ، كما نرى ، خرافيين ، أراحا صاحبيهما من عناء البحث عن الأسباب الحقيقية للفشل .

ويساهم الزجّالون والمؤلفون والمطربون والإذاعات العربية عامة في تأكيد دور الحسد حتى في المسائل العاطفية إن لم نقل خاصة في المسائل العاطفية .

---

(١) يحيى حقي ، قنديل أم هاشم ، ص ٥٦ .

فالحبيب يخاف على حبيبته من الحسد . وهو إذ يخاف ، لا يخاف على شخصها بقدر خوفه على العلاقـة بينهما من أن تفسـد ، وبذلك يفقد تلك الحبيبة التي بالكاد قد وجدها في المجتمع العربي المقفل المكبوت. والحبيبة تخشى على حبيبها من عين لئيمة « تضربه رمش » وبذلك تنهار آمالها بزواج من الصعب أن تحصل عليـه . ولا يفوت أسبوع دون أن يصحو المواطن العربي على صوت مطرب يخبره بلوعة :

حسدوني العوازل بحبك يا وله ...

أو يعود من عمله ليسمع مغن آخر يقول له :

عين الحسود فيها عود يا حلاوه ...

أو يذهب الى فراشه لينام على قائل آخر :

يا حاسدين الناس مالكم ومال الناس ...(١)

وهكذا من خلال طبيعة الحياة اليومية غير المستقرة أو المضمونة ، ومن خلال الخوف على الحاضر والمستقبل وتوقـع الشر من الآخرين والترديد المستمر لتأثير الحسـد والعين الشريرة ، ينشأ الإنسان العربي ومثل هـذه الاعتقادات جزء لا يتجزأ من كيانه .

---

(١) رغم أن الاستشهاد بالأغاني قـد يبدو للوهلة الأولى بعيداً عن « الرصانة » العلمية التي يتطلبها مثل هذا البحث إلا أن التأثير النفسي على مستوى الفرد أو المجتمع لمثل هـذه الأغاني بترسيخ فكرة الحسد والعين الشريرة وبالتالي التأكيد على التصور الخرافي لا يمكن إهماله.

٣ – أعمال السحر

ما تزال أعداد غفيرة من العاملين بالسحر ينتشرون في معظم القرى والمدن العربيـــة . يقوم الواحد منهم بمختلف الأعمال التي يتطلبها التفكير الخرافي لمواجهة مشاكل الحيـــاة . فمن كتابة الحجب لمنع الحسد الى حجب المحبة والكراهية ، الى إبطال مفعول سحر نازل بشخص مـــا ، الى غير ذلك من أعمال .

ويتطلب عمل السحر معدّات ومواد خاصة ، غالباً ما تحمل أسماء غريبة أو مواد ليست في متناول الناس في حياتهم اليومية ، مثل « قلب هدهد » أو « البخور » أو « الزارة » أو « الزنزارة » أو « لبان ذكر » ، وغير ذلك .

ويقدم لنا طاهر لاشين في روايته حواء بلا آدم وصفاً ممتعاً ودقيقاً لدكان الشيخ مصطفى الإختصاصي بأعمال السحر في الثلث الأول من هـذا القرن . ويلقي طاهر لاشين ضوءاً كاشفاً على ما تحتويه هذه الدكان من عناصر ومعدات ومستلزمات السحر :

كان الحاج إمام قـــد ألقى التحية على صاحب الدكان مصطفى وعندما لم يسمع جواباً مد عنقه فنفذت عمامته من فرجة تباعد ما بين أنيـاب الأفعى يميناً ، ومخالب الضبع شمالاً ، وظهر السلحفاة من أسفل ، وأظافر الوطواط من أعلى . فلم يفلح جهد عينه اليسرى في اختراق العتمة المتكاثفة . أما العين المجاورة فلم يكن لها جهد تبذله . وأنقذت أذناه الموقف بأن سمع همهمة فهمها فيقال « حرما » . وأخرج عمامته . ولولا احتكاك كتفه « بدم الأخوين » احتكاكاً أدركته منه

ومضة هلع لقلنا أنه خرج الى النور وجلس على مقعد في سلام[1].

ويستطرد طاهر لاشين معلقاً بأسلوبه الساخر:

ولكن الذكاء غير العادي مطلوب لمعرفة كنه ذلك المكان الذي كان فيه مصطفى [يصلي]! أمغارة هي لاذ بها يقيم صلاته؟ وساحر هو قد هيمن على الزواحف والضواري فاتخذ منها حراساً وحجاباً؟...

وإذا أضفنا ذلك الى أن خرزاً مختلف الألوان، وأصدافاً متجددة اللمعان كانت تتدلى حول الفرجة السالفة لذكر، وأن ستاراً من عشب كشعر العجوز كان منتشر النوائب، يبين وتختفي وراء ثمار عجيبة لها أسماء أعجب، يعلو هذا وهذا سمكة هائلة اتخذت من الهواء محيطاً تسبح فيه... اذا زدنا ذلك زدنا الذكاء غير العادي تشككاً وارتباكاً[2].

ثم يوضح طاهر لاشين سر ذلك المكان فيقول:

على أن الأمر أهون من أن تدوم له الظنون طويلاً. فما دمُ الأخوين إلا حجر ألقيت عليه هذه التهمة لمجرد احمرار لونه. وما هذا إلا محل تجارة «الشيخ مصطفى التونسي» لبيع كافة أدوات السحر. مما يجمع القلوب ويفرقها، ويقطع الرزق ويوصله، ويثبت العقول ويشتتها حسب الطلب. هذا وإن مما على بابه من أعشاب وثمار ما تبيض له صحائف «الفارماكوبيا»[3].

فحين تصاب حواء بشعور شديد بالانقباض واليأس، تلجأ جدتها التي تجهل أسباب تلك الحالة النفسية التي تعاني منها حواء الى الشيخ مصطفى فيعطيها أو على الأصح يبيعها ما تملأ به البيت من حجب وخلافه. وحين تفشل مجهوداتها السحرية، لا تفقد ثقتها بالسحر ومفعوله بل تملل الفشل بأن المسألة هي العثور على نوع السحر الصحيح واستعماله.

---

(١) طاهر لاشين، حواء بلا آدم، ص ١٧–١٨.

(٢) نفس المصدر، ص ١٨–١٩.

(٣) نفس المصدر، ص ١٩.

وتذهب الجدة الى أولياء الله – أحياء وأمواتاً – تلثم أعتابهم ، وتبلل ترابهم بدموعها ثم تجعل منـــه على رأسها . وتقدّم النذور ، وتبذل الطعام لمن على أبوابهم من مساكين ويتم..ولا تسألهم إلا شفاعة لحفيدتها !..

وتغادرهم الى المنجّمين رجالاً ونساء – تطلب اليهم تفسير حلمها... فيكتبون لها التمائم ، ويلقنونها التعاويذ ، فتدس التمائم هنا أو تعلقها هناك ، وتكرر التعاويذ ليلاً ونهاراً .. ورضيت حواء أن تحمل التمائم ، وأن تتلقن التعاويذ ، احترامــــاً لجدتها ، واحتقاراً للحقائق [١] .

وتستنتج الجدة أن حفيدتها حواء قد تملكتها روح شريرة وبمساعدة الشيخ مصطفى وأحد الجيران المسنين تحـــاول إخراج تلك الروح عن طريق الشعوذة والسحر [٢].

ويعطينا توفيق الحكيم صورة حية في روايته عودة الروح لأهمية الدور الذي تلعبه العقاقير السحرية والأحجبة والطلاسم في حيـاة المرأة في الطبقة الدنيا ، وبعض شرائح الطبقة الوسطى . « فزنـّوبة » حين تفشل في الحصول « على اللي في بالهـــا » بعد محاولتها لرؤية المستقبل في ورق اللعب وحسب الصوَر التي تراها في أحلامها تلجأ الى ضريح « الشيخ سمحان » لحل هـــذه المشكلة . وبعد أن تتم الصفقة بين زوجة الشيخ وزنوبــة – فتدفع الأخيرة جنيهاً للمقابلة – تتساءل زنوبة اذا كان بالإمكان حصولها على حجاب مكتوب، فترد عليها المرأة بحماس بالإيجاب :

أمال يا اختي أمال، .. حجاب وبخور، وتبييت أثر .. أنا عارفه بخورك متخافيش : فسوخ وشبه وجنزاره وعتزروت ومر فـــاره ورمش عين الجان !!.. لازم لك حجاب تلبسيه دايمـــاً ولا تقلعيه

(١) طاهر لاشين ، حواء بلا آدم ، ص ١٣٧–١٣٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٨–١٣٩ .

أبداً . حاكم انت اسم الله سلطاني ، دقتك خفيفه .. اصبري كمان لما اسألك الشيخ[1].

وزيادة في إيجاد النور وإيهام زنوبة الساذجة الجاهلة بفعالية مثل هـذه الزيارة تقرب المرأة فمها من باب الضريح مستشيرة بطريقتها الخاصة الشيخ سمحان في أمر زنوبة ، ثم تلتفت اليها لتقول :

إن الشيخ سمحان يقول : عايز أثر من شعره !! بس على شرط يكون من صحن الراس عند مفرق الشعر !...

وعندما تستفسر زنوبة بخجل عن شعر مَن ، تجيبها المرأة :

« شعر اللي في بالك » .

ثم يطلب الشيخ قلب « هدهد يتيم » وتضيف المرأة زوجـة الشيخ قائلة :

الحجاب المعمول من دول عمره ما يخيب . الشيخ قـال من تحت وهو أعـلم بالسر والكرامة ، كل من كان راجل واللا حرمة لبس دى الحجاب ، يصبح يلقى اللي في باله تحت رجليه ....[2]

ورغم أن زنوبة تعيش مع إخوتهـا وأولاد عمها المتعلمين والذين يشكلون عناصر من فئة الموظفين يمكن وضعهم في النصف الأدنى من الطبقة المتوسطة ، فأحدهم ضابط في الجيش والآخر مدرس وثالث طالب في كليـة الهندسة ، ومع هـذا فإن أثراً من هذا التعليم الذي حصلوا عليه لم ينعكس على زنوبة ليغيّر من تفكيرها ومعتقداتها . لذلك فهي ترسل فعلاً « الولد مبروك» خادم العائلة ليبحث عن « هدهد يتيم » .

ويبدو أن استعمال الهدهد في أعمـال السحر والشعوذة واسع الانتشار ولأغراض شتى ، فهو ليس فقط لجلب المحبة حتى تتزوج زنوبة توفيق الحكيم الرجلَ الذي تريد . بل إن استخدامه لضمان السعادة الزوجية رائج الانتشار

---

(١) توفيق الحكيم ، عودة الروح ، ص ٧١ – ٧٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

حتى في السبعينات من هذا القرن . فعلى سبيل المثال نجد في مدينة « قنا » بمصر نموذجاً لإيمان الجماهير بالتمائم المتهدية حيث .

يبيع الدجالون لكل عروس تميمة تضمن لها سعادتها الزوجية . وهـذه التميمة « هدهد » يصطاده رجل موفق مع زوجته ... ثم يعطيه لزوجته كي تذبحه ثم تفرغ أحشاءه وتضع بدلاً منها سبعة أنواع من الحبوب . ثم تجففه ، ثم تأخذه العروس وتضعه تحت عتبة بيتها[1] .

ولا يقتصر الأمر على « قنا » . فالحال كذلك في الإسكندرية حيث تجد الصورة ذاتها للساحر التقليدي الذي استفاد من منجزات العصر :

على بساط أخضر في أحد بيوت محرم بك جلست اليوم الحاجة « الماظه » كعادتها يحيط بها زحام من النساء والرجال والشبان والشابات وحولها كنز من « المتنوعات » الغريبة : أحجبة ، وبخور ، ومدفأة ، وأطباق صغيرة ، وأوراق ، وأقلام ، وحبر أحمر ، وكوتشينة زرقاء ، وحنظلة جافة ، ومرارة حيوان ، وجنين ميت داخل برطمان ... زبائن الحاجة من مستويات اجتماعية مختلفة ، ومن أعمار تتراوح بين الخمسين والخامسة عشر ، وكان لكل منهم غرض مختلف ...[2]

والواقع أن الإيمان بالسحر وبأعمال السحرة والمشعوذين أوسع انتشاراً مما قد يتصور المرء ، وأن جزءاً من المتعلمين يؤمنون بأعمال السحر ، أو على الأقل لا يستطيعون أن يستخدموا علومهم لإقناع أنفسهم بخرافية تلك الأعمال . وتساهم المؤسسات الرسمية بطريق غير مباشر في المحافظة على ممارسات السحر ومشتقاته عن طريق الكتب التي تنتشر في كل بلد عربي تحمل العناوين المثيرة عن كيفية استحضار الجان والوصول الى الأهداف

(١) روز اليوسف ، عدد ٢١٩٨ ، ص ٢٨ .
(٢) نفس المصدر ، عدد ٢١٩٢ ، ص ٢٢ .

المتعددة عن طريق الوصفات التي يوردها الكتاب بالتفصيل الى غير مـا هو معروف .

وبالرغم من أن البلاد العربية جميعها، ربما باستثناء لبنان، لا تسمح بتداول أي كتاب إلا بعد مروره على الرقابة، وبعد موافقة الرقيب على مادة الكتاب جملة وتفصيلاً، وفي كثير من الأحيان يكون الرقيب دقيقاً في عمله الى الدرجة التي يطالب فيها بحذف عبارة أو طمس صورة يتخيل أنهـا « لا تتفق مع المصلحة العامة » باستعمال التعبير الرسمي، ولا توافق السلطة التي يمثلها الرقيب بصورة أصح ، وبرغم كل هذا ، فإن كتب السحر تنتشر في عرض البـلاد العربية وطولها، بدون اعتراض الرقيب على أي منها جملة وتفصيلاً . ومدلول ذلك أن مثل هذه المواد لا تعتبرها السلطة خطراً عليهـا ، على اعتبار أنها كتب غير سياسية أو ايديولوجية ، وما دامت كذلك فليس هناك من ضرر على السلطة من انتشارها . هذا إذا لم نقل أن الرقيب الذكي جـداً والذي يريد أن يحقق أكبر مصلحة لسيده ، لا بد وأن يوافق تماماً على هذا النوع من الكتب أو ربما يشجعه اذا استطاع إن لم يكن هو نفسه مؤمناً بمـا جاء فيها . فإن تغرق الجماهير بمثل هذه الكتب هو خير للسلطة وأبقى .

بالإضافة الى مـا تقدم ، تجدر الملاحظة ، أن جماهير الفلاحين والشرائح الدنيـا في المدينة يتعرض أفرادها في كثير من الأحيان الى أخطار حقيقية نتيجة للوصفات التي يقوم بها السحرة والمشعوذون والذين يحاولون أن يمارسوا نوعاً من الطب الخاص بهم والذي يضطر الفقراء الى قبوله ، إما لغياب الطب الحقيقي وإما بسبب الفقر وإما بتصديق الخرافات التي هي جزء من التراث العام للمجتمع .

كذلك يمارس رجال الدين وشيوخ الطرق وأئمة المساجد في القرى وخدم الأضرحة وقبور الأولياء نوعاً من الطب سواء بالممارسة المباشرة أو بتكليف المريض القيام بها أو إقناعه بفائدتها. وهذا النوع من الطب وإن كان لا يقوم على أساس من السحر المباشر إلا أنه في نظر العلم لا يقدم أي خدمات طبية حقيقية . والمقصود هنا هو التطبيب بالآيات والأدعية وأسماء الله وما شابهها

ورغم أن كثيراً من الفقهاء المسلمين لم يستطيعوا القطع بهذه المسألة ونعني بها فيما اذا كانت الآيات القرآنية شافية للأمراض ، إلا أن جمهرتهم لم يستطيعوا نفي فائدتها وإن تردد القليل منهم في الاقتناع بذلك . ومن البديهي أننـا لا نحتاج هنا لإثبات أهمية العلاج حسب القواعد الطبية العلمية، إلا أن فكرة التداوي بالقرآن ما زالت مسيطرة على عقول جماهير القرى في معظم البلدان العربية ، يلجأون اليها بسبب الجهل من ناحية وانعدام الخدمات الطبية أو القدرة على شرائها من ناحية أخرى ولما توحيه اليهم الآيات من أن الله سوف يستجيب لدعائهم .

والمكاتب العربية مليئة بالكتب التي تتخصص في هـذا النوع من العلاج عن طريق الدعاء أو كتابة الآيات . ونذكر هنا واحداً منها على سبيل المثال صدرت طبعته الثانية في عام ١٩٧٠ تحت عنوان السيدة نفيسة لحمد شاهين حمزة . وفيه يخصص الكاتب فصلاً بعنوان « التداوي بالقرآن » حيث يقدم الأدلة حسب رأيه على صحة دعواه مؤكداً أنه لا يقصد الشفاء المعنوي ،

> كالشفاء من أمراض الجهل والغفلة وظلمة النفس وما الى ذلك . لكن الوقائع الثابتة ... تدل على أنه أيضاً الشفاء من الأمراض الحسّية . (ص ١٥٧) .

ويستند مؤلف هـذا الكتاب « عقلانياً » في تعليله للتداوي بالقرآن - بالإضافة إلى الأحاديث النبوية في الصحيحين ومسند الإمام أحمد وغيرهم - الى حجة طريفة وهي أنه قد ورد في القرآن

> لو أنزلنا هـذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

وإذ ذاك يتساءل المؤلف :

> أيتصدع الجبل ولا يتصدع داء في الإنسان اذا سلطت عليه أنوار هذا القرآن ؟ (ص ١٥٧) .

ثم يقدم وصفات خاصة يقول بأنها تنفع علاجاً لأمراض معينة وذلك نقلا عن السيدة نفيسة ، فعلى سبيل المثال :

شكا اليهـــا (الى السيدة نفيسة) أحدهم إصـــابة ابنته بانزلاق غضروفي . فأشارت عليـه بمزاولة تمرينات رياضية طبقاً لمـــا يشير بـــه الإخصائيون [1] . ويضيـف الى ذلـك ما يلي :

يستحضر كمية من زيت الزيتون ، ويقرأ عليهـا وهو متوضىء ، وطرف سبابته اليمنى مغموس في الزيت ، ما يلي بعد البسملة :

(أ) الفاتحة زيادة في شرف رسول الله ﷺ مرة واحدة .

(ب) الناس ٣ مرات .

(جـ) الفلق ٣ مرات .

(د) الإخلاص ١١ مرة .

(هـ) يس مرة واحدة .

ثم يدهن موضع الألم والمرض بهذا الزيت. ويكون الداهن متوضئاً وهو يقول أثناء الدهن :

(بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله الشـافي من كل داء اللهم بحق ما تلوته من القرآن الكريم وبجـــاه رسولك عليه الصلاة والسلام اجعل في هذا الدهان شفاء لهذه المريضة . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم) [2].

---

(١) لدينا شك كبير فيا اذا كان « الانزلاق الغضروفي » معروفـــاً قبل اثني عشر قرناً (سنة ١٩٣ هـ) . ولدينا شك أكبر فيا اذا كان في ذلك الوقت اخصائيون في التمارين الرياضية للعلاج الطبيعي . ويبدو أن المؤلف قد حاول الاجتهاد على طريقته فأضاف مـــا سمعه عن علاج الانزلاق الغضروفي الى زيت الزيتون والفاتحة .

(٢) محمد شاهين حمزة ، السيدة نفيسة ، ص ١٦٦ — ١٦٧ .

إن ما يهمنا أن نؤكده في هــذا المجال ، أن جماهير الفلاحين في الريف وكذلك فقراء المدن يدفعهم واقعهم الطبقي الى تصديق مثل هذه الإدّعاءات، مما يصرف هذه الجماهير عن الطريق الصحيح لعلاج الأمراض التي تعاني منها . ويبدو أن السلطة المسؤولة عـن مراقبة المطبوعات لا ترى أن مثل هذه الوصفات – والتي كثيراً ما تؤدي الى تفاقم المرض إمـا لإفسادها الجسم أو لتأخير العلاج – تتناقض مع برامج التوعية الصحية بل وتفسدها ، هـذه البرامج التي تنفق عليها الدولة مبالغ مالية لا يستهان بها .

٤ – تحضير الأرواح

لعل تحضير الأرواح واحد من أهم الممارسات الخرافية التي تنتشر في الوطن العربي مكتسبة أهميتها وخطورتها في أنها متغلغلة بنسبة ملحوظة في الشرائح العليا من المجتمع، بحيث تشمل أعداداً من المتعلمين من أساتذة ومحامين وأطباء وسياسيين وعسكريين في أعلى المناصب (١) .

وتجد خرافة تحضير الأرواح عموماً قبولاً يدعو الى الدهشة والتأمل من حيث الأسباب الكامنة وراء الاعتقاد بهذا النوع من الممارسات الخرافية . ويمكن إرجاع أصل فكرة تحضير الأرواح الى مفهوم الإنسان القديم عن الحياة والموت والانتقال الى العالم الآخر وافتراضه في كثير من الحضارات والديانات القديمة كما في مصر الفرعونية والهند وفارس ، أن روح الإنسان تفارقه حين يموت وتنتقل الى عالم علوي في الملكوت اذا كان من الأخيار أو الى عالم سفلي دنيء اذا كان من الأشرار . ولما كانت فكرة الموت غامضة بالنسبة لتصور الإنسان ولم يكن قادراً على تفسير ظاهرة الموت ، فقد ولّد خياله ومعتقداته الدينية مفاهيم أقرب التصاقاً بنطاق تصوره ، فافترض بأن روح الميت يمكنها التنقل ويمكنها العودة الى مقرها ، وأنه بالإمكان محادثة الميت عن طريق محادثة روحه . وبعبارة أخرى ، إن عدم رضى الإنسان القديم عن الموت وعدم تصديقه لحكمة هذه النهاية وعدم اقتناعه بمبررات الموت

---

(١) يقول م. بيرجر في كتابه الإسلام في مصر في هذه الأيام أنه « في العشرين سنة الماضية انتعشت (في مصر) حركة الاتصال بالموتى وانتشرت مؤخراً لتشمل العديد من المتعلمين والمثقفين والذين أخذوا بممارستها جدياً كتقليد صوفي أو كبديل للصوفية » .

M. Berger, <u>Islam im Egypt Today</u>, Cambridge, 1970, p. 73.

وفي نفس الوقت ارتباطه الذهني والعاطفي بالشخص الميت ، دفع بالإنسان الى القفز فوق جدار الموت وخلق نوع من العلاقة الوهمية بين الحاضر والغائب، أو بمعنى آخر، بين الحي والميت، بافتراض أن روح الميت اذا أمكن تحضيرها أو استحضارها – والإمكان كائن لأنها حرة طليقة غير مقيدة بثقل الجسم تسبح في الفضاء اللامتناهي – لاستئناف نوع من العلاقة التي يسعى اليها أو يفتقدها .

وخلال العصور تطور هذا المفهوم وتلوّن حسب تطور الحضارة الإنسانية وبألوان الثقافات والديانات المحلية بحيث لم يعد للروح (روح الموتى) من أهمية بالنسبة للإنسان الحي إلا ما استطاع أهل السحر والشعوذة من أن يدخلوه الى عالمهم ويستفيدوا منه في ترويج أعمالهم .

وإذا نظرنا الى العالم العربي الآن نجد أن تحضير الأرواح غالباً ما يراد به معرفة المستقبل أو السؤال عن أشياء يعتقد السائل أن روح الشخص المتوفى ستكون أقدر على الإجابة عليها . وبذلك تكون ممارسة تحضير الأرواح وجهاً آخر لمحاولة التعرف على المستقبل أو طمأنة الإنسان عن طريق الوهم والإيحاء عن حاضره وقراراته .

ويمكن تفسير ميل الشرائح العليا في المجتمع لتصديق تحضير الأرواح بأنه في الغالب لا يترتب على مثل هذا التصديق إجراءات خاصة من قبل المصدّق. بمعنى أنها تمثل بالنسبة له محاولة للتعرف على المستقبل وهو ميال للتصديق بحكم الرصيد الخرافي الذي يمتلكه ولأن معرفة المستقبل واحدة من المسائل التي تشغل ذهن الإنسان ، خاصة في المناطق التي تفتقر الى انتظام الحياة ووضوح خطوات المستقبل بشكل عام .

ولقد انتشرت موجة تحضير الأرواح في مصر خاصة عن طريق « السلة » وغيرها من الوسائل خلال العشرين سنة الماضية . ولقيت هذه الموجة رواجاً في الأوساط الشعبية لدى الشرائح الاجتماعية غير المتعلمة ، وكذلك المتعلمة ، والشخصيات القيادية ، بحيث نجد مثل هذه الشخصيات تمارس هذه الأعمال

الخرافية ، وأحياناً بشكل سافر ، مما يؤكد أنه بغض النظر عن مستويات الألقاب العلمية والسياسية فإن العقلية العربية لديها الاستعداد للإنغماس في بحر الممارسات الخرافية لأسباب موضوعية : اجتماعيـــة وسياسية واقتصادية ، ولأسباب ثقافية ، جعلت سرعة ارتداد العقل العربي الى الخلف دائماً أكبر من سرعة انطلاقه الى الأمام .

بالإضافة الى محترفي الشعوذة والدجل من « محضّري الأرواح » و « ضاربي المندل » المنتشرين بين الأضرحة والزوايا ، فقـــد ساهم الكاتب الصحفي المصري أنيس منصور وجريدة أخبار اليوم القاهرية مساهمة فعّالة في ترويج الأفكار الخرافية المتعلقة بالأشباح والعفاريت وتحضير الأرواح سواء بالمقالات التي يكتبها في الجريدة المذكورة أو في كتبه حول هـذا الموضوع[1] . وهو يؤكد للقـارىء في كتاباته أن الإيمان بالشياطين والعفاريت والأشباح مسألة اتفق عليهـا علماء الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بالإضافة الى غيرهم من علماء العالم[2] . ولا يذهب أبعد من ذلك في البرهنة على صحة دعواه سوى نسبتها الى « علماء » مجهولين .

ولقد ساعد الاستعداد الذهني لقبول الخرافة لدى الجماهير على « تلقف » تكتيك تحضير الأرواح « بالسلّة » حين بعث أنيس منصور الى جريدة أخبار اليوم بتقريره عن انتشار تحضير الأرواح في أندونيسيا باستعمال ذلك التكتيك . وقال مرغّباً القارىء :

وفي استطاعتك أن تجربها في بيتك .. فلم أرَ أسهل ولا أعجب منها في حياتي ..[3]

---

(١) إقرأ على سبيل المثال : أرواح وأشباح ، أنيس منصور، دار الشروق ، بيروت ، يسقط الحائط الرابع
حول العالم في ٢٠٠ يوم ، دار الكاتب العربي، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، الطبعة الرابعة .

(٢) أنيس منصور ، جريدة أخبار اليوم ، القاهرة ، ٧٤/٦/٢٢ ، ص ١٢ .

(٣) أنيس منصور ، حول العالم في ٢٠٠ يوم ، ص ٢٦٩ .

وهو يؤكد أن الناس في اندونيسيا يستعملون تحضير الأرواح ويستشيرونها في حياتهم بكل تفاصيلها في الصحة والمرض والدين والسفر وكل شيء .

وبعد ذلك يصف تجارب تحضير الأرواح كما شهدها هو مع أعضاء السلك السياسي المصري في العاصمة الأندونيسية . وفي السفارة هناك حضر جلسة تحضير الأرواح

السفير .. والملحق العسكري والملحق الصحفي والملحق الثقافي وزوجاتهم [1] .

وفي جلسة أخرى كان الذي يمارس عملية تحضير الأرواح أحد أصدقاء السفارة وهو

استاذ جامعي تخرّج في جامعات القاهرة وعاش في القاهرة عشرين عاماً [2] .

ثم يصف بعد ذلك القارىء العربي كيفية تحضير الأرواح بما في ذلك الكلمات التي تقال والبخور الذي يحرق . ومن الطريف أنه يدعو القارىء الى ترديد بعض الكلمات الأندونيسية وهي « جالان كوم» والتي يقال أن معناها « الهيكل العظمي » أو « ليس لها معنى » ، أو الى ترديد سورة الفاتحة أو « أي كلام ديني» ، الأمر الذي يبين بوضوح أن لا علاقة بين الروح المزعومة التي ستحضر وبين القدرة الإلهية التي يُفترض أنها ستُحرك الروح، وأن المسألة لا تعدو مجرد إيهام نفسي في جوٍّ معين. غير أن الكاتب لا يشير الى هـذه النقطة بل يؤكد أنه رأى السلة تكتب أرواحاً متعددة منها : حشّاش توفي في باب الشعرية اسمه «محمود صالح» والسيدة روز اليوسف التي «كتبت بلاش لعب عيال» لأن صحفياً لم يكن حاضراً الجلسة ، وروح رجل اسمه « ناصر الدين» (لا يعرّفنا أنيس منصور بناصر الدين هذا إلا أنه عصبي) ثم روح نابليون والسيد درويش وبيتهوفن وشقيقة القبطية [3] .

---

(١) أنيس منصور ، حول العالم في ٢٠٠ يوم ، ص ٢٦٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٦٨-٢٧٠ .

ويقول أنيس منصور :

فعندما ظهرت روح بيتهوفن اعتدلت السلة وراحت ترتجف بجنون ...

وعندما استدعوا روح شفيقة القبطية يؤكدون أن السلة كانت ترقص على واحدة ونص .. أنا شخصياً لم أتبين ذلك بوضوح وإن كنتُ لا أستبعد . (لا يخبرنا الكاتب لماذا لم يستبعد أن ترقص السلة) ...

وسيد درويش عندما حلّ في السلة مالت الى جانب ثم عادت واعتدلت وتساقطت على الجانب الآخر .. وتدلى القلم من السلة كأنه القابة التي توضع في الجوزة .. [1] ويستنتجون من ذلك أنه صحيح أن سيد درويش كان يتعاطى المخدرات . وأن الرجل لم ينكر ذلك عندما استدعوه ! [2]

وهكذا يوحي أنيس منصور بأنه بالإمكان معرفة التاريخ والتحقق من تعاطي المخدرات عن طريق تحضير الأرواح . إن العقليـة التي تصدق أن الأرواح تنبئها بأخبار الماضي وتنقل اليها اعترافات الموتى ليس غريباً عليها (العقلية) أن تصدق بأن الأرواح ستنقل لها أخبار المستقبل وتعطيها معلومات عن موشى ديان كما أعطتها معلومات عن سيد درويش ، وهذا ما رأيناه عملياً في حـادثة تحضير الأرواح للإستشارة العسكرية من طرف الفريق محمد فوزي .

لم يكتف أنيس منصور بترويج « تكنولوجيا الأرواح » بـل ذهب الى

---

(١) لاحظ الشخصيات التي اهتم أعضاء السفارة باستحضار أرواحهـا : حشاش يروي نكاتاً قديمة ، راقصة ، سيد درويش في دور الحشاش أيضاً . أما بيتهوفن فلم يروا فيـه سوى الجنون، وكذلك نابليون أغضب حضوره الأندونيسيين . أما روز اليوسف فلم يستطع حضرو الأرواح الحصول على التسلية المطلوبة منها .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

تقديم «مساهمة نظرية» في علم الأرواح عرضها في كتابه حول العالم في ٢٠٠ يوم (والحائز على جائزة الدولة في مصر) فيقول :

ويظهر أن هذه الحياة أو النفس أو الروح لهـــا وجود حقيقي خارج جسم الإنسان .. ولكن عندما تخرج أو تطرد أو تنطلق من الجسم فإنها تبقى متأثرة بهذا الجسم . فالجسم يشبه الثوب . وإذا كان الثوب مبللاً فسيترك أثره في الروح . وإذا كان من الحرير أو من الشوك أو من النار أو من القلق فإن الروح تبقى بعد الموت كذلك .

وإذا أنت حملت حقيبة ثقيلة لمدة ساعة أو خمس ساعات .. ثم وضعتها على الأرض، فإن ذراعك ستبقى متعبة كأنك لم تضع الحقيبة بعد . وإذا أنت ركبتَ باخرة يومـــاً أو شهراً أو خمسين عاماً متواصلة ، ثم نزلت منهـــا الى الشاطىء فستشعر بعد هبوطك الى الشاطىء أن صوت البحر ما يزال في أذنيك ، وأن الأرض ما تزال تهتز تحتك ..

ويبدو أن هــذا هو الذي يحدث للروح .. فهي تعيش في سجن اسمه الجسم . وكل خلية في هذا السجن عبارة عن قيد، عن سلسلة.. إنها ملايين السلاسل لمئات الألوف من الساعات .. فإذا تم الإفراج عن الروح بالموت ، فسيبقى أثر هذه السلاسل، هذه القيود، وستبقى الروح متأثرة بهذه القيود، بهذه الحياة التي قطعتها فوق سفينة قلقه.. سفينة فيها عشرات الغرائز التي تشبه قطاع الطرق واللصوص ..

يبدو لي هذا ..[1]

ونحن لا نرى هنا ضرورة لمناقشة مثل هذه الأفكار والتنظيرات أو حتى التعليق على مدى جديتها العلمية ، هذا اذا كان الخرافة جدية علمية ..ولكن الملفت النظر في هذا التحليل أو التنظير الذي يقدمه أنيس منصور هو سذاجة التشبيه وبدائية المقارنة والتحليل من ناحيـــة ، وانفصال الكاتب بذهنية

---

(١) أنيس منصور : حول العالم في ٢٠٠ يوم ، ص ٢٦٨ .

وميكانيكية تفكيره عن علوم العصر والتي أخرجت الإنسان منذ زمن بعيد من سجن التشبيهات الطفولية التي كانت خبرة الإنسان التاريخية في مضمار الحضارة والرقي تفرضها عليه . يتجلى هذا الانفصال بعدم تكليف الكاتب نفسه عناء البحث عن أسباب أكثر عقلانية وعلمية ، مستفيداً مما وصل اليه الآخرون من العلماء الجادّين ، باستثناء « علماء » تحضير الأرواح بطبيعة الحال .

بالإضافة الى تحضير الأرواح فقد أعاد أنيس منصور الى ذهن القارىء العربي خيالات وأوهام قصص السحرة واستحضار الجان ولكن هذه المرة عن طريق القرآن والآيات القرآنية . وواضح ما لهذا الأسلوب أو « النطاء » من تأثير في نفوس الجماهير ، الأمر الذي يؤكد ملاحظتنا السابقة وفي أماكن متعددة من هذا البحث . إن المشعوذين والدجالين ومدّعي السحر والكرامات بغض النظر عن مهنهم الرسمية يجدون في القرآن والدين وسيلة ناجحة للترويج الخرافة وتأكيد فاعليتها ، سواء كان ذلك على أيدي الكهنة في الماضي البعيد أو على أيدي رجال الدين والأولياء في القرن التاسع أو الصالحين في القرن التاسع عشر أو الأساتذة الجامعيين والصحفيين في الثلث الأخير من القرن العشرين .

أعاد أنيس منصور وجريدة أخبار اليوم الأسطورة القائلة بأن لكل آية في القرآن خادم يستطيع الإنسان أن يحضره ثم يطلب منه ما يريد . ورأى أنيس منصور تجربة خادم الآيات في بيت أستاذ جامعي أفاد بأنه يجب اختيار بعض الآيات وأن التجربة تحتاج الى ضبط أعصاب أكثر .

أما حضور خادم الآية ، فقد كان بصورة غريبة .. إنه يضرب أي شيء في الغرفة : يزحزح المنضدة أو يضرب الحائط . ولكن لا نرى شيئاً ..

وامسك قطعة من الزجاج الأسود اللون واسأل هذا الخادم أو هذا الجني أية أسئلة . وانظر الى الزجاجة ستجد الكتابة

بلون لامع كأنها عقارب الساعة أو كأنها النيون[1].

ويؤكد أنيس منصور أنه شخصياً رأى ذلك في أكثر من عشرين بيتاً . وهو لا يكتفي بهذا التأكيد بل يذهب الى التعميم والاطلاق التعسفيين فيقول:

ولم أجد بيتاً واحداً لا تحضر فيه الأرواح أو العفاريت أو الجن الملمون (لاحظ صفة « الملمون » للجن والعفاريت) ويكتبون باللغة العربية . الكتابة واضحة جداً ...[2]

وبعد ذلك « وأمام كل أعضاء السفارة العربية » في جاكرتا قال الأستاذ الجامعي محضّر الأرواح وخدام من الجن والعفاريت أنه يستطيع أن يجري التجربة

ويستطيع أن يكسر رجل أي إنسان الآن ، وإنـــه يستطيع أن يكسر رجل أي حيوان بعد جلسة واحدة في غرفته هو[3].

ولا يخبرنا أنيس منصور أو أستاذه الجامعي أو أعضاء السفارة المصرية في جاكرتا ، ما سر تخصص خدم الآيات بكسر الأرجل . وهل هنـاك حكمة روحانية في هذا النوع من القدرة؟ وهل عرض السفير على حكومته استخدام هذه التكنولوجيا لضرب الأعداء والمجرمين وكسر أرجلهم .

لقد سبق وأن تنبّه طاهر لاشين في روايته حواء بلا آدم الى أنّ حـالة الركود الذهني والخمول وخلو الحياة من التحدي والنشاط وانعدام روح الإبداع ؛ كل ذلك كان من الأسباب التي جعلت « الجدة » (جدّة حواء) تلجأ الى السحر والجان للتسلية وقضاء الوقت والشعور بالأهمية . قدّم لنـــا طاهر لاشين هذه الصورة لسيدة مسنّة في الثلاثينات من هـذا القرن . وفي رأينا، وبدون كثير من التجني والمبالغة، أن التحليل الذي قدمه طاهر لاشين يصلح الى حد مــا لتفسير هذه الممارسات الخرافية التي ينغمس فيها أعضاء

---

(١) أنيس منصور ، حول العالم في ٢٠٠ يوم ، ص ٢٧١ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٧٢ .

السفارة التي ذكرها أنيس منصور . ويبدو أنه في بلد مثل أندونيسيا حيث لا يعرف أعضاء السفارة اللغة الأندونيسية أو الهولندية وحيث ليس لديهم اهتمامات خاصة بدراسة المجتمع الأندونيسي سواء من حيث التاريخ أو السياسة أو التركيب الاجتماعي أو الاقتصادي (يدّعم هذا الرأي ندرة الكتب أو الدراسات التي يكتبها الدبلوماسيون العرب عن البلاد التي عملوا فيها) أو النزعات الأدبية أو الفنية ولأن حجم العمل القنصلي أو الديبلوماسي والعسكري قليل الغاية بحيث لا يشغل جزءاً هاماً من وقت أعضاء السفارة . ولأن اختيار السفير لتمثيل بلاده في بلد معيّن لا يكون في كل الأحوال لكفاءته المهنية بل يدخل في ذلك أسباب مثل الإبعاد أو الأقدمية والمكافأة أو التمهيد لمنصب آخر.. الخ . كل هذا يخلق حالة من الركود الذهني والخمول وخلو الحياة من العمل والإبداع والتحدي . فإذا كانت حالة الركود هذه في بلد تشيع فيه الخرافة مثل اندونيسيا فإن الرصيد الخرافي في الذهنية العربية كاف لإعطاء حقنة منشطة في هذا الاتجاه وتصبح إذاك مسألة تحضير الأرواح الشغل الشاغل والسهرة الممتعة والمناسبة المثيرة لأعضاء السفارة تماماً كما كانت تسلية وشغلاً للوقت لجدة حواء . فإذا تصادف وجود تاجر للشعوذة والتسلية مثل الأستاذ الجامعي الذي يتحدث عنه أنيس منصور والذي « ذهب الى إجراء تجربة على أحد أعضاء السلك الديبلوماسي العربي» فإن الصورة تقترب أكثر فأكثر من الصورة التي رسمها طاهر لاشين حيث نجد هناك الشيخ مصطفى يقوم بدور الأستاذ الجامعي أو العكس .

إن أحداً لا يستطيع أن ينتقد وزارة الخارجية على خرافية أعضاء سفاراتها في الخارج، ذلك أن اختبار الذهنية والتأكد من خرافيتها أو علميتها ليس شرطاً من شروط التعيين - كما يقول ديوان الموظفين - .

* * *

بعد مرور أربع سنوات تماماً على هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ، وبعد أن كتب الكثير عن أهمية العلم والتكنولوجيا، فوجىء العالم العربي بأن شخصيات بارزة في القيادة السياسية والعسكرية في مصر تلجأ الى أساليب غير معقولة ،

أي أساليب خرافية للحصول على إجابات تتعلق بالوضع السياسي أو العسكري.
وفي هذا يقول محمد حسنين هيكل :

– هل معقول ما ذكرته في سياق مقال الأسبوع الماضي من أن بعضاً من القيادات التي شاركت « في ما كان» وصلت الى حد استلهام السياسات من جلسات تحضير الأرواح ؟

لقد رددتُ مباشرة أو بالكتابة على كثيرين أقول لهم ما ملخصه:

– سواء كان معقولاً أو غير معقول، فإنه –مع الأسف الشديد– حدث، ولم أكن لأصدق لولا أنني استمعت بأذني الى شرائط التسجيل التي وضعت أجهزتها في غرفة تحضير الأرواح حتى تحتفظ بكل ما يجري على لسان الوسيط ، لا تضيع منه كلمة أو يسقط حرف .

ثم يسترسل محمد حسنين هيكل بتأكيده أنه لم يكن ليصدق لولا أنه تبين وقائع يعرفها . وهنـــا ، في رأينا ، مكمن الخطورة . ذلك أن « تهمة » تحضير الأرواح قد وجهت الى الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية ، والسيد شعراوي جمعة وزير الداخلية ، والسيد أشرف مروان سكرتير الرئيس عبد الناصر للمعلومات. وهم، كما نرى، يحتلون أهم المناصب القيادية في الدولة. وأن يؤمن هؤلاء الناس بتحضير الأرواح ويمارسون ذلك التحضير ، أمر على جانب كبير من الخطورة فيما يتعلق بمصير البلد ومستقبلها . وأن يكون التصديق أو عدم التصديق على إيمان هؤلاء بالخرافة مرهوناً بالاستماع الى الأشرطة المسجلة أو ما شابهها من براهين عادية قاطعة ، أمر وإن كان محموداً من الناحية القانونية بمعنى الإصرار على الحصول على البرهان قبل توجيه الاتهام، إلا أنه من ناحية تطبيقية لا يساعد كثيراً في الوصول الى الحقيقـة . إن الاستيلاء على أجهزة التسجيل وشرائطه أو وضع أجهزة التسجيل في غرفـة تحضير الأرواح ، أمر لا يتيسر دائماً ، وخاصة اذا كان المعنيون هم أرباب السلطة في الدولة .

كذلك فإن الكتابة عن أشرطة مسجلة بهذا الخصوص ما كانت لتتم لولا

الأحداث السياسية التي رافقت إعلان هذه الأنباء ، الأمر الذي يعني أنــه لو لم يسقط أولئك الأشخاص من مركز السلطة لاستمروا في تسيير شؤون الدولة وفقاً لما تلهمهم إياه الأرواح وحسبما ينطق به الوسيط .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : ألم تكن هنالك دلائل تشير الى إيمان هؤلاء النفر بالخرافات وتحضير الأرواح ؟ ألم يكن الاحتـــكاك العقلي والسياسي والقيادي والصحافي ليكتشف أن هذه النوعيات تؤمن بما هو أقرب الى « الحواديت الخرافية » [1] على حد تعبير هيكل .

أليس من الضروري أن تتواجد بيئة خرافيــة وبطانة خرافية تساعد هؤلاء على النمو في أوهامهم الخرافية وتهيىء لهم الأجواء النفسية والذهنيـة اللازمة لذلك ؟ وقـد كان هيكل متردداً في نشر الخبر . ولكنه رأى أن نشره سوف

يوضح أكثر من أي شيء آخر مدى الخطر الذي كانت تتعرض له مصر في مستقبلها ونضالها الذي كان يمس ضمن مـا يمس مسؤوليات السلام والحرب !... ويوضح أكثر من أي شيء آخر صورة المشكلة التي اجتازتها مصر وبكل تفاصيلها ووقائعها . ذلك أنـه من خلال جلسات تحضير الأرواح برزت النوايا والاتجاهات ...[2]

ثم يسترسل هيكل في وصف جلستين لتحضير الأرواح كما حصــل عليهم من أشرطة التسجيل . فنستمع الى أسئلة عسكرية غاية في الخطورة والسذاجة في نفس الوقت يوجهها الفريق فوزي الى الوسيط والذي يشغل منصب أستاذ في الجامعة، حذف هيكل اسمه. ولأنه كان معروفاً عن الفريق فوزي التدين، فقد عمد الوسيط الى خلق إطار ديني يحيط به كلامه فقام باستحضار :

روح شيخ اسمه الشيخ عبد الرحيم [3] .

---

(١) الأهرام، محمد حسنين هيكل، بصراحه – تحضير الأرواح، ٤ حزيران ١٩٧١ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .

وفي اعتقادنا أن الفريق فوزي كان ميالاً أو تابعاً لإحدى الطرق الصوفية التي تعتبر الشيخ عبد الرحيم القناوي شيخ طريقتها أو صاحب مدرستها .

فيما يقوله الوسيط نقلاً عن الروح المستحضرة :

يجتاز الله بكم في هـــذه الفترة الحرجة من حياة أمتكم العربية الإسلامية على خير وسلامة ويكلأكم برعايته وعنايته ، ويردّ كيد أعدائكم الى نحورهم ، ويوصلكم الى شاطىء الأمان .

ثم يعود بعد عدة صفحات على هذا النحو ليقول :

ندعو الله أن يبصركم بالطريق الصائب السليم والى مجـال العمل الراشد وندعوه أيضاً أن يخفف من خسائركم في سبيل ذلك ما وسعت ظروف التخفيف واذا ما دعونا أن يخفف الخسائر فإنما ندعوه أن يوجهكم الى طريق تختصرون فيه ضربة العدو من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يتوقع ويصاحبها ضربة ظاهرية في غالبهــا ولكنها شديدة في مظهرهـــا ومحيّرة في هدفها ومآربها ومحيّرة العدو من الطريق الذي لا يتوقعه [1] .

ثم يمضي الوسيط يتحدث بالشؤون العسكرية وكأن الروح التي استحضرها خريجة احـدى الكليات العسكرية ، ولكن الوسيط يستخدم العبارات العـــامة حتى لا يُكتشف زيف دجله مستقبلاً . ثم يقول بلهجة استعلائية وعَظية :

هذا بعض مما أردنا أن نسوقه إليكم في هذه الجلسة ... ندعو الله أن يوفقكم ويرعاكم ويكلأكم بالرعاية والعناية والسداد والرشاد وأن هناك بعد ذلك رسائل سوف ننقلها لكم خاصة لكل منكم في بعض أمهات ظروفه الخاصة إلا اذا شئتم أن تستفسروا عما فات [2] .

---

(١) الأهرام، محمد حسنين هيكل، بصراحة – تحضير الأرواح، ٤ حزيران ١٩٧١ ، ص ٣ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

ثم يبدأ الوسيط بتوزيع النصائح على فوزي وسامي وشعراوي تارة محذراً من سوريا، وتارة من بعض الناس، ومرة من الصف الثاني في قيادة السلاح. ثم يتحدث عن الجبهة الداخلية فيقول:

وإذا ما وجد أنكم على أرض صلبة من ناحية الجبهة الداخلية ومن ناحية أصحاب العزم ما تمكن إلا أن يهادن الى أن يحين حين أفضل.

سامي شرف: ولكن هناك نية؟

الوسيط: غير معادية حتى الآن، إنصافاً للواقع، ولكن طبعاً لكي يصل الى خيوط أمور تتجمع لديه. العبرة الآن أن تحسنوا الوقفة وتحسنوا التصرف حتى تجتازوا الخطوة التي ألمحنا اليها.. بعد ذلك تبدأون خطوة البناء، ومن ثم أن تتفكروا في خطوة البناء من الآن بجميع عناصرها.

الفريق فوزي: أفهم من هذا أن تأمين الجبهة الداخلية يسبق المعركة أم المعركة تسبق تأمين الجبهة الداخلية؟ [1]

الوسيط: المعركة سابقة توقيتاً من حيث الفعل.. ولكن التأمين واجب منذ الآن الى أن يعقب أيضاً مظهر التحرير بعد.

شعراوي جمعة: هو حايطلب منا طلبات خلال أسبوع أو طلبها من سامي.. مفروض أنا وسامي نرد عليه في ظرف أسبوع.. ما هي توجيهاتكم بخصوص هذا؟ لقينا الطلبات طبعاً لا تتفق مع رأينا.

الوسيط: نعم.. نعلم هذا.

شعراوي جمعة: هل نرفض مباشرة؟

الوسيط: أعطوا إجابات غير جازمة [2].

يعلق محمد حسنين هيكل في مقاله فيقول:

---

(١) لاحظ الفهم التجزيئي السكوني لعمليات الصراع السياسية والاجتماعية والعسكرية.

(٢) الأهرام، محمد حسنين هيكل، بصراحة – تحضير الأرواح، ٤ حزيران ١٩٧١ ص ٣.

كانت مصر تطلب العلم وكان هؤلاء لا يرون من العلم إلا جانبه السلبي[1] ... وكانت مصر تنشد الإيمان ، وكان هؤلاء لا يرون من الإيمان إلا ما تعلق بأذياله مما لا يتصل بالدين في شيء ...[2]

ولكن الحقيقة هل كان بإمكان هؤلاء وسواهم أن يروا من « العلم إلا جانبه السلبي » ومن الإيمان إلا مـا يتعلق بأذياله لو لم تكن ذهنيتهم مهيأة منذ الطفولة لمثل هـذه المواقف ولو لم تكن البيئة الثقافية في المجتمع تسمح بمثل هذه الاتجاهات.

إن قول محمد حسنين هيكل أن أولئك النفر :

لم يكن تعبيراً عن مصر ولا فكرها ، ولا حضارتها ولا روحها ولا ثورتهـا ، والدليل على ذلك أن مصر رفضته وأسقطته وواجبها الآن أن تحول – وبشكل قاطع – دون إمكانية تكراره[3].

هذا القول مدفوع في الحقيقة بدوافع سياسية لا يعنينا أمرها في هـذا المجال . والسقوط والرفض هنـا يمثل رفضاً سياسياً وليس ثقافياً وفكرياً . إن تنحية مجموعة من الأشخاص الذين يمارسون الخرافة على قـمة هرم للدولة ، لا يعني بالضرورة رفض الاتجـاه والتراث الخرافي عبر كل مؤسسات الدولة وعبر الذهن الاجتماعي بكامله ، كما أوضحنا سابقاً . ولا شك بأنـــه خداع النفس وخِداع للعقل وللجماهير أن نأخذ العمل السياسي بمفرده بديلاً للعمل الفكري الاجتماعي وأن نعتبر السقوط السياسي بمثابة سقوط لمخالفات تاريخية تراكمت عبر مئات السنين وتحتاج الى عشرات السنين لإزالتها اذا توفرت كل العناصر الموضوعية اللازمة لذلك .

---

(١) لاحظ أن هيكل لم يسلخ تحضير الأرواح عن العلم بل رأى أنهـا مجرد جانب « سلبي من العلم » ولم يعترف أو يجرؤ على الاعتراف بأنها محض خرافة . وهـنا نموذج على النزعة التوفيقية بين العلم والخرافة في العقل العربي .

(٢) الأهرام، محمد حسنين هيكل، بصراحة – تحضير الأرواح، ٤ حزيران ١٩٧١ ، ص ٣ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

كان تعليق توفيق الحكيم على الحادث أن قال :

إن مصر لا تحتاج فقط الى مر الدواء ولكنها تحتاج أيضاً الى مبضع الجراح يفتح وينظّف ويطهّر ، اذا أقفلنا الجرح على صديد فسوف تعود الالتهابات والبثور وما هو أخطر وذلك سوف يؤثر ليس على المستقبل فقط ولكنه قد يرتدّ الى الماضي ..[1]

إن مبضع الجراح الذي يتحدث عنه توفيق الحكيم لا يمكن أن يكون مجرد تنحية عدد من المسؤولين ، بل كان من المفروض أن يستفاد من هذه الحادثة للتعرف على الحقيقة الأساسية وهي أن الخرافة بشتى أشكالها متغلغلة في جسم المجتمع بحيث يمكن أن يغرق فيها مسؤولون يحتلون مراكز في منتهى الخطورة. إن مبضع الجراح كان ويجب أن يكون عملية شاقة وطويلة تتناول مختلف الطبقات في المجتمع وتشترك فيها أجهزة الدولة بكاملها لتنقية الذهنية العربية من هذه الأدران .

ومع أن الباحث العادي لا يملك أن يقطع بصحة ما رواه هيكل، إلا أن مجرّد طرح مثل هذه الفكرة وبهذه الكيفية يعني أن البيئة مستعدة لتقبلها بشكل أو بآخر، خاصة وأنه قبل هذه الحادثة وبثلاث سنوات فقط (مارس ١٩٦٨) انهمكت أجهزة الإعلام الرسمية « بفبركة » ، والترويج لقصة ظهور العذراء وما يحمله ظهورها من تباشير بالنصر مما أشرنا اليه سابقاً .

• إن العقلية سواء الفردية أو الاجتماعية التي تختلق قصة كهذه بكل ما يعني ذلك من خرافة وتضليل ودعوة للجماهير للغرق في بحر من الوهم على شكل سحب تظهر في سماء الزيتون ، هذه العقلية لا بد وأن تكون من نفس نوع العقلية ، بل هي ذاتها التي تلجأ الى استحضار الأرواح واستشارتها في المسائل السياسية والعسكرية .

إن العلـمية في العقلية أهميتها تتبلور في الخلايا الجماهيرية التي ستفرز

---

(١) الأهرام، محمد حسنين هيكل، بصراحة — تحضير الأرواح، ٤ حزيران ١٩٧١ ، ص ٣ .

بدورها القادة والمسؤولين . وإن الريف الذي يؤمن بالخرافة بكل أشكالها ، يؤمن بها فكراً وممارسة لا يستطيع إلا أن يفرز المواطنين الذين يكونون على استعداد تام لقبول كل خرافة، خاصة حين تدعم الجهات الرسمية هذه الخرافة أو حين يلجأ اليها الشخص الثاني في الدولة .

وكملاحظة أخيرة هنا نؤكد على أن مدلول كلمة العلم لا يزال بعيداً عن الذهن العربي . وحين يكون هناك اقتراب من فهمه تختلف المفاهيم عن العلم اختلاف آراء الفقهاء في المسائل الفقهية التقليدية. ذلك أنه كما أشرنا في موضع سابق (فصل الأولياء) كان الفريق أول محمد فوزي من الداعين الى ضرورة استخدام العلم والاستفادة من الخبرات ، واتقان استعمال المعدات المعقدة . وكانت نفس أجهزة الإعلام التي كشفت خرافية الفريق فوزي وصحبه هي التي تروّج لعلميته واهتمامه بالتكنولوجيا ، وهي نفس الأجهزة التي روّجت لقصة ظهور العذراء عام ١٩٦٨ في القاهرة وأجهدت نفسها « في البحث عن البراهين العلمية القاطعة على حقيقة المعجزات » [١] .

إن أحداً لم يجر استطلاعاً بين المواطنين العاديين ليعرف رد فعلهم الحقيقي حين اكتشفوا أن المسؤول عن الجيش ومن يتحكم قرار منه بأرواح آلاف المواطنين منغمس في الخرافات الى أذنيه . هل صدم الإنسان بالخرافة التي يمارسها الفريق محمد فوزي أم صدم بأن الفريق يمارس الخرافة؟ أم مر الحادث بصورته السياسية ليس إلا ؟ [٢] .

وفي مجال القادة السياسيين فإن قصة الفريق أول محمد فوزي ليست فريدة من نوعها في الوطن العربي . ففي كتابه ذكريات على درب الكفاح والهزيمة ، يؤكد رياض المالكي أن عدداً من زملائه الوزراء لم يكونوا أقل خرافية من الفلاح البسيط أو الفريق محمد فوزي في لجوئهم الى الأرواح والأشباح .

---

(١) صادق جلال العظم ، نقد الفكر الديني ، ص ١٥٢ .

(٢) لاحظ أن جريدة الأنوار في ١٢/٥/٦٨ والمعبّرة عن وجهة نظر السلطة في مصر قررت بما يفيد أن : تحضير الأرواح والتقاط الصوّر الروحانية للأموات وتجسيد الأرواح عن طريق الوسطاء ليس إلا حقائق علمية لا يرقى اليها الشك .

فهو يعلق على اختفاء السيد يوسف مزاحم المدير العام للشرطة والأمن العام في سوريا في أواسط الخمسينات بقوله :

وقد حاول عدد من المسؤولين والنواب الذين شكوت لهم الأمر، الاتصال بالمدير العام إياه ، ولكن لم يعد يظهر له أثر خلال الأيام الأربعة بكاملها . وقد ظن القوم أنه قد تبخر مع كميات البخور التي اعتاد إشعالها في خلواته الخاصة مع بعض المشايخ أو في جلسات النجوى مع الأشباح وخلال حفلات تحضير الأرواح (١) .

وفي مكان آخر يقول المالكي :

لقد تمكن جابي البلدية الصغير (يوسف مزاحم) لا عن طريق كفاحه واجتهاده ، بل عن طريق الزلفى والتقرب من العسكريين ، ثم عن طريق الالتقاء بالمولعين مثله بالبخور وتحضير الأرواح ، الى ارتقاء مدارج الوظيفة والمناصب العليا حتى وصل الى كرسي وزارة الأوقاف . ومن المعتقد أنه لو طال المقام بـه وبشركائه الروحانيين العظام ، لحقق آنذاك حلمه الكبير وأصبح شيخاً للإسلام(٢).

وبعد قيام الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨ ، كان للخرافة، كما يبدو، دور في تسيير سياسة الدولة ، كما يقول المالكي ، إذ كانت الأمور تسير

وفق السياسة العليا المرسومة بمعزل عن الشعب ، أو بالأحرى وفق أهواء المتسلطين على مراكز القوة الذين كانوا يدأبون على العمل في الظلام كالأشباح والذين كان بعضهم مولعاً ولعاً كبيراً بتسيير شؤون الدولة وفق ما يوحى اليه في جلسات تحضير الأرواح(٣).

أما السيد فاخر الكيالي أحد الوزراء المركزيين في حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، وواحد من أقطاب الحزب الوطني في سوريا ، فقد حمل

(١) رياض المالكي ، ذكريات على درب الكفاح والهزيمة ، ص ٢١٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .

رسالة معه من القاهرة لينقلها الى رياض المالكي من أخيه عدنان (العقيد عدنان المالكي رئيس الشعبة الثالثة في الجيش السوري والذي اغتيل على يد الحزب القومي السوري صيف سنة ١٩٥٥) بعد مرور ٣ سنوات على وفاته . وعندما ظهر الامتعاض على وجه رياض لما تصوّر أنه مزاح غير مستحب ، أردف فاخر الكيالي متابعاً :

إننا نعمل في القاهرة مع بعض الوزراء المركزيين على عقد جلسات تحضير الأرواح . فقاطعتُه (رياض) قائلاً: إنك راغب اليوم في التنكيت ولا أحسب أن لدى الوزراء المركزيين وقتاً يضيعونه في ممارسة (الجَلاجَلا) [1] فأجاب الكيالي مؤكداً : لا ، ليس في الأمر أي هزل ، **والوزراء المركزيون يقضون معظم أوقاتهم في عقد جلسات تحضير الأرواح . ويجب أن تثق أن هذه مسألة علمية لا شك في جديتها، والسلطات العليا والمسؤولون الكبار في القاهرة، يهتمون بها ويمارسونها ، لأنها في نظرهم على غاية كبرى من الأهمية، وهي تساعدهم على حل عقد كثيرة لدى معالجة شؤون السياسة والحكم**[2].

وهكذا يتضح من حديث السيد الكيالي مع السيد المالكي أنه ليس هناك من خلاف جوهري في خرافية عقل الفلاح العربي البسيط وعدد من القادة المسؤولين والذين يتحكمون بمصير الجماهير بأسرها . فكل من الفلاح البسيط والسيد الكيالي ، ليس بصفته الشخصية بطبيعة الحال ، وغيره من الوزراء يلجأون الى الخرافة لحل مشاكلهم ، مع فارق بسيط هو أن الفلاح يلجأ للخرافة لعجزه وانسحاقه وعدم معرفته بغير ذلك . ويلجأ اليها صراحة وعلانية ، يؤمن بها بينه وبين نفسه ويعلن ذلك أيضاً على الناس . أما « المتعلم » العربي والسياسي العربي و « الوزير العربي » و « القائد العربي »

---

(١) الأقواس في الأصل .

(٢) رياض المالكي ، ذكريات على درب الكفاح والهزيمة ، ص ٢٤٦ ، التشديد بالحرف الأسود بن المؤلفين . لاحظ قول الكيالي : « مسألة علمية » .

فإنه يحيط نفسه بقشرة هشة يسميها « العلم » . وينكر أمام الملأ خرافيته في الوقت الذي ما زال في جوهره غير بعيد عن ذلك الفلاح. يسيّر الملأ بعقليته الخرافية ، وهو بذلك يحول دون اختفاء الخرافة من الذهن العربي ، وتنخدع الجماهير فيه في الوقت ذاته لاعتقادها أن ذلك المثقف أو السياسي أو القائد بشهاداته وأوسمته سيسير بها نحو التقدم والعلمية التي يرددها صباح مساء .

ويذكر السيد الكيالي في المصدر السابق ، أنه وزملاءه والوزراء ،

سعوا في إحدى الجلسات وأحضروا روح المجاهد الكبير ابراهيم هنانو، كما أحضروا عدة أرواح ومن بينها روح أخي عدنان [1].

ولم يكتف الوزراء بإحضار روح عدنان المالكي (أخ رياض) بل إنهم استشاروه رأيه في الأوضاع العامة :

فأجابنا (أي عدنان) بأنها ليست سيئة ، ولكن على القيادة أن تتخلى عن أنانيتها [2] .

وتنبه رياض المالكي عند سماع هذه الرواية ، ولكونه لم يكن هو الذي يتولى زمام القيادة ، رد على السيد الكيالي ساخراً بأن الرسالة

موجهة إذاً لسيادة الرئيس ذاته (جمال عبدالناصر) لأنه هو الذي يتولى زمام القيادة ..[3]

ثم تابع السيد الكيالي روايته مضيفاً :

ولما سألنا أخاك عن شخصك أنت أجابنا: « رياض إنسان صريح وجريء ، ولكن عليه أن يخفف من غلوائه » [4].

فعلّق رياض على قول الكيالي قائلاً :

إنك تحمل لي رسالة من المخابرات لا من أخي .

---

(١) رياض المالكي ، ذكريات على درب الكفاح والهزيمة ، ص ٢٤٦ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .

ورغم ما يبدو في هذا الحوار من إسقاط ذات الكيالي على اتصالاته الروحية بشكل سافر ، إلا أنه أجاب محتداً على تعليق رياض المالكي :

لا ، أبداً ، صدقني ، إن ما رويته لك هو الحقيقة .

وحين يستفسر السيد الكيالي عن مضمون مذكرة كان قد أرسلها رياض المالكي الى القاهرة ، رفض الأخير الإفصاح عن ذلك المضمون ، وأجاب مداعباً :

ما دمت تشتغل أنت وزملاؤك المركزيون بالروحانيات ، وهي تكشف عن بصيرتكم للإحاطة بما كان وبما هو كائن وبما سيكون ، وتساعدكم على حل معضلات الحكم والسياسة ، فأنت لم تعد بحاجة للحصول على نسخة مطبوعة من المذكرة ، لأنك تستطيع بوسائلك الروحانية الإطلاع على أي شيء ترغب في معرفته [1] .

سبق وأن أشرنا أن المواطن البسيط يلجأ الى السحر والأرواح بسبب عجزه عن تغيير واقعه بقدراته الذاتية . ويبدو أن هذا العجز ينسحب في البلاد العربية أيضاً على الشخصيات القيادية في كثير من الأحيان . ويبدو أن هذا العجز يدفع القياديين أيضاً الى اللجوء الى الخرافة لمواجهة المواقف التي تعترضهم ، خاصة وأن لديهم الذخيرة الخرافية التي تؤهلهم لذلك .

إن السؤال الذي يتبادر الى الذهن هو : هل يشعر القياديون بعجزهم لأنهم عاجزون في أعماقهم عن تحمل أعباء المناصب التي يصلون اليها إما بالوسائل غير الديموقراطية أو انعدام الكفاءة لأداء المهمة ؟ أم أن العجز يعود الى أن القيادي يشغل منصباً دون أن يكون صاحب سلطة فعلية ، بل يخضع لتوجيهات رئيسه ؟ أم أن الشعور بالعجز يعود الى انعدام المؤسسات التي تتولى مهام تسيير الأمور الخطيرة ، وبالتالي انفراد شخص أو أشخاص قلائل باتخاذ القرارات الحاسمة والتي كثيراً ما يشعر أنها أكبر من أن يصل اليها بقدرته العقلية منفرداً ؟ وتمنعه فرديته من الاعتماد على مؤسسة لاتخاذ القرار؟

---

(١) رياض المالكي ، ذكريات على درب الكفاح والهزيمة ، ص ٢٤٧ .

أم أن العجز يعود الى عدم القدرة على تغيير الواقع حسب ما تقتضيه الطرق العلمية العقلانية مما يحتاج الى الجهد والتنظيم والمثابرة وبعد النظر والتحديث المستمر مما لا يتجاوب مع أماني التغيير المفاجيء على منوال المعجزة ؟

فإذا أخذنا بعين الاعتبار مـا يتطلبه النصر من تخطيط وعلمية واستعداد ذهني ومادي لمواجهة التحدي وأخذنا بعين الاعتبار كذلك مـا تتطلبه القرارات الحاسمة من تجميع معلومات وتحليلها والاستنتاج منهـا ، فلا شك – وبدون أن نكون عاطفيين – أنه موقف مأساوي للغاية على مستوى الفرد ومستوى الأمة حين يكتشف الإنسان العادي أن من يتربع على كرسي القيادة لا يختلف عنـه في جوهره من حيث الخرافة إلا قليلا . موقف مأساوي للإنسان الذي تمـلأ نفسه الهيبة والاحترام حين ينظر الى ذلك القيادي سواء في العلم أو السياسة أو الشؤون العسكرية . مأساة أن يتعب الإنسان العادي عقله المتعَب ، محاولاً أن يجد تعليلاً معقولاً يرتقي به الى مستوى يمكن من خلاله أن يفسر تصرفات أو قرارات أو انشغال القادة ، ثم يكتشف فجأة عن طريق الجريدة أو طريق الإشاعة أو طريق المحكمة أو طريق شيخ الطريقة أن تعليله المعقول ليس له مكان ولا لزوم له في عالم الأرواح .

إن تأكيد فاخر الكيالي بأن السلطات العليا والمسؤولين في القاهرة يهتمون بتحضير الأرواح ويمارسونها ويعتقدون أنهـا على جانب كبير من الأهمية ، يوحي بأن الدولة من القمة الى القاعدة تمارس الخرافة أو تروّج لها بصورة أو بأخرى . فمن هي السلطات العليـا فوق الوزير المركزي ؟ حين يقول الوزير المركزي : « السلطات العليا » ، فإن هذا يعني رئاسة الوزراء ورئاسة الجمهورية . ورغم أننـا لا نملك وثائق تثبت ادعاء الوزير المركزي إلا أن الأحداث التي وقعت فيما بعد ، تشير الى صحة الاتجـاه الخرافي في القيادات اذا لم نأخذ ما قاله الكيالي حرفياً . فإذا تذكرنا أن الحديث الذي نقله رياض المالكي في المصدر الذي أشرنا اليه قـد وقع في أواخر الخمسينات حين لم يكن الفريق أول محمد فوزي متربعاً على كرسي قيادة الجيش ، وحين كانت القيادة العسكرية والسياسية مختلفة من حيث أشخاصها اختلافاً ظاهراً

عما كانت عليه بعد أكثر من عشر سنوات ونعني بهـا بعد سقوط محمد فوزي سنة ١٩٧١ ندرك أن هذا الاتجـــاه الخرافي متغلغل في جسم الدولة وليس مقصوراً على نفر من الرجال الذين اكتُشِفوا فقط فجأة عام ١٩٧١ .

إن هذه الملاحظة تثير بدورها تساؤلات كثيرة حول العديد من الرجال القياديين من حيث احتمال ممارستهم فعلاً الخرافة بشكل أو بآخر ومن حيث تأثير هذه الممارسات على قراراتهم[1].

لقد ركزنا الانتباه هنا على أمثلة من الواقع أولاً وتناولنا أشخاصاً تعرفهم الجماهير العربية ويمثلون الصف الأول من المسئولين بشكل أو بآخر لنختصر الأمثلة عن طريق التأكد من أن المرض قد استفحل ليصل الى القمة . وغنيّ عن التأكيد بأن القاعدة الجماهيرية مليئة بمثل هذه الممارسات وعلى نطاق واسع ومتنوع ولأغراض يومية بسيطة وإن كانت الاستفادة من الأرواح لا تتم من خلال حفلات على مستوى راق كما هو الحال في الأمثلة السابقة . وفي الأحوال العادية لا يعدو الوسيط أن يكون شيخاً بسيطاً خادماً لضريح أو وليأو شيخ طريقة ، أو ما شابه ذلك وليس أستاذ جامعة .

(١) إن تورط عدد من القياديين العرب في الممارسات الخرافية من تحضير أرواح وقراءة الطالع ، واستشارة الفلكيين ، لا تقتصر على الأمثلة التي أوردناها بل هنـــاك قصص عالقة ومؤكدة تروى عن العديد من الشخصيات بمختلف المناصب ويعرفها المقربون إليهم ويتداولونها. غير أن انعدام المعلومات المُوثقة لدينا بهذا الشأن دفعنا الى الإحجام عن الاستشهاد بها .

٥ — معرفة الطالع

إن محاولة الإنسان لمعرفة مستقبله سواء كخط متصل أو كمجموعة من الأحداث البارزة المستقلة كان منذ القـــدم وما زال يشغل حيزاً من اهتمام الإنسان ، سواء عبّر عن هذا الاهتمام تعبيراً ظاهراً أم اكتفى بإبقائه في منطقة اللاشعور . وكان عجز الإنسان في مطلع مدنيته على الربط بين النتائج والأسباب واكتشاف العلاقات المرتبطة بنظام تحكمه قوانين معينة وكذلك عدم إدراكه لمناطق تأثير الموجودات ، سواء كانت قوى أو أجساماً ، على حيـــاته هو ، وارتباط الدين بالخرافة وبالغيبيات والتي تفترض وجود عوالم أخرى ؛ كل ذلك جعل من قضية المستقبل لغزاً ضخماً أمـــام الإنسان في في الماضي . فإذا أضفنا الى كل هذا ما نشأ من أساطير مؤداهـــا أن عالم الناسوت محكوم ومسيّر من قبل قوى خارجة عن هذا العـــالم ، وافتراض وجود آلهة يتخصص كل منها بتسيير أمر معين من أمور الإنسان (الميثولوجيا الإغريقية مثلاً) أو أن الإنسان يعيش حياته ضمن خط مرسوم له من قبل (determinism) أو أن أعماله ستؤدي به الى نهـاية محتومة بالنسبة إليه ، ونشوء فئات من الكهّان ورجال الدين الذين يدّعون أن لهم علاقة بشكل أو بآخر مع هذه القوى الغيبية ، نجد أن رغبة الإنسان في التعرف على مستقبله تصبح أكثر الحاحاً من ناحية عملية أو نفسية . وتتصاعد رغبة الإنسان لمعرفة المستقبل اذا كان مقبلاً على أمر هـــام لا يشكل جزءاً من حياته اليومية ، وأن حدوثه سيغير من مجرى حياة الإنسان بشكل من الأشكال كحالة القائد المشرف على دخول معركة فاصلة ، أو الفتـــاة أو الفتى المقبل على زواج ، أو الفلاح الذي ينتظر محصوله مثـــلاً . ويضيف عدم الإستقرار السياسي

والاقتصادي عوامل جديدة في تخوف الإنسان من مستقبله ورغبته في التعرف على هذا المستقبل حتى يجد لنفسه حسب ما يتخيل نوعاً من الترتيب المناسب. ينشأ عن ذلك كله مجموعة من الناس يحترفون قراءة المستقبل ويتكسبون من هذا العمل كأي صناعة أخرى . وتروج صناعة هؤلاء عموماً في المناطق الأكثر تخلفاً ، وأوسع جهلاً وأشد انسحاقاً ، سواء بالمفهوم الاقتصادي أو الاجتماعي . يضاف الى هؤلاء شرائح عليا من المجتمع تتطلع الى المستقبل بطموحات معينة وهي باستمرار تحتاج الى من يطمئنها على مصير تلك الطموحات . .

وتتركز مهنة محترفي قراءة المستقبل بإعطاء طالب المشورة كمية كبيرة مما يرغب أن يسمعه بالاعتماد على فراسة وخبرة قارىء الطالع . ولسنا بصدد بحث هذا الموضوع من حيث نشأته والسيكولوجية الاجتماعية خلفه وإنما يهمنا أن ندرس مدى تغلغل مثل هذه الممارسات بين الجماهير العربية واعتقاد الكثيرين بها . فكما هو معروف كان البابليون والكلدانيون من أوائل من اهتم بمراقبة الأجرام السماوية أثناء ترحالهم مما تولد عنه مع الزمن الخرافة القائلة بأن حركة هذه الأجرام تتحكم في حياة الإنسان . وأن مستقبله يتحدد بالنجم الصاعد ساعة ميلاده والنجم الهابط في ذلك الوقت أيضاً . وهو ما يعرف بالعربية باسم التنجيم . ورغم أن الإسلام قد بيّن موقفه من علم الغيب بأن أحداً لا يعرفه إلا الله ، ورغم ما يروى من الأحاديث عن التنجيم ومنها : « كذب المنجمون ولو صدقوا » إلا أن كثيراً من خلفاء المسلمين كانوا ميالين للاستماع الى المنجمين .

ولقد اهتم العباسيون بالتنجيم اهتماماً بالغاً وكان أبو جعفر المنصور أول من عني بالتنجيم ، فترجموا له كتاب السند هند .

واقتدى به خلفاؤه وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم ... وكان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الأطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والأرزاق . وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من أحوالهم الإدارية والسياسية . فإذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته

استشاروا المنجمين ، فينظرون في حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل أو عدمها . وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك ، وكانوا يراقبونها ويعملون بأحكامها قبل الشروع في أي عمل ، حتى الطعام والزيارة . على أن علماء الشرع الإسلامي كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئونه ويردونه،والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك الى اليوم[1] .

ولعل قول البحتري في مدح المعتصم بعد معركة عمورية في القرن الثالث الهجري :

السيف أصدق انبـاء من الكتب ،
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف
في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهب

يعطي دليلاً تاريخياً شائع التداول يحفظه تلاميذ المدارس على استشارة المعتصم للمنجمين حوله .

وكان هنالك ميل باستمرار من جانب السلطة الحاكمة الى منع الناس عن الاشتغال بالتنجيم وما شابهه ، لأن مثل هـذه الممارسات قد تضع الحاكم في موقف الضعيف اذا كشف المنجم – والحاكم كثيراً ما يؤمن بسبب وساوسه الكثيرة وخوفه على سلطانه بما يقول المنجم – عن أمر سيقع في المستقبل ولا يوافق الحاكم أن يعلن ذلك بين الناس . عدا عن أن قراءة الطالع ومعرفة المستقبل تجعل الناس أكثر علماً بما يحصل لهم على افتراض تصديق ذلك من جميع الأطراف المعنية ، وبذلك تسلب صاحب السلطان سواء كان ملكاً أو كاهناً أو رجل دين شيئاً من تمايزه على غيره من الناس ، وتحرمه احتكاره

(١) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، الجزء الثالث ، ص ٢١٠ ، بيروت .

للمعرفة والعلم بما سيكون حسبما يصدق البسطاء . ومن ناحية ثالثة فإن قراءة الطالع ومعرفة المستقبل تعطي للمصدقين بها نوعاً من الاطمئنان (ولو بصورة وهمية) يصرفهم عن الحاجة الى رجل الدين أو صاحب السلطة أو ربما الى الثورة أو التمرد . إزاء ذلك لا نعجب إذا علمنا بأن البابا سلستوس الخامس في القرن السادس عشر قد حرّم صناعة التنجيم والتي مع عصر النهضة أصابها نوع من الازدهار بسبب بداية التخلخل الاقتصادي والاجتماعي في الأوضاع القائمة آنذاك[1]. ويعقد ابن خلدون فصلاً خاصاً يتحدث فيه عن « بطلان التنجيم » وهو الفصل الخامس والعشرون من مقدمته في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها فيقول :

... فقد بان لك بطلان هذه الصناعة عن طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك عن طريق العقل، مع ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث من عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقاً لا يرجع الى تعليل ولا تحقيق . ... ثم ما ينشأ عنها كثيراً في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة الى الفتك والثورة . وقد شاهدنا من ذلك كثيراً فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ... وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متستراً عن الناس وتحت ربقة الجمهور مع تشعب وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم ...[2]

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على البلاد العربية الآن نجد أن صناعة التنجيم بالمفهوم الكلاسيكي قد تضاءلت ولم يعد هنـــاك إلا النفر القليل نسبياً الذين

(١) راجع. Pears Encyclopaedia, London, p. 235.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٢٢ .

يمارسونها وإن كان الإيمان بالتنجيم ما زال له رواج ملحوظ[1] . وظهر الآن الصحفي وهو مـــا ينشر في الصحف والمجلات حسب الأبراج والذي نجد مشابهاً له في البلاد الغربية ، بل إنه في الواقع قد أخذ عن الصحافة الغربية باعتبار أن مثل هذا التنجيم يجذب كثيراً من القراء ويسبب نوعاً من الرواج للصحيفة أو المجلة . غير أن « تقنيات » مختلفة لمعرفة المستقبل مـــا تزال رائجة في البلاد العربية ومنهـــا الفتح بالرمل وقراءة الكف وضرب الودع وقراءة « ورق اللعب » و « الفتح في فنجان القهوة » و « الفتح في فنجان الزيت » وعمل المندل والاستخارات التي تستند الى متكآت دينية . ونجد أن النساء أكثر تصديقاً واهتماماً بمعرفة المستقبل بسبب الجهل وانعدام الخبرة من ناحية ، وكونهن أعضاء غير فعّالة في المجتمع، ينتظرن وقوع الحدث الهام في حياتهن سواء كان زواجاً أو طلاقاً أو ولادة أو سفراً ، باعتبار ان ذلك كله المحور الأساسي الذي تدور حياتهن حوله[2] .

ولقد أدت حياة الانعزال والركود التي تعيشهـــا المرأة عموماً الى رواج هذه الصناعة ، ونعني الفتح في فنجان القهوة بين النساء لتمضية أوقاتهن من ناحية ، ومعرفة ما يحمل لهن المستقبل من ناحية أخرى .

وينعكس إيمان المرأة بخرافات كشف الطالع على عقلية الأطفـال بحيث يؤهلهم لقبول مثل هذه الخرافات مستقبلاً ولو بصورة أكثر تقدماً . والواقع أن عدم اطمئنان الحياة بالنسبة للإنسـان العربي لانعدام الضمانات السياسية أو الاقتصادية والخوف الدائم مما يحمله المستقبل من كوارث في الصحة أو المـال أو الولد ، وانعدام المؤسسات التي تساعد على نظامية الحياة وانسيابها ، كل ذلك يضاعف من قابلية الإنسـان العربي لقبول الخرافة واهتمامه بتصديق ما يقوله الكف أو الفنجان .

---

(١) يلاحظ فيليب حتي « ان التنجيم جزء لا يستهان به من التراث الشعبي في الشرق الأدنى » فيليب حتي ، موجز تاريخ الشرق الأدنى ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ١٩٦ .

(٢) واجع كتاب المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف للدكتورة سلوى الخماش . دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧٣ ، فصل جهل المرأة ص ٣٦ — ٤٨ .

ويحاول بعض محترفي قراءة المستقبل إقناع زبائنهم بصدق ما يتنبأون به عن طريق استخدام الآيات القرآنية والأدعية في حديثهم أو كتابتهم. وبذلك يدخلون مؤثراً نفسياً قوياً على من يطلب مشورتهم. ولقد نشأ نوع من قراءة المستقبل خاص بجماعة من المسلمين يسندون ما يتنبأون به الى ما يطلق عليه اسم «جفر» الإمام علي بن أبي طالب. وغالباً ما تدور تنبؤات الجفر حول أمور المسلمين بصفة عامة كظهور رجل عظيم، أو توقع حدوث كارثة أو انتصار على الكفار أو ما شابه ذلك. وقليل من يصرحون باستشارتهم للجفر الذي تحيطه كثير من الأساطير والخرافات. وعلى سبيل المثال روى لأحد الساسة السوريين المرموقين لأحد المؤلفَيْن رواية سمعها من أحد مشايخ سوريا البارزين والذي يحتل الآن مركزاً دينياً مرموقاً فيها، وتتلخص في تأكيد الشيخ له بأنه اطّلع بنفسه في كتاب الجفر على نبوءة تشير الى: «ظهور بطل في منتصف القرن العشرين، اسمه جمال الدين، سيتولى طرد اليهود من فلسطين، أسوة بسلفه صلاح الدين، الذي تولى قبله طرد الصليبيين من أراضي المسلمين».

وكما هو واضح فإن الشيخ كان يقصد جمال عبد الناصر واطلع على نبوءته هذه في أواخر الخمسينات أيام الوحدة المصرية – السورية وبعد انقضاء أربعين سنة على مولد عبد الناصر.

ونذكر أن عدداً قليلاً من الشخصيات الإسلامية قد اتخذت موقفاً مضاداً لأعمال السحر، وخاصة كشف الطالع والتنبؤ بالغيب. ومنهم الكواكبي حيث هاجم أولئك الذين:

يدّعون علم الغيب بالاستخراج من الجفر والرمل وأحكام النجوم، أو الروحاني الزايرجه، أو الأبْجَدَات... أو باستخدام الجن والمَرَدة الى غير ذلك من صنائع التدليس والإيهام والخزعبلات[1].

إن الرغبة في معرفة المستقبل أو التنبؤ بالأحداث ولّدت ما نسميه

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، ص ٩٣.

بالتفاؤل والتطيُّر . وهي كما نلاحظ محاولة لمعرفة ما سيحدث في القريب ، وغالباً في الحياة اليومية العادية ، يقوم بهـــا الإنسان صاحب الشأن دون الاعتماد على المحترفين من قارئي الطالع . وفيها تعقد علاقة وهمية بين ما يراه الإنسان أو يسمعه وهو على وشك القيام بعمل ما ، وبين ما ينوي أن يقوم به أو ما سيواجهه في سحابة يومه . ومثل هذه الاعتقادات تعود الى أزمـــان بعيدة تطورت وتلونت حسب المناطق والتقدم الحضاري وحـالة الاستقرار والأمن والازدهـــار الاقتصادي والانفتاح الاجتماعي . وواضح أنه كلما كان الجهل متفشياً وكلما افتقدت الحياة نظاميتهـــا بسبب الفوضى والتعسف والدكتاتورية السياسية أو الاجتماعية ، كلما زاد القلق والخوف من المستقبل بحيث يتراءى للإنسان أن مستقبله مفتت تعبث بـــه وترسم ملامحه بصورة عشوائية قوى لا يعرفهـا ؛ تمعن في إخافته وإرهابه وتعذيبه بأن ترسل إليه ما ينذره بالشؤم واحتمال وقوع المكاره . وبطبيعة الحال نشأ أيضاً بالترافق مع التطيُّر ، التفاؤل بوقوع أشياء مفرحة حين يرى الإنسان أشيـــاء معينة تدل في غالبيتها على الرضا أو الغنى أو الوفرة .

ورغم أن التطيُّر والتفاؤل موجود في معظم الشعوب إلا أن تأثيره على سلوكياتهم وخاصة في الوقت الحاضر يختلف من بلد الى بلد حسب تقدمهـــا ورقي الحياة فيهـــا . وفي عديد من الدول المتقدمة نجد أن المسألة لا تعدو الذكرى التاريخية ويندر أن يكون لها دور في تقرير السلوك اليومي للإنسان. وهذا ما لا نجده في كثير من البلدان المتخلفة ومنها البلدان العربية .

إن الصور أو الأشيـــاء الباعثة على الحزن أو القبيحة أو المنفرة لا شك وأنها تؤثر نفسياً على الإنسان من حيث تجاوبه مع ما يرى أو يسمع . غير أن ربط هذه الأشياء بمـــا سيحدث يرجع أساساً الى التصور الغيبي لميكانيكية الأحداث والافتراض الوهمي الخرافي الذي يرى في الأشيـــاء المادية الملموسة والعادية انعكاسات لأشياء تتعلق بالجن أو الشيطان وما الى ذلك .

إن الإنسان العربي لم تتح له الفرصة تاريخياً التحكم في مصيره أو المشاركة في إدارة مؤسساته ، أو الاحتكام الى قانون تحترمه المجموعة ويحترمه

السلطان ، أو متابعة تحليل الأحداث بطريقة عقلانية دون أن يكون على تفكيره حجر اجتماعي أو ديني أو سياسي ، ورزوحه لفترة طويلة تحت نير الاستغلال الطبقي سواء من المستغِل المحلي أو المستغِل الأجنبي ، وانعدام فرص التعليم أمامه ، وتحكم نزوة السلطان ومزاجه في حياة الفرد (يوم بؤس ويوم نعيم) وانعكاس العقد النفسية والاجتماعية على تصرف المسئول ، كل ذلك دفع في الماضي وما زال ، بالإنسان العربي ومن له نفس الظروف من الشعوب الأخرى الى التخوف الدائم من المستقبل وعدم الاطمئنان على إمكانية تحقيق أي هدف أو إنجاز أية مهمة ، نظراً لتعسف الأطراف الأخرى ، وهو لذلك يمعن في محاولته التعرف على ما سيقع له عن طريق التطيُّر أو التفاؤل بأشياء يراها أو يسمعها .

فإذا أضفنا الى ذلك انتشار الاعتقاد بالقضاء والقدر والجبرية والنهايات المكتوبة والأرزاق المقسومة والحرب المستمرة بين الشيطان وأتباعه من جهة والإنسان العربي من جهة أخرى ، ودور العفاريت والجن وأتباعهم في التأثير على حياة الإنسان ، سواء بالشر المباشر أو التلبيس أو الخير ، والاعتقاد كذلك ببركات الأولياء والصالحين وضرورة احترامهم أحياءً أو أمواتاً ، وكثرة الأشياء الواجب احترامها كالقبور والأوراق المكتوبة والآبار المباركة والأشجار والمقامات والعتبات ... الخ، إذا أضفنا ذلك الى ما تقدم نستطيع أن نتعرف على عمق تغلغل هذه المسألة في نفسية الإنسان العربي وتأثيرها على سلوكياته اليومية بشكل ملفت للنظر .

وكأي من المعتقدات الخرافية نجد أن التطيُّر والتشاؤم يؤثر على ميكانيكية التفكير فيكبتها أو يعطلها ويدفع بالانسان الى اتخاذ مواقف لا تستند الى تعليل عقلاني ، سواء بالاقدام على العمل بالاستناد الى الفأل الحسن ، أو الاحجام بتأثير نذير الشؤم، وتجعل المزاج هو المحرك والمتحكم بالتصرف بدلاً من أن يكون العقل .

إن تعداد ما يعتبر نذير شؤم بالنسبة للإنسان العربي لا يهمنا التركيز عليه بقدر ما يهمنا التأكيد على كثرة الأشياء التي ينذر إليها الانسان هذه النظرة.

فابتداء من الكلمة كذكر اسم مرض معيّن وانتهاء بالحَدَث الطبيعي كهبوب العواصف ، نجد أن لكل ذلك تفسيراً في ذهن الإنسان العربي . ونجد أن المرأة بحكم جهلها وانعدام حريتها وتحكم الرجل بمصيرها وخوفها الدائم على مستقبلها المعلّق على رضى الرجل عليها والذي بدوره تتحكم بنفسيته مجموعة من العقد الاجتماعية والاقتصادية ، والكثير من المعتقدات الخرافية ، كل ذلك يجعل المرأة مغرقة في الإيمان بالتطيُّر والتفاؤل . وكلما انخفض مكان المرأة على السلم الطبقي كلما برزت هذه المسألة بشكل سافر لبروزها أيضاً عند الرجل . فإذا بدأنا من الريف ، نجد أن أكثر ما تراه المرأة تقريباً تصنفه إما نذير شؤم أو فال خير .

وينعكس كل هذا التفسير الخرافي من جانب المرأة على الأطفال بحيث تترسب في نفسياتهم وفي أذهانهم كل المخاوف والأساطير التي يشاهدون الأم وهي تمارسها أو يسمعونها وهي تتناقلها . ومع أن التعلم يساعد بطبيعة الحال على اقتلاع جزء كبير من هذه الخرافات، إلا أن الاقتلاع في كثير من الأحيان قد ينجح على المستوى الذهني للحدث الواحد بحيث يتمكن المتعلم من تعليل الأحداث وربطها حسب مجموعة القوانين التي تحكمها . إلا أن الاقتلاع على الصعيد النفسي يكون في منتهى الصعوبة ولا يتوفر إلا للقلة القليلة من المتعلمين الذين يمارسون جهداً ذاتياً خاصاً لتخليص أنفسهم ذهنياً ونفسياً من تأثير تلك الخرافات . وهذا يفسر لنا الى حد كبير سبب وفرة المتعلمين في البلاد العربية والذين يعتقدون مع ذلك بالكثير من الخرافات التي تتحكم بسلوكهم وإدارتهم للأمور .

فالأم الممعنة في الجهل والخرافة لا يروق لها نفسياً وذهنياً كثرة الأسئلة من أطفالها،فهم يريدون أن يتعرفوا على ما حولهم من مرئيات ومسموعات، فكثيراً ما يسألون عن الأمراض أو الموت أو السماء أو الجن أو غير ذلك .

... وبدل أن تهتم العائلات بهذا الانتباه الشاذ في أبنائها فتعنى بتوجيهه نحو الصلاح وتزيده قوة ونمواً ، أو تعهد بذلك للمربي القادر عليه ، فهي بعكس ذلك تتشاءم من هذا الشذوذ وتتصور أن مردة

من الجن يتكلمون على لسان أولئك الأبنـاء ... ثم لا علاج لهم في نظر أهلهم إلا صدهم عن محاولة التعرف بالأشياء والسؤال عنها بكل وسائل العنف حتى تنطمس تلك البصيرة البارقـة فلسكن لتلقين الجهل وتحكيم الأوهـام والعادات الضارة كما سكن لذلك آباؤهم من قبل[1].

وإذا نعبت بومة فوق أحد البيوت فإن السامع يعمّه التشاؤم ، ويتصور أن أحداً ما من معارفه سوف يموت . كذلك فإن الحلم يبعث على التشاؤم إذا رؤي الشخص فيه بشكل لا يروق للحالم أن يراه به . صوّر لنـا ذلك عبد الحميد جوده السحار في روايته في **قافلة الزمان** حيث سيطر التشاؤم على الأم حين رأت ابنتها في المنام تلبس السواد يوم زفافها [2] .

أما محمد أفندي المعلم في القرية فنرى أن التفاؤل يعمّه ويشعر بالثقة بنجاح مهمته في القاهرة حين يقابل في طريقه الى محطة القطار « فتاة تحمـل جرة فارغة في طريقهـا الى النهر » . وذلك لأن الفتاة بجرد أن رأت محمد أفندي – وهي تعلم بوجهته – استدارت .

وتنحّت عن الطريق ، ودخلت أحد الحقول ، ووضعت جرّتها على الأرض وأحنت رأسها الى الجرة وظهرها على الطريق .

.... فقد خافت أن يقابل « محمد أفندي » في الطريق جرة فارغة ، فتكون الجرة الفارغة دليل شؤم ، وهو ذاهب يسعى في حاجة له وللناس[3] .

ولم يمنع مـا قامت به الفتاة وتفاؤل محمد أفندي من فشله في مهمته .

---

(١) الطاهر الحداد ، امرأتنا في الشريعة والمجتمع ، الدار التونسية للنشر ، سنـة ١٩٢٩ ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٢) عبد الحميد جوده السحار ، في قافلة الزمان ، ص ٣٥ .

(٣) عبد الرحمن الشرقاوي ، الأرض ، المكتب التجـاري ، بيروت ، سنة ١٩٥٤ ، ص ١٤٧ .

وجدير بالملاحظة أن الشرقاوي قد بيّن موقفه من مثل هذه الخرافة بخلاف عبد الحميد جوده السحار في في قافلة الزمان ، بأن جعل تفاؤل محمد أفندي في غير محله وأفشل مهمته رغم كون البنت بنت شيخ القرية،الشيخ الشناوي.

أما كسوف الشمس وخسوف القمر فإنه لا زال مثار قلق بالغ للكثيرين من أبناء القرى والأحياء الشعبية في المدن . وفي ريف مصر مثلاً :

ينظر الجميع الى السماء في خوف ، ويسري في الحارة أن « القمر مخنوق » ويجمع الأولاد الصفائح يضربون بعضها ببعض ، أو يضربونها بعصي وهم يغنون :

يا بنات الحور   سيبوا القمر ينور
دا القمر شب وغندور .

وتظل جعجعة الصفيح صاخبة مدوية ، وأدعية النسوة تتعالى :

ا لطيف ألطف بنا   نحن عبيدك كلنا
يا لطيف ألطف بنا   نحن عبيدك كلنا

والناس « يموج بعضهم في بعض كأنما كان هذا نذير الساعة ، وكأنما القيامة قائمة عما قليل » . ثم يبدأ الخسوف ينقشع فتطمئن القلوب وتتعالى الزغاريد والأدعية الشاكرة [1] .

بالإضافة الى الجو الغريب الذي يثيره كسوف الشمس أو خسوف القمر في نفس الإنسان نتيجة للمنظر غير المألوف واختلاف مستوى الإضاءة ، والجهل الكثيرين من البسطاء بأسباب الخسوف والكسوف ، فإن التفسيرات الدينية تعطي الخسوف والكسوف أهمية خاصة . فقد ورد في الآيات القرآنية وفيما أثر عن النبي ، أن خسوف القمر من علامات الساعة (يسأل أيان يوم القيامة. فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر) [2] .

---

(١) عبد الحميد جوده السحار ، في قافلة الزمان ، ص ١٢١ .
(٢) سورة القيامة ، آية ٦ — ٩ .

كذلك فإن العديد من الظواهر الطبيعية قد وردت في التفسيرات كعلامات لنهاية العالم وقيام الساعة . أو أن هذه الظواهر كانت عذاباً سلطت على أقوام كفروا بالله وهذا يشمل : الريح (قوم عاد) والزلازل (قوم لوط) والبرق وانهار المساء (قوم نوح) . وبغض النظر عن المقصود فعلاً بهذه الإشارات من الناحية الدينية الأكاديمية إلا أن ذهنية الجماهير قد قبلت كما ذكرنا سابقاً هذه الإشارات بمدلولاتها المباشرة . عزّز ذلك كثير من التفسيرات وردت فيا بعد .

ولقد تولّد عن هذا الوضع النفسي غير المستقر عبر العصور وبالاستفادة من العادات القديمة ، أن ظهر نوع من التفاؤل الاصطناعي المرتكز الى أصول دينية ونعني به تسمية المسميات بأسماء دينية أو القيام بأعمال في أيام معيّنة يتصادف مرورها وحدوث وقائع انتصر فيها المسلمون . أو باستعمال عبارات مأثورة في مواقف مشابهة لمواقف انتصر بها العرب في الماضي . فعلى سبيل المثال توجه الرئيس العراقي السابق ، عبد الرحمن عارف، الى جنوده المتجهين الى منطقة القتال عام ١٩٦٧ يحثهم على أن لا يقتلوا طفلاً أو امرأة أو شيخاً، ولا يقطعوا شجرة .. الخ مستعملاً نفس العبارات التي أوصى بها كما يخبرنا التاريخ ، أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين حين وجّه خطبته الى جنوده الذاهبين لفتح الشام . ونحن لا نريد أن نناقش فحوى الخطاب الموجه الى الجنود سواء من الناحية التاريخية أو من الناحية الأخلاقية ، إلا أن ترديد نفس الكلمات بالإضافة الى انه دليل على انعدام الذاتية المتوقع ظهورها من الرجل ، وانعدام سمات العصر الحديث فيها باعتبار أن أبا بكر كان يعبر عن عصره ، بينما لم يستطع الإنسان العربي أن يتخطى المعطيات الثقافية والفكرية للعصر الراشدي ، إلا في حدود ضيقة جداً رغم التغيير المادي الهائل في معطيات العصر الحديث عن العصر المشار إليه ، بالإضافة الى كل ذلك فإن هذه الحرفية في الاقتباس يمكن أخذها دليلاً على الحالة النفسية والذهنية التي تستخدم التفاؤل الاصطناعي .

ولقد تفاؤل الكثيرون من نتائج حرب أكتوبر لأنها وقعت في رمضان

ولأن غزوة بدر وقعت أيضاً في رمضان . بل إن القيادة السياسية في مصر أطلقت اسم « بدر » على الحرب كإسم رمزي للعملية العسكرية استبشاراً وتيمناً . بل إن الصحافة وعدداً من المفكرين العرب ذهبوا الى أبعد من ذلك في تفاؤلهم حين ربطوا بين « محادثات جنيف والكيلومتر ١٠١ » بين مصر وإسرائيل ، وبين صُلح الحدَيْبِيَة الذي عقده النبي مع قريش قبل ١٤ قرناً ، وحاولوا عقد نتائج مشابهة مستبشرين بأن فتح القدس سيعقب المحادثات والصلح تماماً كما أعقب فتح مكة صلح الحُدَيْبِيَة .

لا يخفى علينا في مثل هذه الأحوال الأهداف السياسية البحتة التي يرمي إليها المتفائلون والمستبشرون بهذه الكيفية ، وليس خافياً بأن المقصود أساساً جملة وتفصيلاً هو إقناع الجماهير بهذه المقولة التفاؤلية الخرافية ، إلا أن اللجوء الى هـذه المقولات بحد ذاته يكشف عن استعداد النفسية العربية عموماً لقبولها ، ومبادرة أصحاب المصالح الاستفادة من هذا الاستعداد .

وكجزء من رغبة الإنسان في معرفة المستقبل ، أخذت الأحلام دورها كإشارة الى ما سوف يحدث.ولعل جهل الإنسان القديم بأسباب وميكانيكيات الأحلام وتخوّفه مما يراه في نومه ، إما لغرابته وإما لمخالفته لما يعلم ، وإما لاعتقاده بأن النوم يعني الولوج في حياة لا يستطيع تفسيرها ، وإما لإيمانه بأن الجن والشياطين والعفاريت والآلهة تصوّر له ما يراه ، دفعه كل ذلك إلى إعطاء أهمية خاصة للأحلام كدليل على ما قد يصيبه . وهذا الاعتقاد كان وما زال له تأثير كبير على كثير من الناس في بقاع مختلفة من الأرض ، وبدرجات متفاوتة حسب الرقي الحضاري ، وحسب المواقع الطبقية للمجتمع المعني .

وفي البلاد العربية نجد أن الأحلام اكتسبت صفة دينية . فيقول عنها ابن خلدون في مقدمته أن علم تعبير الرؤيا « من العلوم الشرعية » وأن القصص التي وردت في القرآن وفيها ذكر لأحلام الأنبياء وقد تحققت كما فسرها أصحابها ، ونذكر هنا حلم يوسف ، أعطت للأحلام أهمية خاصة من

حيث أنها قد تكون في نظر المسلم جزءاً من إلهام الله ، قد يقصد بها تبيان المستقبل ، كما في قصة يوسف .

إذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » . (سورة يوسف ، آية ٤) .

... « ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي ... » (سورة يوسف ، آية ١٠٠)

أو توجيه أمر إلهي الى النبي كما في قصة ابراهيم حيث وجه الله إليه الأمر بذبح ابنه إسماعيل من خلال رؤيا رآها إبراهيم .

« فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم . قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين » . (سورة الصافات ، آية ١٠٢ — ١٠٥) .

ويقول ابن خلدون :

... والرؤيا مدرك من مدارك الغيب، وقال ﷺ: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . وقال : لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له[1] .

ثم ذكر ابن خلدون أن النبي كان يسأل أصحابه عن أحلامهم في الليلة السابقة :

ليستبشر بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين وإعزازه[2] .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٧٥—٤٧٦ .

(٢) نفس المصدر .

ويسترسل ابن خلدون لتعليل سبب الرؤيا « مدركاً للغيب » فيفترض أشياء وهمية تتعلق بقلب الإنسان وبدنه مما لا يتناسب مع مـا نتوقه من ابن خلدون . إلا أن ذلك يعود في رأينا ربما الى اضطرار ابن خلدون لتعليل ذلك بسبب ورود القصص الخاصة بالأحلام عن النبي والأولياء . ويبدو مما ذكره ابن خلدون أن المسلمين قسموا الرؤيا الى ثلاثة أقسام :

رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان . فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر الى تأويل، والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر الى تعبير، والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث[1] .

وقد ترتب على ما جاء في الإسلام عن الأحلام أن اهتم بعض من علمـاء المسلمين بتفسير الأحلام وألفوا فيها الكتب مثل : محمـد بن سيرين ، والكرماني ، وابن أبي طالب القيرواني، والسالم وغيرهم . وتتميز هذه الكتب بطابعها الديني من حيث نظرتها الى الأحلام سواء بأنواعها أو بتفسيراتها .

وبرز اهتمام كبير بتفسير الأحلام التي يرى النائم فيها النبي أو أحد أصحابه أو الصالحين . واعتبر كثير من المسلمين أن مثل هذه الأحلام لها أهمية خاصة ودلالة من حيث أنهـا تعتبر من الرؤيا الصادقة . فقد ورد في الصحيحين أن النبي قال :

مَن رآني في منامه فقد رآني حقاً .

وبذلك يمتزج الخيـال في الواقع بشكل لا يقبل التعليل العقلاني . وكان آخر إعلان رسمي لرؤية النبي في المنام مـا أذاعه الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ورئيس مجمع البحوث الإسلامية أثنـاء حرب تشرين أول (اكتوبر) ١٩٧٣ . فقد خطب في خطبة الجمعة من على منبر الأزهر قائلاً :

إن أحد الصالحين رأى رسول الله ﷺ يزور أحد العلماء المسلمين في منزله بالقاهرة ، ورأى صـاحب البيت يصلي ركعتين ثم يرافق

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٧٧ .

الرسول الى سيناء حيث يشرق بنوره الكريم هنالك. وأخذا يتنقلان بين الجنود[1] .

وقد طلب الرجل الصالح الذي رأى النبي من شيخ الأزهر أن

يُبلّغ الرئيس المؤمن محمد أنور السادات بها .

وعندمـــا سمع المصلّون ذلك غمرتهم العواطف الدينية والتفاؤل بالنصر وضجّوا بالتهليل والتكبير .

ويقول الصحفي الذي أجرى المقابلة مع شيخ الأزهر بعد الخطبة :

سمعت هـــذا الخبر المؤمن من الإمام الأكبر مع آلاف المصلين بالجامع الأزهر ومع ملايين المستمعين في مشارق الأرض ومغاربهـا . فامتلأ قلبي إيمانـاً على إيمان بأن النصر حليفنا إن شاء الله .... وأن رايات الفتح المبين سترفرف قريباً على الأرض والمقدسات[2] .

وعلق شيخ الأزهر :

إن المعركة التي تخوضها قواتنا المسلحة بعزيمة المؤمنين ويقين الصادقين ، ترفرف من حولها البشائر ...[3]

ولقد ولدت خطبة شيخ الأزهر حـالة من الإنتشاء لدى الجماهير والثقة بالنصر استناداً الى ذلك الحلم .

---

(١) آخر ساعة ، عدد ٢٠٣٥ ، اكتوبر ١٩٧٣ — كانت خطبة شيخ الجامع الأزهر في الأسبوع الثاني من الحرب وقبل إعلان وقف إطلاق النار .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .

استنتاجات

إن لجوء الجماهير الى مختلف أنواع الخرافات لعلاج الأمراض الجسمانية والنفسية والاجتماعية ومواجهة المشاكل الحياتية عموماً على المستوى الفردي أو الجماعي ما زال واسع الانتشار في البلاد العربيــة ، وخاصة في المناطق الريفية والمدينية الفقيرة . وما زال جزء كبير نسبياً من المتعلمين في شرائح الطبقة الوسطى المختلفة يؤمنون بمثل هذه الخرافات وإن كانت ممارساتهم لها أقل مما هي في الريف . وما زال الأطفال ينشأون وهم يستقون معلوماتهم من البيت بكل ما فيه من جهل وعلاقات سلفية وخرافة تترسب في الأذهان والنفوس الى سنوات طوال . وما زالت عقلية المجتمع مستعدة لتصديق شتى أنواع الخرافات سواء كان مصدرها إنسان أصيب بمرض عقلي أو واحدة من مؤسسات الدولة التي لها علاقة مباشرة مع الجماهير .وما زال الذهن الاجتماعي قادراً ومستعداً لتوليد الخرافات وترويجها ، هروباً من التفسير العلمي للواقع ، وجرياً وراء المعجزة التي ينتظر حدوثها بين الحين والآخر . وما زالت الظواهر أو الأحداث الطبيعية قابلة بأن تفسر تفسيراً خرافياً في البلاد العربية والجماهير قابلة لتصديقها . ولعل القصص التي ظهرت بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، تؤكد صحة هذا الاستنتاج .

دارت المعارك فكانت الطائرات الاسرائيلية تتهاوى وتجلت الرعاية الإلهية لجنده فآزرهم ونصرهم وأمدهم بعونه الذي لا يستطيع منكر جحده فكلما أتتها أسلحة لا تجد لها بقاء في الميدان ولا

سيطرة على أي مكان ، ففشلت جهودهم ودمر عتادهم[1] .

وكان للأولياء يد في نصرة الجيش الثالث :

وهل أتاك نبأ هذا الماء الذي تفجّر في السويس بالقرب من ضريح ولي الله « الغريب » والذي تفجّر أيضاً بالقرب من عيون موسى ؟ لقد تفجّر هذا الماء حين اشتدت حاجة الجيش الثالث الى الماء [2] .

وما زالت المؤسسات الحاكمة ميّالة للاستفادة من إيمان الجماهير ومعتقداتها، وذلك باصطناع لباس يتجاوب مع عواطف الجماهير . وفي نفس الوقت تشيع هذه المؤسسات العديد من القصص الخرافية التي تخدم مصالحها . وبالاختصار فإن المدقق بأحوال العقلية العربية يستطيع أن يدرك أن الخرافات تضرب جذورها الطويلة العريضة في الطبقات الدنيا للمجتمع وحتى رأس الهرم الاجتماعي . وأن البلاد العربية مرشحة دائماً في ظل التركيب الاقتصادي الاجتماعي الحالي لأن تصل الخرافات الى موضع تصنيع القرارات الحاسمة .

وبسبب التغييرات السياسية والاقتصادية التي شهدها المجتمع العربي في العقود الأخيرة والتي كان من شأنها القضاء الى حد كبير على نفوذ الطبقة « الارستقراطية » من أسر حاكمة أو كبار الاقطاعيين كما حدث فعلاً في مصر والعراق وسوريا وليبيا والجزائر ؛ وحلول الشرائح البرجوازية العليا والمتوسطة في مركز السلطة مدعومة بالبيروقراطيات العسكرية والتي ترجع أصولها أيضاً الى نفس هذه الشرائح في أغلب الأحيان ، فإن جذور التفكير الخرافي أصبحت الآن أقرب الى مركز السلطة والأجهزة التابعة لها مما مضى .

ونظراً لانعدام المؤسسات الديمقراطية في معظم أنحاء الوطن العربي ،

---

(١) د. ابراهيم نجا ، منبر الاسلام ، « العاشر من رمضان » ... فبراير ١٩٧٤ ، ص ٢٢ .

(٢) د. الشيخ عبد الحليم محمود ، منبر الاسلام ، ص ١٦ .

والحَجْر المفروض على النشاطات السياسية ، وضعف المؤسسات التعليمية والاجتماعية والاقتصادية إن وجدت ، وعدم قدرة هذه المؤسسات على إثبات ذاتها كمؤسسات تتمتع بالاستقلال ، والتجديد ، والديناميكية ، والاستمرارية ، فإن دور ذهنية الفرد حين يصل الى مركز يكون له دوره في تشغيل جهاز الدولة سواء على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي ، يصبح بالغ الأهمية باعتبار أن آراءه وأفكاره وسلطته تصبح هي القانون الذي تسير عليه المؤسسة التابعة له .

إذا أضفنا الى ذلك القيود المفروضة على حرية التعبير سواء في الاجتماعات العامة ، أو المحاضرات المتخصصة أو الصحافة أو الكتب ، نجد أن الجهود المبذولة لتحرير العقلية العربية من رصيدها من المعلومات الخرافية وتخليصها من ميكانيكية التفكير الخرافي تتعثر باستمرار وتصاب بين الحين والآخر بنكسات متتالية حسب الانفراج السياسي والايديولوجي الذي يسود المنطقة في فترة ما والذي تعقبه فترة من النكوص تعيد الوضع الى ما كان عليه باستثناء ما يقتضيه منطق التطور الحتمي الطبيعي الذي يرافق التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي تتناول بنية المجتمع ، والتي هي بطيئة بطبيعة الحال . وهذا ما يجعل خطورة الخرافات في البلاد العربية ليست ذات أهمية تاريخية أو أكاديمية فقط ، بل ذات تأثير كبير في تحديد مستقبل المنطقة .

إن « القشرة العلمية » التي يكتسبها الفرد العربي خلال سنوات التعلم ابتداءً من المدرسة وانتهاء بالجامعة تتميز بطابع هش وانتشار سطحي ، وبالنادر أن تتغلغل لتصل الى لب العقلية الفردية أو الجماعية ، وبذلك تحافظ العقلية على خرافتها . وفي رأينا أن هذا الوضع هو تعبير بارز عن الدور الانتاجي الحقيقي الذي يقوم به المتعلمون كأفراد في المجتمع ، وعن دور العلم والتكنولوجيا في عملية الانتاج .

إن تحليل الواقع الاقتصادي في معظم البلاد العربية يكشف عن إنتاج زراعي بالدرجة الأولى غير مصنّع وغير متطور ، وإنتاج حِرَفي أو حِرَفي

موسّع ، بالإضافة الى التجـــارة المحلية أو شبه المحلية والمتمثلة أساساً في الاستيراد . أما الإنتاج البترولي – حيث وُجد – فيمكن إخراجه من صلب المركب الإنتاجي للمجتمع – بمفهوم العنصر البشري من حيث الجهد والإبداع ونوعية العلاقات الإنتاجية – حيث تقوم الشركات الأجنبية في أغلب الأحيان بمعظم العمليات الإنتاجية . والصناعة البترولية بهذا الصدد لا تعدو أن تكون مصدر مال بالدرجة الأولى والغالبة ومجالاً للعمالة الهامشية من حيث تأثيرهـا على حجم الانتاج القومي العام ونوعيته أو من حيث الخبرة التكنولوجية . ومصدر المـال هذا (واردات البترول) لا يتأثر أساساً . ولا يخضع للمرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع في مسيرته الحضارية سواء في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السـائدة أو في حـالة العمالة والبطـالة أو توزيـع رؤوس الأموال .

ولأن الصناعات القائمة في أنحاء الوطن العربي ليست هي أساساً من صنع الإنسان العربي ، بل إن المصانع مستوردة بماكيناتها ونُظُم تشغيلها وتنظيم العمل فيها ، ولأن دور المشترك في الصناعة أو الزراعة مـا زال بعيداً عن الإبداع والتجديد حيث يتم تطوير الصنـاعة أو الزراعة المحلية باستيراد الوسائل والتقنيات الحديثة الجاهزة من الخارج ، ولأن معدل التطور التقني في البلاد المتقدمة أسرع بكثير من معدل استيعاب المجتمع الزراعي لأصول الزراعة المُصنّعة والتصنيع بالمفهوم التكنولوجي والاجتماعي ، فإن دور الانسان المشترك بزراعة مصنّعة أو بصناعة أو مـا شابهها لا يعدو تشغيل النظام حسب التصميم والأسلوب الذي أبدعه المصنّع في الخارج .

وبسبب انعـدام الوعي الإجتماعي والسياسي التقدمي العلمي المبني أساساً على فهم جوهر القوى والمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بعلاقاتها الجدلية ، وبسبب كون السلطة بيد شرائح عُليـا من طبقة متوسطة – أخذت توسطها ليس من دورها الحقيقي في عمليات إنتاج متطور بعلاقاته وكمياته حسبما هو في الدول المصنّعة – لم تخض تجربة انقلاب صناعي من

نوع ما، بل أخذت مكانها كوريثة اقتصادية وسياسية للإقطاع والأرستقراطية الإجتماعية والدينية التي تحطمت خلال فترة الاستعمار الغربي وما تلى ذلك من استقلالات وطنية ، ولأن الصناعات ما زالت أساساً في غالبيتها لإنتاج المواد الاستهلاكية التي لا يشكل تخلخلها زعزعة « ضخمة » في الاقتصاد الوطني ، ولأن الغالبية العظمى من الفئات المتعلمة تستثمر إمكاناتهـا من خلال استخدام الحكومة لها لتقوم بأدوار إدارية متخلّفة ، بالدرجة الأولى ، يخنقها الروتين ، والبيروقراطية ، والسلفية ، والتضخم ؛ وبسبب انعدام التخطيط الواقعي الموائم بين نمو الاحتياجات العلمية والتقنية من جهـة والاقتصادية من جهـة أخرى سواء من حيث الكم أو النوع ؛ لكل هـذا وغيره فإن دور الفئات المتعلمة في العمليات الإنتاجية في البلاد العربية (ومثيلاتها من الدول المتخلفة) مـا زال ضئيلاً وضعيفاً بشكل ملحوظ ومتخلف عن الطموح الحضاري ؛ والسياسي ، والعلمي للفرد والمجتمع العربي ككل .

وما زالت الفئات المتعلمة تعيش على هامش الماكينة الإنتاجية ، أو بالكاد بدأوا يصلون الى أطرافها . وهـذا يجعل المركز الاقتصادي الفعّال للمتعلم لا يختلف كثيراً عـن غيره من المواطنين من حيث الاطمئنان الى المستقبل والى مناعة مكانته في المجتمع من الناحية الإنتاجية ، بحيث يصعب على السلطة في تصادمها معه خلال عمليات الصراع السياسي أو الإجتماعي ، يصعب عليها الاستغناء عنه ممثلاً في شخصه أو بالفئة التي ينتمي اليها . هذا لا ينفي حقيقة تناسب الدخل مع درجة التعليم بشكل طردي ، وإن كان تناسب الدخل مع القيمة الحقيقية للإنتاج أو الدور الإنتاجي أقل من أن يكون طردياً يتبع مُنحنىً خطياً .

ولأن مناهج التعليم العالي في غالبها منقولة عن جامعات العـالم المتقدم وخاصة العالم الغربي ، أو لأنها مصممة لكي « تضاهي » تلك الجامعات والتي تتبع مناهجها الدراسية وترتبط بالمرحلة الحضارية – بأبعادهـا الاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعية التي تمرُّ بها مجتمعات تلك الدول – ترتبط بها كما

ونوعاً ، وهي بالتالي غريبة عن المجتمع العربي ، لذا فإن دور التعلم والمتعلمين من هــذه الوجهة ضئيل من حيث خدمته لعملية التطور الحضاري . يزيد الموقف تفاقـــاً تلك الهوة الكبيرة بين المجتمعات الزراعية وبين المجتمعات المتقدمة بمـــا فيها من علوم وتقنية . إذ يجد المتعلم نفسه عاجزاً عن تطبيق علومه بشكل مبدع وخلاق وعاجزاً في أحيان كثيرة عـــن الجهر بآرائه العلمية وتحليلاته العقلانية خوف الاصطدام بالأفكار والتقاليد الإجتماعية .

فإذا أضيف الى ذلك الهوة السحيقة أيضاً بين المستوى الحضاري بأبعاده الصناعية والإنتاجية والأيديولوجية البلاد العربية ، وبين التخصصات العالية التي يدرسها المتخصصون في العلوم والهندسة والتربية والفنون والإنسانيات من اجتماع واقتصـــاد وتاريخ وفلسفة .. الخ ، نجد أن الدور الحقيقي للتخصصات العالية في الإنتاج الوطني ما زال هامشياً أيضاً . وتنحصر وظيفة الاختصاصي بتلقين جزء من علومـــه الى طلاب له ، أو في رئاسته لمؤسسة اقتصادية أو جزء منها تجمعه بهـــا نوع من الصلة الإدارية أو الشكلية أو الدراسية . وأحياناً تمتد مهنة المتعلمين والاخصائيين لتشمل اختيـــار واحد من الاقتراحات أو الوسائل أو العطاءات أو الماكينات التي تتنافس مؤسسات الدول الصناعية على تقديمها . وفي الحالات التي يحاول المتعلم أن يحافظ فيهـــا على مستواه العـــالي يجد نفسه في كثير من الأحيان منساقاً وراء التخصص الذي درسه في الخارج ليخدم أساساً الأبحاث القائمة هناك لتستفيد منهـــا المصانع والمؤسسات في البلاد الصناعية .

إن هذه الهامشية في الدور الإنتاجي للفئـــات المتعلمة، والتي كثيراً ما لا يسمح لها التركيب الاقتصادي والاجتماعي السائد ، بتوظيف خبراتها وعلومها لصالحها من خلال الاستثمارات الحرة باتجـــاه التطور الرأسمالي ، ولا لصالح المجتمع ككل ، من خـــلال مؤسسات جماهيرية تحركها عقليات علمية ، وقيادات طموحة واعية متطورة في اتجاه التطور غير الرأسمالي أو الاشتراكي . هذه الهامشية وعدم الإطمئنان الى القوة الاقتصادية والسياسية

الفئات المتعلمة (وغيرها) تنعكس على نفسية وعقلية أفرادها سواء من حيث الوعي الاجتماعي أو السياسي أو الايديولوجي ، ليدفع بهـا من خلال العلاقة الجدلية بين بُنية الفرد بكامل أبعادها ، وبين بنية المجتمع بكامل أبعادها أيضاً الى موقف وسطي متذبذب في مجال الفكر والعلمانية . موقف يتأرجح فيـه المتعلم بين علومه التي اكتسبها كتعبير عن مستوى حضاري لمجتمعات متقدمة والتي لا تدعمها علاقات انتاجية محلية بنفس درجـة الرقي ، وبين الخرافـة التي هي التعبير الذهني عن العلاقات الاقتصادية الاجتماعية السائدة في مجتمع متخلف .

وحين تكون الكتلة الاجتماعية في مرحـلة خرافية في صميمها ، تجرف معها أو ينساق معها فئـات المتعلمين ، أو يكون دورهم في تطوير الفكر والاقتصاد ثانوياً . هذا يؤدي بنا الى الاستنتاج بأن الطموح العلمي ، وإمكانية إحلال العقلية العلميـة مكان العقلية الخرافية على مستوى الفرد والمجتمع ، مرتبط أساساً وبالضرورة بالوعي الاجتماعي والسياسي الذي يترتب عليه خلق مجالات العمل المناسبة من خلال علمنة وتحديث العلاقات والمفاهيم الإنتاجية والإجتماعية عن طريق التغيير الجذري المتواصل الواعي .

هذا الكتاب

هو الاول من بحث شامل ، يرغب المؤلفـــان ان يطرحا من خلاله العقلية العربية على بساط الدراسة والتحليـــل من جوانب جوهرية متعددة . وانه بالتالي مساهمة اولى في هذه المحاولة الجريئة الهادفة الى الوصول بالقارىء العربي الى حالة من الفهم الاعمق والتقييم الاشمل للانسان العربي الحديث ، الانسان العربي في مرحلة يبحث فيها عن نفسه ، عن ذاته ويسعى عن وعي ، او عن غير وعي الى تحقيقها في خضم تحديات العصر بكل ما فيه من انجازات علميـــة وتقنية وانفتاح فكـــري عام .

ولا تحاول هذه الدراسة ان تتناول مفاهيم المجتمع العربي عن المجتمعات الاخرى ، وذلك لان الدراسة هنا التزمت بتحليـــل المؤثرات الذهنية وبعض ملامح ميكانيكية التفكير ، الامر الذي ادى الى نشوء هذه المفاهيم .

ولقد بدءا بالخرافة ، فنحن بحاجة الى جهد نظري كبير لتخليص العقل العربي من آلية التفكير الخرافية ، وهي الآلية التي تفسد هذا العقل وتجعله عاجزا عن التحدي والانطلاق والابداع .

دار الحقيقة ـ بيروت